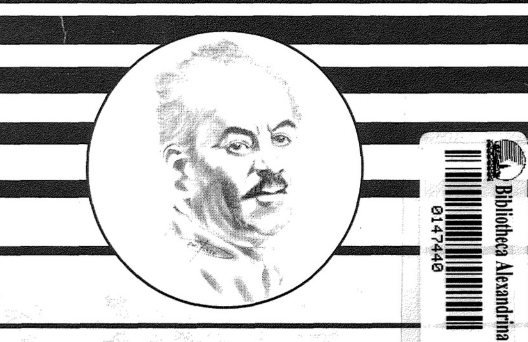


جُبران خليل جُبران

النبيّ . رمل وزبد

ترجمة : د. ثروت عُكاشة

الأرواح المتمرِّدة . الأجنحة المتكسِّرة





الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الصفوة

النبي . رمل وزبد
الأرواح المتمردة . الأجنحة المتكسرة



جبران خليل جبران

النبيّ . رملٌ وزبد

ترجمة : د. ثروت عُكاشة

الأرواحُ المتمرِّدة . الأجنحةُ المتكسِّرة

تحقيق وضبط

إدارة النشر العربي

قدّم لها بدراسة

الدكتور ثروت عُكاشة





مكتبة لبنان

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة – مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الكمبيوتر 01 C 199103

رقم الإيداع ٩٦٧٧ / ٩١
الترقيم الدولي ISBN 977 - 16 - 0077 - X

مطابع المكتب المصري الحديث – القاهرة



المحتويات

الصفحة

كَلِمَةُ النّاشِرِ

مَعَ شاعِرٍ أديبٍ فَنّانٍ : كانَتِ الفُرْشاةُ قَلَمَهُ ، دَبَّجَ بِها أشْعارَهُ وَتَأمُّلاتِهِ وَقِصَصَهُ ؛ وَكانَ القَلَمُ فُرْشاتَهُ ، صَوَّرَ بِهِ لَوْحاتِهِ فَبَثَّها أفْكارَهُ وَتَصَوُّراتِهِ وَمَشاعِرَهُ ..

تَشْعُرُ عِنْدَ قِراءَتِهِ بِمَذاقٍ خاصٍّ ؛ فَلألْفاظِهِ رِقَّةٌ نادِرَةٌ ؛ وَلِتَشْبيهاتِهِ خَيالٌ عَجيبٌ ؛ وَإذا وَصَفَ شُخوصاً أوْ أحْداثاً جاءَ وَصْفُهُ شِعْرِيًّا ؛ وَإذا أفْصَحَ عَنْ رَأْيٍ أوِ اعْتِقادٍ نَضَحَتْ تَعْبيراتُهُ بِالعاطِفَةِ وَالبَلاغَةِ القَوِيَّةِ ؛ وَإذا حَلَّلَ مَوْقِفاً غاصَ في أغْوارِهِ وَأحاطَ بِكُلِّ أبْعادِهِ .

مَعَ جُبْران خَليل جبران ، عَزيزي القارِئَ ، هَذا اللِّقاءُ الجَديدُ في سِلْسِلَةِ « الصَّفْوَة » ، حَيْثُ تَجِدُ لَوْناً فَريداً مِنَ الإبْداعِ الأدَبِيِّ يَخْتَلِفُ عَمّا نَشَرْناهُ مِنْ قَبْلُ في « الصَّفْوَة » لِلأسْتاذَيْنِ مصطفى لطفي المنفلوطي و ثروت أباظة . وَبِهَذا نُحَقِّقُ سِمَةً أساسِيَّةً مِنْ سِماتِ سِلْسِلَةِ « الصَّفْوَة » ، وَهِيَ التَّنْويعُ في مَجالِ تَغْطِيَةِ المُؤَلِّفينَ وَمُؤَلَّفاتِهِمْ .

لَقَدْ كَتَبَ جبران خليل جبران جانِباً مِنْ مُؤَلَّفاتِهِ بِالعَرَبِيَّةِ ، وَكَتَبَ الجانِبَ الآخَرَ بِالإنْجليزِيَّةِ ؛ فَاصْطَفَيْنا مِمّا كَتَبَهُ بِالعَرَبِيَّةِ « الأرْواح المُتَمَرِّدَة » ، وَ « الأجْنِحَة المُتَكَسِّرَة » . وَاصْطَفَيْنا مِمّا كَتَبَهُ بِالإنْجليزِيَّةِ « النَّبيّ » و « رَمْلٌ و زَبَد » في تَرْجَمَتِهِما العَرَبِيَّةِ الَّتي وَضَعَها بِبَراعَةٍ وَاقْتِدارٍ الأسْتاذُ الدُّكتور ثروت عكاشة ، الَّذي وَضَعَ أيْضاً دِراسَةً ضافِيَةً عَنْ جبران خليل جبران وَأدَبِهِ زَيَّنّا بِها صَدْرَ هَذا المُجَلَّدِ .

وَقَدْ قامَ مُحَرِّرو إدارَةِ النَّشْرِ العَرَبِيِّ بِالشَّرِكَةِ ، بِتَحْقيق نُصوص الأعْمالِ الأرْبَعَةِ وَتَحْريرِها وَتَصْحيحِها وَضَبْطِ مُفْرَداتِها وَشَرْحِ ما غَمَضَ مِنْها .

تِلْكَ ، أيُّها القارِئُ الكَريمُ ، نِتاجُ قَلَمِ طائِرٍ عَرَبِيٍّ اغْتَرَبَ ، آبَ إلَيْكَ في حُلَّةٍ جَديدَةٍ ، عَلَّهُ يَحوزُ رِضاكَ ، ورِضاكَ بُغْيَتُنا .

وجدي رزق غالي

مدير النشر العربي
الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان

مدخل لدراسة جبران خليل جبران
بقلم الدكتور ثروت عكاشة

نشأة جبران

بين دمشق وبعلبك تنقَّل جدود جبران : طاب لهم المقام أوَّلاً في دمشق فاتَّخذوها مَوْطِنًا ، ولعلها كانت وطنهم الأول الذي فيه نشأت هذه الأسرة . وما نشكُّ في أنها كانت من الأسر المتوسطة التي تعيش على ما تكسب ، حتى إذا ما ضاقت في وجهها سُبُلُ الكسب خرجت من بلد إلى بلد ، لا يشدّها إلى البلد الأول سبب ؛ فهي لا تملك فيه شيئًا . وحين ضاقت دمشق بأجداد جبران خرجوا منها يقصدون بعلبك ، خرجوا يستدبرون ضيقًا في دمشق ليستقبلوا سَعَةً في بعلبك . وما نظن أن المقام طاب طويلاً لهذه الأسرة في بعلبك ؛ فلقد خرجت إلى قرية أخرى في لبنان هي بشعلا . لا ندري كم أقامت في بعلبك ، ولا كم أقامت في دمشق ، ولكِنّا ندري أن يوسف الجَدّ الذي انتقل بهذه الأسرة أولاً إلى بعلبك قد أعقب سعداً ، وأعقب سعد جبران خليلاً والد جبران ، الرَّجل الذي نُتَرْجِم له [1] . وأغلب الظن أن هذه الأسرة كانت تحترف البيع والشّراء ، تحترفه على صورة هيِّنة يسيرة ، تخرج للتسوُّق هنا وهناك ؛ لتكسب رزقًا قليلاً يقيم أَوَدَها ، ويُبَلِّغها كَفافَها .

وفي ظل هذه التّنقلات أَلَمَّت الأسرة بقرية بِشَرّي في الشّمال من لبنان ، لا ندري أ كان أول من أَلَمَّ بها خليل والد جبران أم كان غيره من آبائه قد أَلَمَّ بها من قبل . وفي هذه القرية – قرية بِشَرّي – التقى خليل والدُ جبران كاملةَ بنت الخوري إسطفان عبد القادر رحمة ، ولم تكن كاملة حين التقاها خليل بِكْرًا ، وإنما كانت أرملة تُوُفِّي عنها زوجها الذي خَلَّفَها في الحياة وخَلَّف معها ولداً منه هو بطرس . وأغلب الظن أن بطرس هذا حين التقى خليل كاملةَ كان صبيًّا لا يعدو الخامسة أو يجاوزها بقليل ؛ إذ إن خليل بعد أن بنى بكاملة ، وحين أولدها جبران ، كان عمر بطرس ستة أعوام .

وكانت كاملة قبل أن يلقاها خليل في بِشَرّي قد جرَّبت الرِّحلة إلى أمريكا مع زوجها ، فلقد رحلت معه إلى البرازيل سعياً وراء الرِّزق وضرباً في الأرض البعيدة ، شأنها في ذلك مع زوجها شأن اللبنانيين جميعاً : عُشّاق أسفار ، وجَوّابو أقفار ، وراكبو بحار يطلبون الرِّزق في منابته . وكانت أمريكا قد ملأت أذهان اللبنانيين بخيراتها الكثيرة ونعيمها الواسع ، فخرجوا إليها يطوِّح بهم الرِّزق القليل إلى حيث الرِّزق الوفير . وكما خرج كثير من اللبنانيين خرج حنا عبد السلام رحمة بزوجه كاملة إلى البرازيل ، وهناك ولدت له ولده بطرس ، ولكن الأب ما كادت تَقَرُّ عينه بابنه حتى أغمضها إلى الأبد . وحين فجعت الأم في الأب سَئِمَت المقام في البرازيل فحملت صغيرها ، ولم يكن قد جاوز السنة الأولى من عمره ، وعادت إلى لبنان . غير أن تلك الرِّحلة كان لها شأن كبير في حياة صاحبنا

---

(١) ساق الزركلي في كتابه « الأعلام » في رسم جبران نسبه على الوجه الآتي : جبران بن خليل بن ميخائيل بن سعد بن يوسف .

جبران ، وكأن كاملة ما جابت البحر إلا لتهيئ لجبران فيما بعد رحلة ثانية إلى أمريكا بعد رحلتها الأولى ؛ فلو لم تكن رحلة كاملة إلى أمريكا ، ما كانت رحلة جبران إليها فيما نظن .

وعلى حين كان الزّوج الأول لكاملة رجلاً صالحًا كان خليل رجلاً غير صالح ، و سِكِّيرًا لا يكاد يفيق ، ولكنه على هذا كان فَكِهًا ظريفًا ، ذَلِقَ اللّسان ، طيب العِشْرَة . ولعل تلك الأسباب هي التي قرّبته من نفس كاملة فرضيت به زوجًا بعد زوجها الأول . وفي السّادس من كانون الأول [1] — وإذا ذُكر كانون ذُكِرَ البرد بلَفْحِه وعَصْفِه ، فهو يقابل من الأشهر الإفرنجية شهر ديسمبر — من عام ١٨٨٣ وُلد جبران في هذه القرية « بشرّي » ، رُزِقه والده بِكْرًا على كبر ، فكانت فرحته به عظيمة ، ورُزِقته أمه بعد أن كادت تفقد الأمل في أن تكون أمًّا لولد ثانٍ بعد أن مات عنها زوجها الأول . ثم أنجبت بعده بعامين بنتًا أسمتها مريانا ، ثم أخرى دعتها سلطانة .

وبشرّي التي وُلد فيها جبران ودَبّ ، قرية جميلة تُشْرِف على وادي قاديشيا ، تعلو عن سطح البحر بنحو من ألف وأربعمائة متر . هواؤها عليل ، وجوها يميل إلى البرودة ، أهلها أميل ما يكونون إلى الطّرب واللّهو ، ومن تحتها وادٍ سحيق ، ومن حولها الزرع والشجر ، تُغَرِّد على أغصانه الطُّيور ، ويستجيب لغنائها النّاس ، فيندفعون هم الآخرون يغنّون ، وقد تشابكت أشجار الأرْز الضّخمة الباسِقَة ، فعَقَدَت فوق رءوسهم سماءً تَردّ عليهم صدى أصواتهم وصدى أصوات الطّير من فوقهم ، فإذا هذا كله تتجاوب به الأرجاء فتردّده موسيقى حُلوة هيّنة ، تضم إلى نشوة النّاس بمقامهم نشوةً ، وإلى خِفّتهم خِفّة .

في هذا الجو العامر بزَرْعه ، الصّاخب بجماله ، الحافل بالنشوة ، نشأ جبران ينظر ويسمع . وكان ذا عين تتتبّع الجمال فأرسلها وراءه حيث كان ، وذا آذن أرْهِفَت للشّدو ففتحها لا يُغلقها عن سماع شيء منه ، وذا قلب يَلْقَنُ عن هذه العين وتلك الأذن ، فتفتّح هو الآخر لما تنقله إليه العين وتصبّه فيه الأذن ، فإذا جبران عامر بهذا الجمال يكاد يستوعبه كله ، وما أقام في ظلاله غير أعوام تجاوز العشرة بعامين ، وهو على هذا قد امتلأت نفسه تقليدًا ، يفعل ما يفعل النّاس من حوله فيرسم الرسوم الدينية ويؤدي العبادات ، ويأنس إلى شجيرات الأرْز المزدَهِرَة وسط جفاف الجبل ، وإلى أنغام الأنسام تمسّ الغصون والأزهار ، ويحادث غيوم الأفق وهمهمات الغابات .

وعلى الرغم من بُعد أبيه عن الدين — إذ كان لا يعنيه من الحياة سوى كأس ولفافة تبْغ ، فإذا لم يجدِ الكأس سرّى همّهُ بتلك اللفافة التي كانت لا تفارق فاه — فإن الصبيّ شبّ ديّنًا ، ورث ذلك عن أمه كاملة أولاً وعن أخيه بطرس ثانيًا . لقد كان الأب مشغولا بنفسه وكانت الأم مشغولة بأولادها ، من أجل هذا أثّرت الأم في أولادها ولم يقو الأب أن يترك شيئًا من الأثر في أولاده . فلقد كان جبران وهو صغير أشوقَ ما يكون إلى الطقوس الدينية ، وأحرص ما يكون على أن يحضرها . يحكون أن بطرس ، وكان فتى قد أشرف على الثانية عشرة ، بكّر ليخرج مع نفر من رفاقه إلى الجبل ليتعذّبوا مع المسيح في فجر الجمعة الحزينة ، وتَنَبَّهَ لهم جبران فتعلّق بهم يريد أن يخرج معهم ، فلم يرضَ الأب ، وضربه ليحول بينه وبين هذا الخروج فما أفلح ، واحتالت عليه الأم لتحولَ بينه وبين هذا الخروج فما أفلحت . وخرج الصغير ليجمع الأزهار من فوق الجبل ليشارك بها في هذا الحفل

(١) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران . ط٣ بيروت ، مكتبة صادر ، ١٩٥١ . ص ٢٥ .

الكنسيّ . ويمضي النهار وجبران لم يعد فتقلق الأم ، ويقلق الأب ، ويقلق الأخوة ، ويخرجون جميعاً يبحثون عنه ؛ فإذا هم يلقَونه قبيل الغروب في المقبرة خلف الكنيسة وفي يده طاقة صغيرة من عيدان « بخور مريم » . ولقد همّت الأم به لتؤنّبه فإذا هي ترتد عنه كسيفةً حزينة حين تستمع إليه يقول : إنه انفصل عن أخيه ، وذهب إلى البرّيّة وحده ؛ ليتعذب مع المسيح [١]، وإنه بعد هذا الجهد الطويل جاء بهذه الحُزمة من الأزهار ليضعها على هيكل الكنيسة فوجدها مقفلة ، وعندئذ قصد إلى المدافن الغافية وراء الكنيسة ليفتش بين القبور عن قبر المسيح ليضع هذه الأزهار عليه ؛ فيحيا وسط الذكريات الأسيانة لحظاتٍ فريدةً يستمدُّ فيها من الموتى قدرة على مخالطة الأحياء . على هذه الصورة الدينية كان جبران الصغير ، أخذ هذا الدين تقليداً عن الأخ ولم يكن عقله الغضُّ قد كبر ليبحث ، واتسعَ لينظر . ولكن هذا الفتى الذي بدأ ديِّناً عن غير رأي ما يلبث أن يعود فتى ديِّناً عن رأي ، يحبّ أن يمهِّد لدينه برأيه ، ولا يحب أن يجعل رأيه في إثر دينه .

كانت سنوات جبران الأولى مزيجاً من التأمُّل ، وتحمُّل شظف العيش ، والتعاطف مع الآخرين فوق جبل لبنان الناحل الثراء ، الممزَّق بألوان من التعصب ، كانت تخفيها عن عينيه روح أمٍّ متسامحة لا تضيق بالروم الأورثوذكس على نحو ما يضيق بهم الموارنة . فلقد شاهد يوماً حواراً بين عجوز تسكن قريباً من بيته وبائع زيت ، وشاهد تلك العجوز تنصرف عن ذلك البائع لا تريد أن تشتريَ منه لأنه روميّ ، فنبّه ذلك الغلامَ إلى أن يسأل أمه عن دينه فيعرف أنه مارونيّ . ويمضي الفتى يسأل أمه : وهل من خلاف بين الماروني والرومي ؟ فيعلم أن كلَيْهما نصرانيّ فتقرّ هذه في نفس الفتى وتؤلمه ، ولكنه ما يكاد يرى أباه يكرم هذا البائع حتى ينسى ألمه بفرح [٢] . وهكذا بدأ الدين يدخل إلى نفس الفتى فكراً لا تقليداً ، وبدأ الفتى يرى ولا يقلِّد ، ولكنه كان عميق الرؤية مسرفاً فيها فجرّه هذا إلى كثير مما سنرى بعد .

ولعل عنف جبران على نفسه جرّه إلى عنف في رأيه ؛ فلقد كان لا يغفر أن يُقهر في الميادين الحسيَّة ، وكان يود لو أوتي البطش صغيراً حتى لا يبطش به أقرانُه . وكم رجع إلى أمه باكياً اليوم بعد اليوم لأنه كان يُصاب من لِداته ولا يقوى على أن يصيبهم ، وكم ودَّ عندها لو كان كبيراً قويًّا ليقتل خصمَه غيرَ مجتزئ بأن ينال منه ضرباً . وهذه الرغبةُ من جبران في أن يقتل خصمَه — وما حاول خصمُه أن يقتله — تكشف عن تلك النفس العنيفة في جبران ، وعن أن تلك النفس العنيفة أرخت له ليكون عنيفاً في الرأي ، ممعناً فيه ، يحبُّ أن يتعمّقه ، وقد جَرَّهُ هذا التعمُّق إلى ذلك الإسراف في الرأي كما جرَّه الإسرافُ الأول إلى أن يجاوز بالانتقام حدّه لو كان يملك . وكانت أمه تحس هذا العنف منه فتعظه ليرتدّ ليِّناً ، ولكن أباه كان يشجِّعه على هذا العنف ويضربه إن قصّر فيه . [٣] وهكذا بدأ الفتى يأخذ عن أبيه ، وينسى ما يأخذه عن أمه ، لأن الذي كان يأخذه عن أبيه كان يوائم طبعه ، وكان الذي يأخذه عن أمه لا يوائم طبعه .

من هنا نبدأ نساير جبران المتمردَ العنيفَ ، ومن هنا تبدأ سجايا الأم تختفي وتبدأ سجايا الأب تظهر . ولكن هذا الشيء الذي أظهر جبران عنيفاً قاسياً أظهره ذا موهبة جديدة ، فقد بدأ الصَّبيُّ يدلُّنا على أنه موهوب في شيء جديد ، موهوب في التَّصوير والرَّسم . فحين ضاق بالمدرسة ذَرْعاً تحركت يده

(١) ميخائيل نعيمة : المرجع نفسه ، ص ٣٣ . (٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ . (٣) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

لتعبر عن ذلك الضيق بالتصوير . وحين يخلو إلى نفسه في بيته كانت تلك الموهبة تحرك يده ليلتقط فَحْمةً يرسم بها على جدران البيت أشكالاً كان الوالد لا يفهم منها شيئاً ، وكان الصَّبيّ يعبِّر بها عن شيء في نفسه . كان فكر الصَّبيّ أكبرَ من سنِّه ، وكان عقله أكبرَ من جسمه ، وكان ما يحيط به وما يُلقَى في روعه أكبرَ من عقله وجسمه ؛ فالتبست عليه الأشياء ولم يملك أن يجلوَها برأيه . وما كان الفتى بلغ أن يقول ويكتب ، ولكنه كان قد بلغ أن يصوِّر ، وهو حين يصور شأنه حين يقول أو يكتب ، هو في كلتيهما يفصح عن ذات نفسه . وهو حين يرسم لا يقوى على الإفصاح ولكن يقوى على الرمز ، وإذا هو يصوِّر رموزاً لا يعرف الأب لها دلالة ؛ ولكن الابنَ كان يعرف لها دلالة لا يملك أن يجلوَها ، وحسبه أنها عبَّرت عن نفسه ، وصوَّرت ما يجول بخاطره من تلك المعاني المبهمة الغامضة التي أهَّلته لدخول معترك الحياة . وأخذت تلك المعاني تَكْبر في نفسه ؛ فإذا هو شاعر محبٌّ للجمال ، متخيِّل يجري وراء الخيال ، مفكِّر تغلب أفكارُه كلماتِ المقال ، مصوِّر يجعل الرمز وسيلةَ بيانٍ لما يقع .

كان الوالد وفتاه لَمَّا يبلغ الحادية عشرة يخرج به إلى الجبال ليشقى بين منعرجاتها شقاءه ، وليحمل فوق قُنَنها معه عناءه . يبيت معه في خيام البدو بين الأغنام ، وعلى فراش وسخ على الأرض، لا يذوق غير ما يذوق من طعام وماء آسن . يريد الأب ألا يدع ابنه في أحضان الأم ينشأ وادعاً ناعماً ؛ فهذا هو الطريق للكسب في الحياة . ولا عجب ؛ فقد كانت هذه طريقه في الحياة ، وتحبُّ الأم حياة غير تلك الحياة لولدها . وكان جبران لا يرى في تلك المعركة الدائرة بين الأب والأم رأياً آخر ، لم يكن قد نضج أو استوى بعد ، وترك الأيام تهيِّئه وترعاه . وكانت الأم قد عقدت عزمها على أن يمضيَ ابنها في تعلُّمه ودراسته ، وإذ عجزت عن أن تحقق ذلك لابنها في ظل ذلك الزوج فكرت في شيء آخر .

كان بطرس قد شبّ شيئاً ، وأصبح يستطيع أن يكسب قوته . وكان جبران قد اشتد عوده ، وحين رأت الأم زوجها يَصْرِف جبران عما أرادتْ له إلى ما أراده هو له بدأت تثير الرغبة الكامنة في نفس بطرس للهجرة إلى أمريكا ، واستعدَّت مع أبنائها وبناتها ليرحلوا جميعا إلى بوسطن ، حيث يقيم نفر من اللبنانيين قد اتخذوا من هذه المدينة مكاناً للرزق وللكسب . وكان بطرس حينما بدأ يرحل فتى في الثامنة عشرة من عمره ، وكان جبران حين بدأ يصحب أخاه وأمه صبيًّا في الثانية عشرة ، وكانت مريانا تقرب من العاشرة وكانت سلطانة دون مريانا بعامين . وفي الحي الصيني من مدينة بوسطن نزلت كاملة عام ١٨٩٥ يصحبها أولادها الأربعة تاركة زوجها حيث هو في بشرّي .

ودفعت الأم بابنها جبران إلى المدرسة ، وكانت على حظ من الثقافة هيأ لخيال جبران أن ينمو ؛ إذ كانت تستمع إليه وهو يلخص لها ما يقرأ ، وتستمع إليه وهو يقرأ لها ما كتب ، فكانت له الإنسان الأول الذي حبَّب إليه أن يقرأ كثيراً ليملأ فراغ الأم ، وأن يكتب كثيراً ليسرّ الأم ، وحين قرأ كثيراً بدأ يعلم ، وحين كتب كثيراً بدأ يتدرَّب .

وشجع جبران على التصوير شيءٌ يشبه تشجيعَ أمّه له على القراءة ، فلقد وصلته مُدرِّسة التَّصوير في مَدْرسته بمصوِّر معروف في أمريكا هو ماجر [١] ، ما فتئ جبران أن زاره في مرسمه ، ورحَّب المصوِّر

(١) حبيب مسعود اللبناني : جبران حيا وميتا . القاهرة ، مطبعة أبو الهول ، ١٩٣٢. ص ٤ .

بجبران الصبي الناشئ ؛ إذ كان جبران عندها في الرابعةَ عشرةَ . واختلف جبران إلى هذا المصوِّر كثيراً ليعينه ويفيد من خبرته في فنّه . وكان هذا كله على كُرْهٍ من الأسرة التي كانت تحب لجبران أن يشارك أخاه بطرس في عمل المتجر ، ويعينه عليه . وفي مرسم هذا المصور عرف جبران سيدة كانت قد قصدت إلى هناك ليصوِّرها المصوِّر . وحين وقف إليها جبران استخفَّها شبابه واستخفتها شرقيَّته ، فأقبلت عليه تستأنسه وتداعبه مداعبةَ الصَّبيِّ الصَّغير ، وتسأله رأيه في صورتها . كانت السيدة في الثلاثين من عمرها ، تحتفظ بحظ كبير من جمال ، لها زوج من تجار الجلود ، يكبرها بنحو من عشرين عاماً ، يعرف الحياة من طريق ، وتعرفها زوجُه من طريق . يعرف الحياة مالاً يشتري به ما يشاء حتى النِّساء ، وتعرف هي الحياة عاطفةً تجمع بين الرجال والنساء . وحين رأت هذه السيدة جبران رأت فيه عاطفتَها فدعته لزيارتها ، وعرف جبران في هذه الأعوام تجربةَ الحب الأول على صورة غير نقية ، انغمس فيها دون أن يُعير وصايا أسرته بالاً . لقد نضج جبران وصار الشاعرَ العاشقَ الفنّانَ .

وتعود أرواح أجداده الفينيقيين تحرِّك في أعماقه عشقَ المغامرة وارتياد البحار ، وتملؤه هياماً بالهجرة والترحال ، وتشدّه الشواطئ البعيدة فيعتزم الرحيل ، وكأنما هو مشغول بالبحث عن ذاته ، وبالهرب من غُربة تثقله بأحاسيس العزلة المرَّة ، وتطوِّقه في هذا المنفى الذي يسجن معه العالمَ أجمع. أ لم تفطن برباره يانغ إلى إحساسه هذا حين صوَّرته : « مواطناً عالميًّا وسيماً ، كثيف الحاجبين ، داكن الشارب ، يتموَّج شَعره على جبهته العريضة ، وتغرق في التفكير عيناه العسليتان الصافيتان دون أن يشوبهما زيغٌ أو شرود . في ملابسه أناقةٌ تنمُّ عن ذوق سليم ، تتغير بتغير الظروف والمناسبات ، أحسبه في مرسمه الخاص بالشارع الغربي العاشر أحدَ سكان حيِّ جرينتش . ولو أني لقيتُه في مؤتمر اقتصادي أو في حانة بڤيينا أو في وطنه سوريا لوجدته في كل منها متخذاً الصورةَ الملائمة لهذا المكان أو ذاك . وليس مردّ ذلك إلى قصور في شخصيته ، بل إلى إدراكه الفريد وما يملك من مشاركة وجدانية تتخطّى الفروق ، وتسمو على الاختلافات ، وتعينه على فهم كل بيئة والتلاؤم معها حتى لا يبدو أجنبيًّا فيها ، أو يشعر بينها أنه غريب .» (١)

وعاد إلى لبنان ليستأنف التعليم .

وقبل أن يترك جبران بوسطن إلى لبنان كان فيمن ودَّع هذه السيِّدة ، فلقد زارها ليخبرها بعزمه على السفر إلى بيروت ليتقن العربية ، وكان قد أوشك أن ينساها ، وليشبع نظره من أرضه وكان قد تشوّق إليها . ولقد كانت عودة جبران إلى لبنان في سنة ١٨٩٧ ، وحين نزل بيروت دخل مدرسة الحكمة يدرس فيها أربع سنوات أصول العربية والفرنسية . ويشير جبران إلى هذه السنوات الأربع حيث يقول : « أربع سنوات على مقاعد مدرسة الحكمة ، ماذا نفعتك ، اشكر ربك فقد نجوتَ من الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والقوافي ، وإنك وإن فاتتك قواعدها لم يفتك جوهرها . واشكر ربك فقد نجوتَ من الصلوات في الصباح والمساء ، وقد صليتَ في أربع سنوات ما يكفيك حتى آخر حياتك ، فأنت لن تدخل كنيسة منذ الآن ؛ لأن يسوع الذي تحبه لن تجده في كنيسة قط .»

وأحب أن أقف هنا قليلاً أمام كلمة جبران لنعرف للفتى شيئين : ضجره باللغة نحواً وصرفاً مما

(1) Young, Barbara: This Man from Lebanon. New York, Alfred Knopf, 1959.

سيظهر أثره فيما بعد ، ثم أخذه نفسه بالرُّسوم الدِّينية التي فعلها صغيراً وتنكّر لها كبيراً ، فَعَلها متأثّراً بالبيئة حين لم يكن له رأي ، وتنكر لها حين درس وكان له رأي في الحياة .

وهنا تضطرب المراجع التي بين أيدينا ، منها ما يذكر أن جبران بعد هذه الأعوام الأربعة عاد إلى بوسطن ثانياً سنة ١٩٠٢ ، ومنها ما ذكر أن جبران خرج في هذه السنة من لبنان أي سنة ١٩٠٢ يرافق أسرة أمريكية ، يزور معها مصر والأستانة وأثينا وإيطاليا وروما والبندقية وفلورنسا ثم باريس فلندن . وسواء أ كانت الأولى أم الثانية فإن جبران عاد إلى بوسطن قبل أن ينتهي عام ١٩٠٢ ليلحق بالأسرة المكدودة . وفجأة وجد نفسه من جديد في غمار الرَّكْب المرتحل واحداً من حشد يتنازعه الأمل والقلق ، وتتناوشه أيدي المستقبل وأظفار الماضي ، طَوال رحلة لا تترفّق به وهو بعدُ شابّ يوشك أن يكتمل نضجه دون أن يغوص في تجارب الحياة التي تصنع الرجال . ولكنه وحيد بين الرَّكب . لقد نهل من طبيعة لبنان ما ملأ وجدانه ، فهو لا ينفكُّ يغمض عينيه ليعيش بين أنحائه ضارباً بين دروبه ، وإذا طبيعة الفيلسوف الكامنة في نفسه تتكشّف له ، فيتأجّج داخله حوارٌ عميق حول معنى الحياة . كما يستيقظ بين جوانحه حسُّ الفنان المرهف ، فإذا هو يعيد تشكيل الألوان في حُزَم من الجمال قد لا تجود به الطبيعة أحياناً . ثم يجد نفسه على أرض العالم الجديد الذي بدا له في البداية حُلْماً من الثَّراء الفسيح ، فإذا هو كَدْح متّصل ، يتحمّله أخوه في أعمال التجارة التي لا تدرُّ الكثير ، وتلاقيه أمه بالدعاء والحنان ، ولا تضنّ أخناه بالعمل إسهاماً في إطعام الأسرة من أعمال الإبرة . ويُفضي جبران بهمومه إلى الأوراق يجرّب عليها رسومه الأولى ، ويوسوس لها بشِعره الوليد ؛ فتشغله اللوحات والكتب عن العالم المحيط به . ثم إذا هو يكتشف أن الكتابة هي قَدَره ورسالته فينقطع عن كل شيء ليكتب . غير أن عوامل المحنة ما تلبث أن تتجمع حول أسرته ، فيتساقط أفرادها واحداً بعد واحد كأوراق الخريف . تموت أخته بالسُّلّ ، ثم يموت أخوه بالداء نفسه ، ثم أمه ، فيصرخ قائلاً : « كان لي ربٌّ وكان مصدوراً ، وكنت أداويه بعقاقير الكنيسة وتعاويذ اللاهوتيين . واليوم قَضَى ولن يُنشر حتى يوم النَّشر . بلى ! بلى ! لقد مات ربي عندما أمات أختي سلطانة .»[1]

وكان كتابه الأول ، وكان مرسمه الأول كذلك .

جبران والحب

كان جبران جالساً ذات يوم في معرض أقامه لصوره يشكو إلى نفسه عدم إقبال الجمهور على شرائها ، وفيما هو كذلك اقتحمت عليه عزلته سيدة رشيقة أخذت تلقي على الصور المعروضة نظرة فاحصة هنا ، ونظرة فاحصة هناك . وحين رأى منها جبران هذا الاهتمام سألها إن كان ثمة ما يَخفى عليها ، فأجابت : « لا أَكْذِبُك ، إني في حاجة إلى من يشرح الكثير من هذه الصور التي هي من الغرابةِ بمكان ، وما أحبّ إليّ وأنا من المولعات بالفن أن أعرف ما خَفِي عليّ منها . تُرى مَنْ هو مصوّرها ؟» فأشار جبران إلى نفسه ، فتقدمت إليه تعرفه باسمها ، وأنها تدير مدرسة مس هاسكل للبنات ، وتسأله من أي بلد هو ؟ فيقول : « لبنان .» وهنا تضيف ماري : « بلد الأرز المقدّس ومسرح نشيد الأنشاد ؟» وأخذت تسائله عن الصور صورة صورة ، وبدأت تقول وهي مشيرةٌ بأصبعها إلى صورة من تلك الصور : « ماذا تقول هذه الصورة ؟ لقد ذُهلتُ لِتَضامّ تلك الأجساد العارية والأسى

---

(١) ميخائيل نعيمة : المرجع نفسه .

والحزنُ بادٍ على وجوهها ، وكأن قوةً خفية تدفعها إلى أعلى ثم تهوي بها إلى أسفل . ثم إذا هي قد شُتِّتَ ما بينها وكأنها ماء نافورة ارتفع في الهواء ، ثم ما لبث أن عاد ، فانتثر على أرض الحوض قطرات .»

وهنا عجب جبران وقال دهشاً : « لستِ إذاً في حاجة إلى تفسير ؛ فما أردتُ بهذه الصورة غير أنْ أصوِّر نافورةَ الألم .»

وتابعتْ حديثها فقالت : « ولِمَ تُكثر من تصوير الأجسام العارية ؟»

فأجاب : « لأنَّ الحياة خُلقتْ عارية ، والجسم العاري هو أصدق تعبير عن الحياة ، فإذا ما رأيتني أرسم شيئا ما جبلاً أو شلالاً أو غير ذلك على صورة أجسادٍ عارية فإنما أعني أني أرى كل شيء من هذا جزءاً من الحياة العارية .»

فسألته : « ولماذا تُكثر من الرَّمز إلى الموت والألم ؟»

فأجابها بأن الموتَ والألمَ هما ما خرج به إلى الدنيا ، ولا زالا يعايشانه حتى تلك اللحظة . فأسرعتْ تقول : « ما أقرب ما بيننا ؛ فثمةَ ما يربط بيننا برباطٍ وثيق ، رباطِ الفن ورباطِ الألم .»

ثم دعته إلى زيارتها بمدرستها على أن يُقيم معرِضاً لصوره بها .

وهناك قدَّمته إلى مُدرِّسة فرنسية تُدعى ميشلين على حظ كبير من الجمال ، وذكرتْ له أن الجميع على حبِّها وأنها مَلاكُهم جميعاً . وكما أثنت ماري على ميشلين أثنت الفتاة على ماري ، وشبَّهتها بالسِّنْديانة يُعشِّش الجميع من حولها على أغصانها ، وأنها هي الموئل الذي يَفْزعْنَ إليه في مشاكلهن .[1]

وكانت ميشلين حبَّه الأول .

كان حبًّا جسديًّا يُتَيِّم فيه بالفرنسية ميشلين ، التي تعمل بمدرسة ماري هاسكل ، التي تستأثر به روحًا وفكراً . لقد ربطت العاطفة بين جبران وميشلين برباط متين ، عوَّض ما فقده في حبه العذريِّ الروحانيِّ لماري . كان حبه لميشلين تجربةً من نوع جديد ؛ فعلى حين كان يخاطب في ماري رأسَها ، كان يخاطب في ميشلين قلبها ، وكم تمنى لو أنَّ روح ماري حلَّت في جسد ميشلين . إن جبران البائسَ النشأةِ كانت تنطوي نفسُه على ظمأ تمنى معه لو رشف من كل إناء رشفة ، ونهل من كل كأس نهلة ، وأن يَرِدَ كل مورد يقع عليه ، وعلى حين كان يحارب في الناس روح الطمع والشَّره ونوازعَ التملّك ، كان هو على الضد من ذلك غير قنوع ولا زاهد . وحين وقع فريسة لحبَّيه : حبّه لماري وحبِّه لميشلين عاش أسيراً . كم أثَّر الحرمان في نفس جبران وطغى على ما يمليه من رأي ، فإذا ظفر بما يبغيه – على أية صورة كان هذا الظفر – أخذ يبرِّر ما بين فِعْله وقوله من تناقض .

جبران في باريس دارساً

لعل الحدث الذي كان له شأن في حياة جبران هو رحيله إلى باريس في عام ١٩٠٨ حيث مكث سنتين لدراسة الفن ، كانت تعوله فيهما ماري هاسكل . وقبل أن تطأ قَدَما جبران أرضَ فرنسا

(١) ميخائيل نعيمة : المرجع السابق ، ص ٧٨ – ٨٦ .

حل بلندن لفترة قصيرة . وحين استقرَّ به المقام في باريس التحق بمدرسة الفنون الجميلة وأكاديمية جوليان . وهناك التقى يوسف الحويك الذي كان رفيقَه بمدرسة الحكمة البيروتية . ولقد رأى جبران وزميلُه معه أنهما أشدُّ ميلاً إلى المدرسة الكلاسيكية منهما إلى المدرسة التكعيبية ، التي كانت - يومذاك - البدعة الشائعة في باريس . وما لبثا غير قليل حتى اختلفا مع أستاذهما ، فتركا الدراسة واقتسما مرسَماً لهما خاصًا بهما في خريف ١٩٠٩ ، ومضيا في زيارة المتاحف ومعارض الفن . وكان انتماءُ جبران الفنيُّ الحقيقيّ لجملةٍ من الفنانين الفرنسيين الرمزيين أمثال پوڤيس ده شاڤان وغوستاف مورو وغيرهما ، كما كان قد تأثر بالفنان التأثيريِّ الإنجليزيّ وليام تيرنر الذي لقيه في لندن. ولقد أُتيح للوحات جبران أن تَلْقى شيئا من الحظ ، فعُرِضت له لوحة في عام ١٩١٠ بمعرِض الجمعية الوطنية للفنون الجميلة .

وحينما كان جبران بفرنسا فاجأته ميشلين بزيارة لأهلها في باريس - وقد يكون هذا بدافع من الحب - وإذا هو بهذا اللقاء ينسى الدنيا ، وينسى ماري مع دنياها . وبلغ به الهوى أن عرض عليها أن يعيشا معاً خليلَيْن لا يفترقان أبدا ، ولكنها أبت عليه ذلك ولم تجد بديلاً غيرَ الزواج ، غير أن جبران القلق لم يرضَ أن يعيش رَجُلَ امرأةٍ واحدة . وكان لا بد لجبران أن يُخْفِيَ صلته بميشلين عن ماري حتى لا ينقطع ما بينهما من وَصْلٍ ، وأحسَّتْ هذا منه ميشلين ، وكانت قد حملت منه ، فسألته : « ما بالُكَ تحاول أن تكتم عن ماري ما بيننا من صلة ، وهذا الذي أحمله في بطني منك شاهد على ما بيننا ، ولن أجيبك إلى ما طلبتَه منّي من أن أقتله وئيداً في أحشائي حتى لا يفتضح أمرك معي ؟» ويفزع جبران لقولها ويستحلفها أن تعاونه على أن يظلَّ ما بينهما مكتوماً ، ولا سبيل إلى هذا إلا بالخلاص من هذا الجنين ، فتستجيب لتوسلاته درءاً لفضيحة مرتقبة . ثم يفترقان وتعود هي إلى أمريكا حيث تتزوج ، وتستقر حتى تدركها الوفاة عام ١٩٣١ بعد ستة أشهر فقط من وفاة جبران .

وقبل أن يترك باريس عام ١٩١٠ التقى جبران الكاتبَ والشاعر اللبناني أمين الريحاني ؛ وإذ كانت ميولهما واحدة فما لبثا أن أصبحا صديقين ، فرحلا معا إلى لندن يصحبهما مواطنُهما الفنان يوسف الحويك . وهناك وضعوا الأسس التي تكفل في رأيهم نهضة العالم العربي من كبوته . وكانت الركيزة الأساسية لبرنامجهم هي حتميَّةُ الوفاق بين المسلمين والمسيحيين العرب ؛ فعليها ينبني مستقبل الشرق الأدنى كلّه . وكان مما يؤرِّقهم هذا النزاع الدينيُّ المشتعل بين الطوائف المختلفة ، القائمُ على التعصب المقيت . وَخالَ هؤلاء الثلاثةُ أن في تشييد دارٍ للأوبرا في بيروت ، تعلوها قبّتان : قبّةٌ ترمز للإسلام وقبّةٌ ترمز للنصرانية - مدعاةً للوفاق بين المسلمين والنصارى . ومع أن حُلْمَهم لم يتحقق فحسبُهم شعورُهم هذا الذي عبَّرت عنه مؤلَّفات جبران الناضجة التي جاءت بعدُ .[1]

جبران و ماري هاسكل

وإذا كان حب جبران « لماري » قد يسَّر له الذّهابَ إلى باريس لمواصلة دراسة الفنِّ فيها لمدة سنتين على نفقتها - فقد يسَّر له بعد ذلك نشرَ مقالاته وكتبه بالإنجليزية . ولولا أنَ « ماري » دخلتْ حياة « جبران » ، ما كنا ندري : هل يستطيع هذا الفنان العربيّ المهاجر أن يجد الوسيلة التي يخاطب بها

(1) Bushrui, Suheil: Kahlil Gibran of Lebanon. Gerrads Cross, Colin Smythe, 1987. pp. 29, 30 .

قوماً غيرَ قومه بلسان غير لسانه ؟ ذلك أن « ماري » كما دفعت بجبران إلى مواطن الفن في باريس وعواصِمِ أوربا ، دفعت به كذلك إلى التعبير عن نفسه بالإنجليزية بجوار ما عبَّر عنها بلسانه العربي ، فأضافتْ بذلك ثروةً جديدة إلى أدب « جبران » ، فكانت تُقوِّم أسلوبه الإنجليزيَّ ، وتحفزه إلى المثابرة على الكتابة ، وترى في ومضاته النابضة بشيراً بقلم عظيم . فلما فعلَ وتحقَّق له حلم كبير ، خفَّ في نفسه بعضُ ما كانت تعانيه . لقد كان من قبل كاتباً يمثل مدرسةً في المهجر يفخر بها أهله وعشيرته ، ولكنَّ أهله وعشيرته كانوا يعيشون بعيداً ، فلم يكن يحسُّ كلما كتب أثرَ ما يكتب فيمن حوله من الناس ، ولعل هذا كان يُشْقيه . لقد كان يريد أن يكون شيئاً هامًّا حيث يعيش ، كما أصبح شيئاً هامًّا حيث لا يعيش ، وتحقَّقت له الأمنية . وكانت « ماري » أيضاً هي التي حقَّقتها له .

لم تكن ماري واسعةَ الثَّراء ، لكنها كانت تحتجز له ما تضِنّ به على نفسها . لقد ظلَّت تُعينه بعد عودته من باريس ، وترفض أن يعمل بالصحافة ليظلَّ وقته كله خالصاً لإبداعه الفني . فقد كانت مشغولةَ الفكر بخَلقِه الفني ، حريصةً على أن يبلغ مستوًى يشدّ إليه أنظار العالم ؛ إذ « كانت تؤمن أن جبران يرقى بإنتاجه إلى ما فوق المستوى البشريّ ، وتعدُّه واحداً من طليعة تجمَعُ بين المسيح وبوذا وميكيلانجلو وشكسبير . »[1] كانت « تجلس بين يديه جِلْسَةَ التلميذة الوفية المتغنية أبداً بفضل المعلم، والحَوارِيَّة المؤمنة بإخلاص . »[2] كانت تعرف أبعاد شخصية الفنان ، وميلَه إلى المزج بين الخيال والواقع حتى ينزلقَ فكره إلى أحلامه اليقِظة كلما قسا عليه الندم من حرمان لم يترفَّق به ، وكلما شاء أن يحيا في فرحة من صُنع يديه بعد أن انسدّتْ أمامه السبل . وكانت تدرك لحظاتِ الإشباع النَّفسيِّ التي يجتذبه فيها الحديث عن نفسه ، فيصوِّر جسدَه الناحل قويًّا فتيًّا ، ويصور فقرَه الحاليَّ ثراء محتجزاً في وطنه . فكانت تتقبَّل مبالغاتِه ومغالاتِه كلَّها في رضاً وسكون ، وهو يتحدث عن عظمة أسلافه وثرائهم ، وعن البحبوحة التي كان يرفل فيها طفلاً وصبيًّا ، وعمقِ الثقافة التي كانت صفةَ أمِّه ورثتها عن آبائها ، وانتفاضةِ الوطنية التي وضعته في صدارة الحركة القومية المطالبة بالحرية لوطنه من قبضة الأتراك ، وخصوبةِ خياله التي تجعله يرافق المسيحَ في الأحلام ، وصدقِ نبوءته التي يستشفّ بها المستقبلَ فإذا به أمام عينيه مفتوح الأبواب .

هكذا كان جبران نَزَّاعاً إلى المغالاة إذا تحدث عن نفسه ، سواء لمن يعرفه أو لمن لم يعرفه . وعلى الرغم من أن ماري كانت تعلم عنه الكثير إلا أنه بطبيعته تلك ، كأنه أُنْسِي أنها تعرف ، لم يكفّ . ويعلِّل هذا إخصائيٌ نفسيّ فيقول : « إن ذلك رَدُّ فعل لإحساس بخَواء نفسيّ ، ومن هنا كان إسقاط جبران على نفسه تلك الصفات المبالغ فيها ؛ لكي يبدوَ بها مُتَمَيِّزاً عمّن سواه . وأكثر ما تكون هذه المغالاة إذا كان الحديث إلى امرأة يريد المرء أن يخطب ودَّها ، ويملك نفسها . وإذ كان جبران لا يملك كثيراً من أسباب امتلاك المرأة من مال أو جاه أو نسب أو فحولة – فقد كانت تلك المغالاة وسيلةً يغطِّي بها على ما افتقد . والناسُ في هذا على درجات متفاوتة ، فلا ضير إذاً على جبران إذْ كان على تلك الصفة من المغالاة . »

وفي الوقت ذاته كان جبران يعيش صراعاً داخليًّا عميقاً ؛ فهو يذكر لماري هاسكل أنها طوَّقت عنقه بعطائها ، وأشبعت روحه بحبها المتجرد من كل غرض . فهل يتزوجها جزاء ما أسدت إليه من

---

(١) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران . بيروت ، الدار الشرقية للطباعة والنشر ، ص ٤٢ . (٢) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

عطاء ماديٍّ وروحيٍّ أم ينصاع إلى ما تنطوي عليه نفسه من عزوف عن أن يعيش في ظل امرأة واحدة؟ لكن روحه الشرقية المؤمنة بالعرفان بالجميل تُملي عليه أن يتزوج منها ، فيعرض عليها الزواج بعد عودته إلى بوسطن بأسابيع ، وهو في قرارة نفسه غيرُ راغب فيه ، إلا أنها تردّه معلّلة ذلك بأنها تكبره بعشرة أعوام ؛ مما يعجّل بها إلى الشيخوخة في مرحلة تلحُّ عليه فيها فورة الرجولة ، وقد تجتذبه بعيداً عنها شابةٌ فاتنة تفجّر ينابيعَ إلهامه ، فتثير فيها عِداءً لا تحبُّ لنفسها أن تخوضه . وهي تقول ذلك مع ما كانت عليه من « جمال في التكوين وسحر أنثويّ خبيء يعترف لها دائماً أنه يستثير الرجال » .[1]

لم تكن ماري تجهلُ ما في نفس جبران من قلق ؛ فآثرت أن تعيش معه صداقة متينة على أن تعيش معه حبّاً ما أسرع أن ينفض جبران يده منه . ويعاود جبران عَرْضَ الزواج ، وتعاود هي الاعتذار . ويهمس لها : « إنك تطيرين بعيداً كلما حاولتُ الاقتراب منك .» فتجيبه قائلة : « حيثما أمضِ آخذك في رفقتي . ينبغي أن نُضحي بعلاقة جسدية سقيمة لكي تبقى لنا دائماً صداقتُنا الوطيدة .. أكذبُ لو ادعيتُ أني لا أتحرّق شوقاً للزواج منك .. » [2] إنه يدهشنا هو الآخر حين يحدّثها عن أن تاريخ العالم لم يفسح إلا مجالاً نادراً لزيجات حقيقية ، وليس يعني إنجابُ الأطفال إنجابَ الحياة ، وما أسعد النباتاتِ لأنها لا تعاني من ضغوط الحياة الاجتماعية !

وليس شكٌّ في أنه كان حريصاً على علاقته بماري ، وهو الذي أفاد منها أكبرَ فائدة في حياته . ومع ذلك فإن حبه لها مع كلِّ ما بلغه من صدق وتَوْقٍ لم يبلغ يوماً عظمةَ حبها له وتضحياتها من أجله خلال عُمرٍ كامل . وهل كان من الممكن أن نُصدِّق أن شخصاً يحبُّ حبّاً عميقاً يقبلُ على الفور زواج مَنْ يعشقها بشخص غيره مثل ما حدثَ مِنْ جبران مع ماري ؟ ثم إننا لا يمكن أن ننخدعَ في عَرْضِه الأولِ عليها بالزواج ، ولسنا نشك في أنه كان يعرف بذكائه أنها لن تستجيبَ لعرضه . وها نحن أولاء نراه ما يكادُ يسمع برفضها الزواجَ حتى يهرع إلى امتداح علاقتهما وصداقتهما ، ويقول لها صراحة : « أ ما وعندنا الشيءُ الكثير معاً ؟ ما أكثر ما يجمعنا من أشياءَ متشابكةٍ ! لقد اتحدنا معاً دونما جماع ، وأثبت اتحادُنا أنه لا يتوقف عليه ، فأيةُ حاجةٍ بنا لأن ندفع مثل هذا الثمنِ لشيء ثانويٍّ ؟» [3]

ونعود فنتساءل عن هذا الشيء الثانويّ : أ هو الزواجُ عند جبران أم أن الزواجَ هو الثمن وأن الشيءَ الثانويَّ هو الجماع ؟ لقد حرصتْ ماري في النهاية أن تنال هذا الشيء الثانويَّ مع رجل آخر ، وأن تدفع في سن الخمسين هذا الثمن الذي تخاذل عن دفعه جبران طوال أعوام شبابه . ولعلنا مُحقّون حينما نطرقُ أبواب مدرسة التحليل النفسي لنهتديَ على ضوئها إلى تفسير لمسلك جبران مع ماري . هذا التفسيرُ هو ما يسميه علماؤها بالموقف « الأوديبي » ، فجبران صاحب الحسّ المرهف فَقَدَ أمّه صبيّاً ، و وجد في عالم الغربة امرأةً تكبره بعشرةِ أعوام ؛ إذا كان فيها من فتنة الأنثى ما يثير حسّه فقد كان فيها من حنان الأم ما يجعله طفلاً وديعاً بين يديْها . أ وَ لم يقل في إحدى رسائله لماري : « أملي أن تكوني المرأةَ التي تهجع فيَّ أمّاً صغيرةً » ؟ [4] إن رغبته في أن تكون له أمّ رغبة عنيفة وحادّة. إنه يتمنى أن تسكن أمه أعماقَه دوماً ، وهكذا يرتبط ارتباطاً مَرَضيّاً بماري ، فهي في جزء منها

(١) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران ، ص ٦٨ . (٢) المرجع السابق ، ص ٦٨ . (٣) المرجع السابق ، ص ٨١ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

أمَّه . ولما كانت مضاجعةُ الأم أمراً محرَّماً فمن المنطقي أن يُصاب الرجل بالعِنَّة والضعف الجنسيّ إذا ما حاول معاشرة امرأةٍ تمثل الأم بالنسبة له . وهل هناك شك في أن ماري بلغت بحنانها معه ذِروةَ الأمومة التي كان يهفو إليها حتى يخايله طيف أمه كلما دنا منها ، فتذوب رجولته لتستيقظ مكانها طفولته ؟ ولعل علاقته الطبيعيّة بميشلين التي كانت تصغره سنًّا دَعْمٌ لهذا التفسير النفسي ، ولعل رسومَه أيضا تكشف عن تشوفه المحموم إلى تلك الأمومة بنقائها وصفائها .

وفي سنة ١٩٢٢ أخبرت ماري جبران أنها قبلت أن تتزوج جاكوب فلورنس مينيس وكان في التاسعة والستين من عمره ، ثم أخذا يراجعان معاً تاريخ علاقة كلٍّ منهما بالآخر . وبعدها قال لها جبران : « لسوف أظلُّ على حبك إلى الأبد ؛ فلقد كانت علاقتي بك هي علاقة الروح بالروح . وعلاقةٌ مثلُ هذه لا ينال منها الزمن كما لا تنال منها الأحداث ، حتى لو تعدَّد زواجُك فبلغ سبعاً .»[١]

وكان زواج ماري سنة ١٩٢٦ ، وإذا العلاقة بين جبران وماري بعد هذا الزواج تتراخى شيئاً فشيئاً ، وكان هذا أمراً طبيعياً ؛ إذ شُغلت هي بأسرتها الجديدة . ولكنها على الرغم من هذا لم تنسَ جبران ، فلقد ظلّت تمدُّ له يدَ العون ، فتراجع ما يكتب قبل نشره وبعده . وما من شكٍّ في أن ماري هي التي ألهمتْ جبران فكرة العرَّافة « ألْمِطْرا » صديقة « المصطفى » في كتاب « النبي » .

ويَحُمُّ قضاءُ جبران سنة ١٩٣١ وتخِفّ ماري إلى بوسطن لتلقاه وهو مسجى داخل تابوته يوم جِنازته . وقبل أن يُخَلِّف جبران الحياة ترك كلَّ أعماله الفنية حتى مرسَمه هبة لماري التي امتد بها العمر فودَّعتِ الحياة سنة ١٩٦٤ ، بعد أن أتمت التسعين من عمرها . ولا نزاع في أن خلود جبران كان خلوداً لماري هاسكل في الوقت نفسه ، فهي التي رَعَتْه بسخاء في جميع خُطى حياتِه كلِّها . وأكاد أقول إنه لولا ماري لم يكن جبران ذلك الأديبَ الملحوظ !

جبران وميّ

تلك كانت حكايته مع ميشلين وماري هاسكل ، أما حكايته مع ميّ زيادة فقد نهجت نهجاً مغايراً ، وسلكت طريقاً مخالفاً : فميّ تلك الفتاة الفلسطينية المولد ، اللبنانية التعلُّم ، المصرية الإقامة – ما لبثت بعد أن استقر بها المقام في القاهرة أن اتخذت من بيتها منتدى يؤمه أقطاب الفكر والأدب في ذلك الحين ، من أمثال : أحمد لطفي السيد ، و طه حسين ، و عباس محمود العقاد ، و أنطون الجميل ، و شبلي شميل ، و مصطفى صادق الرافعي ، و إسماعيل صبري ، و سلامة موسى ، وغيرهم . ويبدو أنه قد كان لها في قلب كل منهم مكانة ومنزلة ، ولكنها لم تبادل أحداً منهم حبًّا، ولم تُطمع أحداً في قلبها .[٢] بيْد أنها ما كادت تسمع الحديث الدائر في منتداها عن جبران وأدبه – حتى تشوقت إلى معرفته ، وكان أول ما قرأت له مقالة كتبها في السادس من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٠٨ ، عنوانها « يوم مولدي »[٣] ، فأعجبت بها ، ولم تقنع بقراءتها ؛ وإنما راحت تستطلع سيرة صاحبها ، وتتعرف أنباءه ، فزادها ذلك شوقًا إلى التعرف به ، وتحيرت في السبيل التي

(١) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران ، ص ١٠١ .

(٢) صالح جودت : بلابل من الشرق . القاهرة ، دار المعارف ، (اقرأ – ٣٥٥) ص ١٣٦ .

(٣) المقالة في كتابه وآخرين : بلاغة القرن العشرين . بيروت ، المكتبة الثقافية ، د. ت. .

تسلكها إلى هذا التعرف . وبينما هي تطالع إحدى قصصه جاءها الحل : لماذا لا تكتب إليه مبدية إعجابها بأدبه ؟ غير أنها ظلت مترددة بين الإقدام والإحجام ، تخشى أن يهمل رسالتها ، خاصة وهو تلميذ نيتشه المتجبِّر . ولكنها سرعان ما قضت على هذا التردد ، وأقنعت نفسها أنها أديبة تكتب لأديب ، ومن ثم كتبت إليه في التاسع والعشرين من مارس عام ١٩١٢ أول رسالة تقول فيها : « أمضي مي بالعربية ، وهو اختصار اسمي ، ومكون من الحرفين : الأول والأخير من اسمي الحقيقي الذي هو ماري . وأمضي (إيزيس كوبيا) بالفرنجية ؛ غير أن لا هذا اسمي ولا ذاك . إني وحيدة والديّ وإن تعددت ألقابي .»[١]

وفي سرعة سريعة جاءها من جبران رَجْع جوابها ، يحمل ثناءه عليها ، ويحدثها عن نفسه وعن كتبه ، ويُرفق به آخر ما كتب « الأجنحة المتكسرة » طالباً منها أن تبدي رأيها فيه .

ويبدو أن مي قد سعدتْ بما بلغتْ ، فنشطت لقراءة الأجنحة المتكسرة ، وأخذت تسطر لجبران رأيها فيه ، وتناقشه في موضوعه ، وكان من بين ما كتبت له : « .. ولكن إذا جوَّزنا لسلمى – ولكل واحدة تماثل سلمى عواطف وسموًّا وذكاء – الاجتماع بصديق شريف النفس عزيزها ؛ فهل يصح لكل امرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها وهي فتاة أن تختار لها صديقاً غير زوجها ، وأن تجتمع بذلك على غير معرفة من هذا ، حتى وإن كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتى الأجيال المصلوب ؟»[٢]

وتوالت الرسائل بينهما ، لم تنقطع غير تلك الفترة التي اشتعلت فيها الحرب العالمية الأولى ، وتوثقت عرى الصداقة بينهما ، على الرغم من أن كلًّا منهما لم يحظ برؤية صاحبه ، حتى إن جبران آثر « مي » بإلقاء كلمته التي شارك بها في الحفل الذي أقامته الجامعة المصرية لتكريم خليل مطران، وكان قد بعث بها إلى سليم سركيس منظم المهرجان .

وأنشأت ميّ تعرض أعمال جبران في الصحف ، وتناقشها مناقشة جادة ، وتنقدها في حيدة تامة ، لا تعرف تصنُّعاً ولا مواربة ، ولا يشوبها تكلف أو مجاملة . وكانت رسائلها إليه أشد صراحة ، وأقسى لذعا . وكان جبران لا يضيق بذلك ؛ بل يجد فيه بعض ما افتقده بتراخي العلاقة بينه وبين ماري هاسكل ، وكان يقيم لرأيها النقدي وزناً ، وكثيراً ما بعث إليها يبرر بعض ما كتب ، ويعتذر من بعض آخر ، كما حدث في رده على نقدها لكتابه « المجنون » ، أو يبرأ من « اقترافه جريمة نشره » كما حدث في كتابه « دمعة وابتسامة »[٣]

ويبدو أن توالي الرسائل بينهما ، وحرص مي على متابعة أعمال جبران ، شجعه على أن يكتب إليها يطلب أن تزوره في بوسطن ، ويشفع ذلك بأنه يحسّ حاجة قوية إليها ، لما يعانيه من ألم الوحدة ، ومرارة الاغتراب . ولكن صدى هذه الرسالة كان سيئاً ، فقد ثارت مي لكبريائها ، وغضبت لكرامتها، وبعثت إليه تعنِّفه وتلومه لوماً شديداً ؛ فأجابها بأنها قد أساءت فهمه ، ولَوَت قصده ، وراح يعتب عليها عتباً رقيقاً . ثم انشغل عنها فترة ، وهو يُعِدّ كتابه « السابق » ، فأخذ القلق يقضّ مضجعها ؛ فقد تكون قسوة لهجتها في رسالتها قد آذت مشاعره إيذاء ممضًّا ، فبادلها غضباً بغضب ، وآثر

---

(١) جميل جبر : مي وجبران . بيروت ، دار الجمال ، ١٩٥٠ . ص ٢٣ . (٢) المرجع السابق ، ص ٢٩–٣٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

الصمت والانقطاع .

ولذا نهضت تكتب له ، وتعتذر عمّا سببت له من ألم وضيق ، وتعلن إليه أنها تحبه دون غيره من الذين التفوا حولها من الأدباء والمفكرين . وكان هذا الإعلان مثار دهشة بالغة لدى جبران ، فلم يكن يذهب إلى ما تذهب إليه ، ولم يكن يفكر فيما تفكر فيه ؛ وإنما كان مطمحه هذه الصداقة الفكرية التي توطدت أركانها ، وهذه الصلة الروحية التي توثقت عراها ، ومن ثم كتب إليها يفصح عن حقيقة مطمحه ، ويعلن إليها جليّة أمره .

وتلاحقت الأيام سراعاً ، والمرض يشتد بجبران ، والأحداث تنزل بمي ، فتفقد أبويها ، وتكتب إليه حزينة ملتاعة : « لم يبق إلا أنت أيها الصديق !» ولكن الموت لم يُبق لها هذا الصديق ، فانتزعه منها انتزاعاً ، جعلها تفقد لذة الحياة ، وتستوحش منها استيحاشاً قويًّا ، لم يخرجها منه تطوافها في البلدان ، فآثرت العزلة والانفراد ، فلا تكاد تلقى غير الحميم من الأصدقاء ، حتى وافتها المنية بعده بعشرة أعوام .

المناهل التي نَهَلَ منها جبران

تعرّف جبران في رحلته إلى باريس بالمثّال « أوجيست رودان » ، فَأُعجِب بالفنان وتماثيله ومن بينها اليد البشرية المجسّمة التي أطلق عليها روادن « يدُ الله » ، فقال جبران في نفسه : « أ هو الله خلق الإنسانَ أم الإنسان الله ؟ ليس من خالق إلا الخيالُ . وأظهرُ مجالي الخيالِ الفنُّ . الفن هو الحياة والحياة هو ، وكل شيء يهون في سبيله ، لا مجدَ إلا منه ، ولا جمال إلا فيه . »[1]

ولم ينقطع إعجابه بروادن قطُّ ، فقد كان لعبقريته جانبان : جانبٌ إبداعيٌ يُضفي على الجمال أبدعَ صوره ، وجانبٌ ينزع إلى إسباغ الغرابة اللافتة . كما كان يرى أنه ذو وعي يفوق وعي غيره من الفنانين ، يخلق في المشاهدين قدرةً على استيعاب ما تنطوي عليه الحياة ، فيصبحون أقوى إدراكاً لما فيها .

كذلك كان جبران شديد الإعجاب بليوناردو دا فنشي ، ويعدُّه أروعَ مَنْ جادت به الحياة ، ويقارن بينه وبين روادن . وقاده روادن في إغراء إلى معرفة « وليم بليك » فتأثّر بكتاباته إلى أبعد الحدود ، وأصبح « وليم بليك » بما ألّف وما صوّر وما خلّف مَثَلَه الأعلى في الحياة ، فيقول عنه : « بليك هو الرجل ، هو الإنسان — الإله . إنه في رأيي أعظمُ إنجليزيٍّ منذ شكسبير ، ورسومُه أعمق بما لا يقاس من أية رسوم أنتجتها إنجلترا ، ورؤياه — بصرف النظر عن رسومه وقصائده — أكثرُ الرؤى إلهيّة . لكن لن يتسنّى لأيِّ امرئ أن يتفهَّم بليك عن طريق العقل ؛ فعالَمه لا يمكن أن تراه إلا عينُ العين ، ولا يمكن أبداً أن تراه العينُ ذاتها . »[2] وهكذا لم يكن من قبيل الصدفة أن يكون للشاعر الفنان وليام بليك والمثال أوجست روادن أثرهما في جبران ، حتى إنه صوّر نفسه ذات يوم على أنه « وليام بليك القرن العشرين » . والغريبُ أن هذه العبارة كانت شائعةً من قبلُ على ألسنة الناس ، وكانت تعني روادن ، ولعل جبران قد استعارها لنفسه .

وصعد جبران بشاعر واحدٍ فوق القمة التي وضعَ فيها بليك ، هو شكسبير الذي خَصَّه بإجلال

---

(١) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

وإعجاب لم يخصَّ بهما غيرَه . وكان يتوقُ أن يؤلّف كتاباً عنه فلم تُعِنْه ظروفه على ذلك .

وإذا كان « جبران » قد أحبَّ « كيتس » فإنه لم يحبَّ له أن يرقى إلى مكانة شكسبير . أما حبه لشلي فقد نبع من إعجابه بعالمه « القائم بذاته ، والذي تسيطر عليه روح إله منفيّ ، يقضي وقته في التغني بذكريات عاشها في عوالمَ أخرى . لكنه يعدُّه مع ذلك أكثرَ شرقية وأقلَّ إنجليزية .»[١]

وكذلك أشاد جبران بالشاعر سوينبيرن ونَعَتَهُ « بالإغريقيِّ روحاً أكثر منه بالإنجليزي .. وأنه شامخ ، وأنه ضوءُ النهار بينما الآخرون الغسَقُ .»[٢]

ويقرأ إبسن ، ويرى أنه شاعر خالد ، غير أن جبرانَ ينحّي برنارد شو ، ويرى في كثير من أعماله « مزيجاً من المزاح والشعوذة .»[٣]

فلما عاد إلى الولايات المتحدة ، واتّسعت آفاقُه ودخل « نيتشه » حياتَه ، ومِنْ بعده « زردشت » نيتشه بتعاليمه وفلسفته ، نسي « بليك » ولم يَعُدْ أمامه غيرُ « نيتشه » و « زردشت » .

وأكثرُ ما أعجَبَ جبران في نيتشه هو تمرُّدُه على كلِّ المقدسات ، هذا إلى ما تميّز به أسلوبُه الصريحُ من تعبيرات لماحةٍ تنبضُ بالحياة .

وبعد أن كان « جبران » يسيل رقةً في عواطفه ، أصبح يهيم بالقوة في كتابات « نيتشه » ، بل أنكرَ ما كان يؤمنُ به أيامَ شبابه ، وبخاصةٍ مفهومَ الحب ، وقد أصبح عنده سيادةً واستعلاءً . وبلغ تأثرُ « جبران » بنيتشه وزردشت حدًّا جعله يجيب على صديقٍ طلبَ إليه أن يجمع مقالاتِه العاطفية « دمعة وابتسامة » في كتاب قائلاً :

ذاك عهدٌ مِنْ حياتي قد مضَى بين تشبيبٍ وشكوى ونُواح

وقد كتب في المعنى نفسه إلى « ميّ » قائلاً :

« لا تذكري أعماليَ الماضيةَ ؛ لأن ذكراها تؤلمني ؛ لأن تفاهتَها تُحيل دمي إلى نار محرقةٍ ؛ لأن جفافَها يولّد ظمئي ؛ لأن سخفَها يقيمني ويُقعدني كل يوم ألفَ مرة ومرة . لماذا كتبتُ تلك المقالات والحكايات ؟ لماذا لم أصبر ؟ لماذا لم أضنَّ بالقطرات فأدّخرها وأجمعها ساقية ؟ لقد ولدتُ وعشت لأضع كتاباً واحداً ، لا أكثر ولا أقلّ . لم أبقَ صامتاً حتى تلفظَ الحياة تلك الكلمة بشفتيَّ ، لم أفعل ذلك بل كنتُ ثرثاراً فَيا للأسفِ ولِلعار ! وبقيتُ ثرثاراً حتى أنهكت الثرثَرة قُواي ، وعندما صرتُ قادراً على لفظ أولِ حرف من كلمتي وجدتُني ملقًى على ظهري ، وفي فمي حجر صلد .»
ويهمس لها ثانية : « أما تعلمين يا « ميّ » أني ما فكرتُ في الانصراف الذي يسميه الناس موتاً إلا وجدت في التفكير فيه لذةً غريبة ، وشعرتُ بشوق هائل إلى الرحيل ؟ ولكني أعود فأذكر أن كلمة لا بد لي من قولها . لا ، لم أقل كلمتي بعدُ ، ولم يظهر من هذه الشعلةِ غيرُ الدخان ، وهذا يجعل التوقف عن العمل مرًّا كالعلقم . أقول لكِ يا « ميّ » ولا أقول لسواك ، إني إذا ما انصرفتُ قبل هِجاء كلمتي ولفظها فإني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكينة روحي .»

ولعله رأى في نيتشه الرجل الذي سبقه إلى عالَم كان يريد أن يكون رائدَه . لقد أحسّ وحشةَ

---

(١) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران ، ص ١٦٤–١٦٥ . (٢) المرجع السابق ، ص ١٦٦ . (٣) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

نيتشه و وحدتَه خلال القرن التاسعَ عشرَ ، وأدرك تفرُّده في خلقه الذي بلغ فيه مبلغ إيسن ، وفي ميله إلى التدمير الذي لم يُسبق إليه . هو عنده ديونيسوس دون خمر ، وإنسانٌ أعلى حبيس الغابات والحقول . ولقد اعترف مرةً لماري هاسكل وفي صراحة لم تمنع شبحَ بَسْمةٍ من أن تطلَّ على وجهه : « كم أكره ذلك الرجلَ الذي انتزع من رأسي الكلماتِ ، وقطف ثمار الشجرة لحظةَ اقترابي منها . حقًّا لقد تقدم عصرَه بثلثمائة سنة ، أما أنا فسأنبِتُ شجرةً أظلّ أقطف من ثمارها ستمائة عام . »

على أن « جبران » – مثله مثل أيِّ فنان – عرف كيف يَلْقَنُ فن « نيتشه » ، ودفعه الإعجابُ بنيتشه إلى أن يحاول أن يكون هو أيضاً « نيتشه » جديداً . ولكن « جبران » الشاعر لم يستطع أن يصبح صورةً حقيقية من « نيتشه » ، وحينما حاول أن يرتديَ ثوبه كان واضحاً أن هذا الثوبَ مستعار ، وظلت الصلةُ بينهما قائمةً على الخيال والقالب .

فإذا كان جبران قد حاكى في كتابه « النبِّيّ » نيتشه في كتابه « هكذا تحدَّثَ زردشت » فقد حاكاه في الشكل لا في المضمون . فكما اتخذ نيتشه من زردشت وسيلةً لإذاعة آرائه – كذلك اتخذ جبران « المصطفى » في كتابه « النبِّيّ » وسيلةً للتعبير عن أفكاره واتجاهاته . وكما أجرى نيتشه على لسان « زردشت » حِكَماً وأمثالاً – كذلك أجرى جبران على لسان المصطفى سلسلةً من العظات ، وكانت الحِكمُ والأمثال التي قالها كلاهما إجابةً لأسئلة مطروحةٍ من المستمعين . وكان كلاهما – زردشت والمصطفى – غريباً عن وطنه ، نزل بين قوم غير قومه ، وأخذ يعظهم ويفيض عليهم من حكمته وفلسفته ، ثم لم يلبث هذا وذاك أن عادا أدراجهما إلى حيثُ كانا في جزيرتيهما النائيتين . غير أن تعاليم زردشت لا شكَّ في أنها تختلف في جوهرها عن تعاليم نبيِّ جبران : فعلى حين يبشّر زردشت بالإنسان الأمثل « السّوبرمان » وبأخلاقيّات السادة ، ويَشْجُبُ الأخلاق التقليدية وبخاصةٍ الأخلاق المسيحية ؛ لأنها أخلاقياتٌ تعادي الممتازين لحساب الضعفاء – يدعو « المصطفى » أهلَ أورفاليس إلى الإيمان بقدرة المحبة ، التي تربط بين الجميع ، على شفاء كل جروح النفس ، وإلى وحدة الوجود التي تَمُتُّ بِصِلة إلى التراث التقليدي للمتصوفة المسلمين .

غير أن نفس جبران القلقة لم تطق صبراً على فلسفة « نيتشه » فعاد كما كان .. فناناً يؤمن بأن الفن هو أن نفهم الطبيعة ، وننقل معانيها لمن لا يفهمونها . فالفنُّ أن نعكس روح الشجرة لا أن نرسم جزيئاتِها ، وأن نأتيَ بضمير البحر لا أن نصوِّر أمواجه بتلاطمها ، وأن نرى في المألوف ما ليس مألوفاً . والشِّعرُ ليس رأياً تفصح عنه ؛ بل هو أغنيةٌ تفيض من جرح دامٍ أو فم باسمٍ . والجمالُ هو ما نراه فنودُّ أن نعطيَ لا أن نأخذ . ونحن إنما نعيش لنهتديَ إلى الجمال ، وكل ما خلا ذلك لونٌ من الانتظار . والجمالُ أوسعُ إشراقاً في مهجة مَنْ يشتاقه منه في مقلة من يراه .

وقد يبدو من هذه المتناقضات في « جبران » أنه كان إنساناً شاذًّا ، والحقيقة أنه كان إنساناً طبيعيًّا يحيا بلا تصنُّع ، ويترك نفسه على سجاياها بما فيها من خطأ وما فيها من صواب . والفرق بينه وبين سائر الناس أنه كان عَلَماً ذائع الصيت ، وأنه صدَقَ في التعبير عن آثامه وانفعالاته بالناس وبالظروف أيضاً .

لقد كان جبران رومانسياً ، وإن ظهر متأخراً عن روّاد الرومانسية . لم يدرك الرومانسية في مطلعها؛ بل أدركها عند أفولها ، فوجد بين يَدَيْه ميراثاً حافلاً وزاداً ثرًّا يجتذبه ويأسِرُه ، ينطوي على صورة

لنفسه وفكره ومزاجه ، وجد فيه غذاء روحه الذي أقبل عليه يتمثّله في حب وصبر ويمزج به تجربتَه الذاتية ، ويتفاعلُ معه بأفكاره وملاحظاته وتأملاته ، ثم يُبدع بدوره أدباً يحمِل روح الرومانسيين وفكرهم ، ويكشف إلى جانب ذلك عن شخصيته المتميزة الفريدة التي تبرُزُ متألقةً كأنها روح نبيٍّ يهمسُ بالحكمة ، ويبثُّ السلوى ، ويحرِّك الأمل . وهكذا لم يحتذِ جبران من التيارات الأدبية تياراً بذاته ؛ بل أضفى على ما يروقه من تلك التيارات روحَه و وجدانه ، فخرج بأسلوبٍ ليس من صُنع القديم ، ولكنّه مزيج بين جهدين : جهدٍ مضى ، وجهده هو الذي خلق من ذلك الموروث طابَعاً جبرانياً جديداً .

فمع تأثُّره بجان جاك روسو وڤولتير وألفريد ده ڤيني وألفريد ده موسيه وشاتوبريان ولامارتين وڤيكتور هوغو ، ومع تأثره بنوڤاليس وكليست وهولدرلين وغوته ونيتشه ، ومع تأثره بويتْمان وإمرسون ، ومع تأثره بكيتس وشلي وكوليردج و وردزورث وبليك - فإنه لم يتأثّر بذاتيّةِ فردٍ منهم - إلا في القليل - بل بالتيار الدافق ِالذي يسري بين أفكارهم جميعاً . تأثّر بهذا الخيط الذي يشدُّهم ويجمعهم . تأثر بالاتجاه في عمومه لا في تفاصيله ، وإن يكن قد كتب بضعَ قصائدَ تحمل ألفاظ كيتس وأفكاره ، وأخرى تغترف من أفكار شلي - فما كان ذلك إلا تواتراً بين أفكار شخصيتين متماثلتَي الاتجاه والفكر ، أو اختزاناً في ذاكرة وافرةِ الاطلاع لم تحسَّ فارقاً بين فكرها وفكر مَنْ أخذت عنه ، وما أكثر ما يدين به الأدباء لغيرهم من الأدباء !

على أن التجربتين الرئيستين في حياة « جبران » اللتين لوّنتا فكره ومزاجه ، وأقامتا الروابط الفكرية والروحية بينه وبين الكتّاب والأدباء - هما تجربتا الحبِّ والغربةِ .

أخذ يتعمق أفكاره هو عن الطبيعة ، وبراءة النفس البشرية ، ومثاليةِ الوجود الإلهيّ ، وبشاعة الإلحاد والمادية في كتابات روسو ، دون أن يجتذبه ما سواها من آراء في العقد الاجتماعيِّ والحقوق المدنية ، أو يجعلَ من أفكاره صورةً مطابقة لأفكار روسو ؛ فلم يؤمن بخلق المجتمع المثالي الذي تخيله روسو ، بل كان يحلمُ بالعودة إلى حياة الفطرة . ولم يتحوّل مثل روسو إلى مصلح اجتماعي مؤمن بالخير النابع من الطبيعة ، بل بقي كاتباً عاطفيًّا حالمًا يمجّد الطبيعة ويجعلها مبدأه ومنتهاه .

وإذا كان « جبران » قد تأثر بوليم بليك فإنه احتفظ بذاتيته حتى رأت فيهما بربارہ يانغ شاعرين مختلفين كلَّ الاختلاف . « فبينما صوّر « بليك » الروح هائمةً على وجهها في عالم المجهول ، تنقلب بين النشوة والخلاعة والمجون - نجد « جبران » يصوِّر الإنسان كائناً سماويَّ الجمال والحساسية ، لا يحمل جسدُه آثار تراب الأرض بل روحاً شفافة عُلويّة . وبينما صوّر بليك ملائكة وقديسين وشياطينَ خرافاتٍ وأساطير - عاش « جبران » مع كائنات نورانيّةٍ تسبح في عالم من الكمال نقيةً خالصة .» وإذا كنا نجد في « جبران » انعزاليةً وهروباً إلى عالم آخر ، وتوقاً إلى الموت واستسلاماً له - فإنّا نجد ذلك كله في نوڤاليس وكليست ولامارتين وألفريد ده ڤيني وشلي وكيتس ، غير أننا لا نجد في « جبران » ذلك القدر نفسه الذي نجده في هذا أو سواه .

بل إن « جبران » المسيحيَّ الأصل لم يأخذ من المسيحية إلا ما يوائم أفكاره الأساسية . وقد ظل إيمانه بأصالة الخير في الإنسان بعيداً عن التأثر بالأفكار المسيحية عن الخطيئة الأولى التي هَوَتْ

بالإنسان من عرش السماء . كما لم يتخيل وجودَ جحيم في العالم الآخر ، وذلك ما جعله يرى في الموت نهايةً للأغنياء الذين لن يعرفوا الخلد في عالم الروح . وقد أخذ « جبران » عن البروتستانتية حريةَ الفكر في تفسير الكتاب المقدس ، وانطلق يشكِّل بهذه الحرية مسيحيةً فطريةً بعيدة عن مسيحيةِ الإنجيل ، قريبةً من الصورة التي تخيلها لدولة الطبيعة . وهكذا خلق يسوعَ جديداً أسبغ عليه ملامحَ يسوع ، ولم يزوِّده بأفكاره ، وجعله ينطق برسالته هو لا برسالة المسيح . ولم تَعُدِ المسيحية عند « جبران » غيرَ فرع من فروع الدين الكليِّ الواحد ، وغيرَ طريق من الطرق المؤدية إلى الحقيقة ، فإذا محمدٌ ويسوعُ على قدرٍ متساوٍ من التقدير والمحبة ، ولم يَعُدْ من الممكن أن يكون الله عند « جبران » شيئاً سوى المحبة . وأصبح دينُه الرئيسيُّ هو التقاء العواطف الإنسانية ، وعقيدتُه هي وحدة الوجود ، وألوهية الكون ، وكونية الإله ، التي استقاها من بين الأفكار الهندوكية والطاويَّة والبوذية وكتاباتِ إمرسون وبليك وبعضِ متصوِّفة الإسلام ، ومدارس الفكر الحديث الأمريكية .

ومع ذلك ارتبط « جبران » بالحياة وأخذ يردِّدُ : « لو شئتم تسميتي بشيء فقولوا إنني من حِزْبِ الحياة .» وأصبح « جبران » أكثرَ واقعيةً وتفاؤلاً وتلفتاً إلى الأرض ، ومضى يبشِّر بقوله : « أحبوا الجمال ، وليكن الجحيمُ مثوى أيِّ شيء آخَر غير الجمال .» فلقد آمن « جبران » بأن إبداع الجمال يوقظ وجدان البشرية ، وأن مستوى الإبداع إذا ما ارتفع شكَّلَ نهضةً عظيمة قوامها العدالةُ والرحمة والمحبة والعبادة ، وجَعَل أرضَنا الطيبة الخضراء حقيقةً سماويَّة و واقعاً قدسيًّا . سُئل جبران ذات مرة عن الأقانيم الأساسية للحياة المتكاملة وأجاب : « لا أضع قواعدَ للسلوك ؛ فافعل ما تشاءُ ما دمتَ تفعله بكل جمال .» وفي هذا تذكر بربارة يانغ أمسيةً كانت تجلس فيها إلى « جبران » بعد فترة طويلة مرهقة من العمل ، وفجأة ودون تمهيد خاطبها « جبران » متسائلاً :

« افترضي أنني طلبتُ منك أن تتخَلَّي عن معظم الكلمات التي تعرفينها ، أو أن تتوهمي أنك نسيتها ، فأيَّةُ كلماتٍ سبع يقع عليها اختيارك لتحتفظي بها ، وتكون أفضلَها وأعمقَها ؟» وبعد تردُّد قليل اختارت هذه الكلمات : الله – الحياة – الحب – الجمال – الأرض ، ثم توقفت وعجزت عن اختيار الكلمتين المكمِّلتين للعدد المطلوب . ومن ثَمَّ طلبتْ منه قائلة : خبِّرني يا « جبران » عن الكلمات التي اخترتَها أنتَ .. فرّد قائلاً : « لقد نسيتِ أهمَّ كلمتين ، ودونهما تبدو الكلمات الأخرى واهيةً كليلة . إن أهم كلمتين عليكِ أن تحتفظي بهما هما : أنت وأنا .. ولسنا بعدهما في حاجة إلى كُلَيْمات أخرى .» وأضاف قائلاً : « يجب أن نكون ، ويجب أن نأخذ .» ثم أخذ يتحدث في بطء شديد وأنفاس لاهثة قائلاً : « هذه هي كلماتي السبعة : أنت – أنا – خُذ – الله – الحب – الجمال – الأرض .»

وطالت جلستهما معاً ، وران عليهما صمت طويل ، لم تستطع أن تحدِّد مداه إلا أنه كان سكوناً نابضاً بالشعور ومحركاً للشعور . وظلت تدير الكلماتِ السبعَ في ذهنها مرات ومرات فوجدتْ فيها كل شيء عن الحياة ، وعن الموت الذي هو جزء من الحياة ، وعن الخلود الذي هو صورة الإله .

تقول بربارة يانغ : « وبعد فترة من الوقت عاد الحديثُ يجري على شفاهنا ، فأخذنا هذه الكلمات ، وصغناها في قصيدة قصيرة هي :

« خذني أيها الحبُّ .
خذني أيها الجمال .
خذيني أيتها الأرضُ .
فَردَّ الحبُّ والأرض والجمال :
سنأخذك .
وكذلك قال الرب :
سآخذك .»

في ضوء هذه العوامل كلّها كتب « جبران » وألّف وصوّر ورسَم . وتَحكي كتُبه التي تتابعت قصةَ نفس حالمة تردّدت بين مختلف النوازع والعوامل والآلام . فكان « جبران » يؤثر أن يكون الأدنى بين ذوي الأحلام الطامعين في تحقيقها على أن يكون الأعلى بين من لا حُلْمَ لهم ولا طمع .

ويكاد يكون جماع القول في شخصية جبران ما قالته ميّ : « هي شخصيةٌ عالمية مستأثرة أنانية : هي شخصية عالمية ، والدليل أنه عندما يتكلم مثلا عن لبنانه العزيز ، وشرقه المحبوب – ينبضُ في كلامه الحبُّ والاعتزاز لكل ما هو ليس لبنانَ ، وكلّ ما هو ليس الشرق . وعندما يحشدُ عنايته على شخصية واحدة يعظّمها بفنّ المصور جاعلاً ما سواها أشباحاً في اللوحة تزيد تلك الشخصيةَ وضوحاً – فإنما هو يعتني في نفس الوقت بطائفةِ الشخصياتِ المشابهة لها في الماضي والحاضر والمستقبل ، جرّدها جميعاً من فروق اللغة والجنس والوطن والعصر ؛ ليخلّصَها جميعاً في استعدادها الخاصّ ونزعتها الخاصة وكيفية تصرُّفها بالحوادث المارة بها . وشخصية جبران مستأثرة ؛ فهي قبل أن تُعرب عما يخالجها تُسْلِف حذفَ وجود شخصيات غيرها ، ولا تستمدُّ إلا من حسِّها الفردي الذي تجتاحه تياراتُ الحياة ، وتنعكس عليه صور الوجود . ولأن هذه الشخصية تعرف أنها قادرة محكمة في بابها فهي لا تفترض الاعتراضَ والمناقشة عند القارئ ، أو هي تفترضهما عند نفسها ، وتردُّ عليهما بالجواب المفحِم ؛ لذلك يصبح موقفك أنت القارئ حاسماً حيال هذه الشخصية ، فإما أن تَجمَ أمامها وإلا فأنت أحدُ أصدائها .. حيال فن جبران لك كلمةُ نعم أو كلمةُ لا . أما المناقشةُ فسخيفة غبيّة ، وهل مِن استئثارٍ أعظم من هذا ؟ وقلتُ إن تلك الشخصية أنانيةٌ ، وأقول إنها تزداد أنانيةً كلما أرهف تطوّرها واستُؤنف نموّها ؛ لأنها تفحِم الشخصياتِ الأخرى عن طريق شعورها بها ، فتتناول كلَّ شخصية عالمية – صالحةً كانت أو طالحة – وتصهرها بعملية فكريّة لتمزجها بالجانب المشابه من شخصية جبران الكاتب أو المصوّر . فإذا ذكَرتْ بعدئذ تلك الشخصية الغريبة كانت ذاكرةً جانباً من ذاتها هي ، شخصية جبران . وإذا أسهبتْ في التفصيل وأفلحتْ في البيان فلأنها تنقل صورة ماثلة أمامها ، وتروي عما يخالج خوافيَها . أ رأيتَ مرةً في كتابات جبران استشهاداً بكاتب أو بشاعر أو بعظيم ؟ قد تعثر أحياناً على مثل ذلك في كتاباته الأولى باللغة العربية ، أما بعد ذلك فلا ، مع أني واثقةٌ [ومضمونُ كتاباتِه ناطق بذلك] من أنه لم يهملِ التنقيب والاطلاع ، ويسايرُ الحركة الفكرية في العالم في شتّى مظاهرها . غيرَ أنه لا ينسى اقتناعه ذاك من أنه متبوع لا تابع ، قائدٌ لا مقود ، تظهر معلوماتُه المستوحاة من كتب الآخرين وأقوالهم في « الحرف » من كتاباته وإن هي تلخّصت

في المعنى الصميم ؛ لأن أنانيته تحوِّل كلَّ ما يتصل بها إلى جزء منها ، ثم تخرجه على القرطاس وكأنه إلهام شخصيّ لم يظفر به من قبل أحد . وهذه هي روح الفن السحريّ .»

هكذا أضاف جبران تجاربه الذاتيةَ في الحَياة إلى الأفكار التي استقاها من عصره ، ثم أعاد صياغةَ هذه الأفكار ، ولوَّنها بطابعه الشخصيّ المميز ، واختار قالباً قصصيًّا ليقدّم فيه خُلاصة فكره أكثرَ ما يكون رقةً ونداوة ، وأعمقَ ما يكون سحراً وتأثيراً ، وأروع ما يكون صدقاً وإخلاصاً .

الأرواح المتمردة

في عام ١٩٠٨ صدر لجبران في نيويورك كتابُ « الأرواح المتمردة » وقد انتظم قصصاً أربعاً هي : وردة الهاني ، وصُراخ القبور ، ومَضْجع العروس ، وخليل الكافر ، بلغة شعرية تمزج بين الرمزيّة والمثاليّة والتجريد ، وفي أسلوب سَلِسٍ جَزْل ، جميل السَّبك ، لطيف الجَرْس ، يتميز بوفرةٍ غزيرة من الاستعارات الحيَّة ، والتشبيهات الجذّابة المبتدَعة ، فضلاً عن حُجَج تنفردُ بقوةِ الإقناع . وتتناول أقاصيصُ جبران في هذا الكتاب الحديثَ عن تمرُّد الأرواح على الشرائع والقوانين الجائرةِ الصارمة التي تكبِتُ الحريةَ في النفوس ، وعمّا تَحظى به فئةٌ قليلةٌ من الناس من سلطة وجبروت وهَيْمَنَةٍ على أرزاق الناس وما يملكون من رأي ، باسم القانون حيناً ، وبِاسْمِ الدين حيناً آخر ، وبتعاون السُّلطتين في جميع الأحيان .

وما نودُّ أن نلخص لك أحداثَ هذه القصص الناقدةِ الساحرة ؛ وإنما نود أن نُخلّيَ بينك وبينها ، تلقاها وَجْهًا لوجه ، فتستمتعَ بقراءتها ، وتتذوّقَ ما فيها من ألوان الجمال ؛ إذ ما من شكٍّ في أن تلخيص العمل الأدبي يُفقده حيويّتَه ورونَقه ، ويشوّهُ جمالَه وبهاءه ، ويفسدُ على القارئ متعته به .

وما نظن أن جبران قد قصد بهذه القصص غير أن يشير إلى تمرُّد الأرواح على ما تُرغَم عليه من أمور تأباها ، وتُنافي الحبَّ الحق . وتعدُّ قصّتا « وردة الهاني » ، و« مضجع العروس » أنموذجاً لمثيلات لهما تنطوي على قَسوةِ التقاليد في شئون الزواج . وما من شك في أن جبران قد صوَّر هذا اللونَ من الظلم في أبشع ِصُوره ، كما صوَّر الخلاصَ منه على أنّه النهايةُ الحتميةُ لتحدي هذا القهرِ في أسلوب نقيٍّ شائق .

وإن كان ميخائيل نعيمه يأبى أن يدعو « وردة الهاني » قصة فيقول : « أمّا أن نفتِّشَ فيها على باب الخلاص من تلك المظالم فمِنْ قبيل تحميلِ المفردات فوقَ ما تستطيع حملَه . فالقصة من أولها إلى آخرها شكوى امرأةٍ مظلومة ، ولكنّها شكوى بليغةٌ ومؤثِّرة بما أودعها فنُّ جبران وحماستُه واندفاعُه .»

كذلك كانت « صراخ القبور » تجسيداً حيًّا صارخاً لفساد الشريعة التي يتحاكم إليها أهل الأرض ، على الرغم من ادِّعائهم أنها من صنع السماء ، والسماءُ منها براء . أما قصة « خليل الكافر » فيبدو أن جبران قد هَوَّن فيها الأمور تهويناً فيه مغالاةٌ ؛ فما من أحد يصدِّق أن قرية صغيرةً بلبنان تثور على حاكمها التركيِّ ، ثم تؤسِّس حكماً ذاتيًّا مستقلاً ، وتعيش في بحبوحة من النعيم . ونحن نعلم أن الدولة العثمانية كان لها وَقْتَذاك من البطش والسلطان ما يقضي على مثل تلك الثوراتِ الهيّنة في أقلِّ من لمحة عين .

ولكن الذي لا شك فيه أن هذه القصص التي أوردَها جبران في « الأرواح المتمردة » لم تبعُدْ عن الحقيقة ، فلقد صرَّح في بعضها بأسماءِ شخوصها ، وكشف عن حياتهم ، كما أيد هذا بذكر الأزمانِ التي وقعتْ فيها تلك القصصُ ، ولو لم يفعل لكان من الممكن تعرُّفُ تلك الأزمان على وجه التقريب . ولقد قصد جبران بسوق هذه القصص أن يُعرِّفَ بالبيئة التي عاشها زماناً ومكاناً في بلده لبنان . ولعل ظهور الدستور العثمانيِّ في تلك الفترة عام ١٩٠٨ ، وما تضمَّنه من حرّيّاتٍ — وإن كانت محدودة — كان السببَ في إثارة هذه الخواطر في نفس جبران وغيره من الأدباء العرب .

ولم تسكت الكنيسةُ عن تلك الاتهامات اللاذعة ، والسُّخرية المهينة ، والعبارات المشينة ، وأرادت أن لو قُدِّم جبران إلى القضاء لِيُقتَصَّ منه على ما صدر عنه ، ثم يُصادَرَ هذا الكتاب . وكما كان للكنيسة ثورةٌ ضدَّ جبران ، كذلك كان لبعض النُّقَّاد ثورةٌ ؛ فعابوه واتَّهموه بالزَّيْف والبطلان . ولكن جبران كما لم يَعْبأ بالكنيسة واتِّهاماتها ، كذلك لم يعبأ بهؤلاء النُّقّاد .

الأجنحة المتكسرة

ولقد صدر لجبران كتابُ « الأجنحة المتكسرة » في نيويورك بعد « الأرواح المتمردة » بسنوات أربع ، وفيه يروي قصة حبه الأول في عام ١٨٩٩ ، حين كان طالباً بمدرسة الحكمة البيروتيّة ، فالتقى صديقاً لوالده ، دعاه إلى زيارته ، وهناك وقعتْ عيناه على ابنته سلمى ، فكان الحبُّ الذي تخفق به القلوب ، وتبثُّه العيون ، ولا تُفصح عنه الألسنة . لكنَّ المطامع المادِّيَّة للسُّلطة الروحية المتكِئة على السلطة الزمنية — وَأدتْ هذا الحب في يوم ميلاده .

وما نريد أن نُفسد عليك بهجة القراءة بأن ندلَّك علَى مواطن الشاعرية في هذا الأسلوب الوِجْداني المشبَّع بروح الإجلال للحب ، وكلِّ ما يبعثه في النفوس من غبطة وأسى — الذي كَتَب به جبران قصته . ولا أن ندلَّك — أيضاً — على بعض مواقفها الصارخة ، التي تُذيب القلوب ، وتَستنْفِر الدموع ، وتُثير في النفوس ضيقاً بهؤلاء الذين يُهيْمنون على مقدَّرات الناس ، ويَستغلون مناصبهم في مصادرة حقوق الآخرين وإزهاق أرواحهم ، ولا على ما تفيض به هذه المواقفُ من سخرية وازدراءٍ لهؤلاء الفاسدين المفسدين . فذلك كلُّه شأنُك أنت حين تواجه هذه القصة أو الأقصوصة فإذا هي قد استحوذتْ على مشاعرك ، وملكتْ أنحاء نفسك ، وإذا رابطةٌ وِجدانية تقوم بينك وبين أحداثها وشخوصها ، وإذا هي تتبدَّى لك ؛ فتكشفُ لك عن أسرارها ، وإذا أنت تتذوَّقُ هذا الجمالَ الفنيَّ السّاحر الذي يدل على أن صانعه مدركٌ أسرارَ الألوان والأنغام ، كما هو مدركٌ سرَّ التأليف بينها في كلمات ، كانت يومذاك فجر عصر أدبيِّ جديدٍ . ولا شك في أن ما تحصل عليه النفسُ بعد معاناة وكَدٍّ تكون به أشغفَ ، وعليه أضَنَّ .

وما نظن إلا أن ميخائيل نعيمة قد جانب الصوابَ حين ذهب إلى أن جبران لم تعدْه الحياةُ لذلك الفنِّ الرفيع ، فنِّ كتابة القصة : « فقد كانتْ تسيطرُ عليه — في رأيه — طبيعتان متفوِّقتان : طبيعةُ الفنان الوجداني المرهف الحسِّ والشعور ، وطبيعةُ المرشد والمصلح والواعظ . الأول — لا ينفكُّ ينسج عالَمه من نفسه نظير ما تنسج دودةُ القزِّ فِيلَجَتَها [1] من خيوط في أحشائها ، فإذا راح يعالج عالماً غير

(١) الفيلجة : الشَّرْنَقة .

عالَمه أعوزتْه المقدرةُ على حَبْكِ الحوادث وتصوير الأشخاص والحالات حبكاً وتصويراً يتناسبان مع الواقع المحسوس ، حتى وإن كانت الغايةُ التي يهدف إليها فوق الحس وأبعدَ من الواقع . والثاني دأبهُ التفتيش عن مواطن الضعف والوجع في الناس ، حتى إذا ما وقع عليها انطلق يندِّد ويبكِّت ويؤنِّب ، وقد ينتهي بأن يصف ما يعتقده الدواء الأوحد الأنجع . فجبران في قصصه يخلق حالاتٍ وأشخاصاً لا غرض له من خَلْقِهِمْ إلا أن يجعل منهم مطايا لقلمه ليفتنَّ ما شاء له الفنُّ في وصف الطبيعة وشتى المشاعر البشرية ، وعلى الأخص تلك التي يغلب فيها التوجُّعُ والتفجُّع والتأسّي ، وإلا لِيُلقي المواعظ الجميلة في قساوة الناس وقذارتهم وخنوعهم ، وفي جمال الحب والحق والحرية وما إليها .»

إن جبران لا يَجْري في قصصه القصيرة وأقاصيصه على النمط الفني المعهود للقصة القصيرة . وما يعيب هذا جبرانَ في شيء ، فلقد سبقه إلى هذا اللون كثيرٌ من كبار كتاب القصة القصيرة المشهورين ، وفي مقدمتهم الروائيّ الإنجليزي سومرست موم . وما من شك في أن تمرد جبران على القانونَيْن الزمني والروحي قد أسبغ على موهبته الكلاميَّة وقصائده المنثورة الجذّابة المنمقة روحاً تشيع بين الأسطر ، وفي ثنايا الكلمات ، الأمرُ الذي جعل أسلوب جبران في عصره أسلوباً على نمط بعينه، متميزاً عن جميع الأساليب التي عاصرته في نبرته الغنائية و وجْدانيته المشبوبة ، وإن كان نزوعه الدائبُ نحو الخطابة قد هوّن شيئاً من ذلك الأسلوب .

وجاءت هذه القصةُ على نمط القصص الأخرى لجبران ، يطغى فيها الحديث على الحدث والخيالُ على الواقع . والطريف أن جبران بعد كتابته أقصوصة « الأجنحة المتكسرة » لم يعد إلى كتابة قصة أخرى ، واتجه بِكُلِّيته إلى كتابة الشعر المنثور ، حيث وجد فيه المجال لِبَثِّ حِكَمه ومواعظه ، فكُتِب لجبران في هذا اللون التوفيقُ كلهُّ ، ولعل مردّ هذا هو أن هذا النوعَ من الكتابة يتّفق ومزاج جبران وطبيعتَه الفطرّية وهُويّته الفنيّة .

النّبيّ

وكتابُ « النبيّ » – بصفحاته المحدودة – هو الصورةُ المكتملة لجبران : تجاربُه كُلُّها فيه ، كذلك عواطفُه وآماله وأحلامه وآراؤه وصوفيتُه وفلسفتُه ونظراته . إرهاصاتُ الأمس بعد أن أصبحتْ مذهباً له مقدِّماته ومسوِّغاته ونتائجه . خيالاتُ الصِّبا بعد أن أصبحت اتجاهاً واضحاً يحدد قواعدَ السلوك . وعمقُ الشرق وسرعةُ الغرب بعد أن تفاعلا داخل النفس الطيبة فخرجت أصولاً وقواعد . محاولاتُ الطفولةِ للرسم والتصوُّر والتصوير بعد أن أخذت شكلها لوحاتٍ رمزيةً تنطق بلا صوت ، وتتحدث بلا كلمات .. تسبق دائماً خطوطه العميقةَ النفاذةَ حقيقة من حقائقِ نفسه ، ثم يشرحها بعد ذلك كلاماً ينبض بالحب والحياة .

لقد انتهى « جبران » ، بعد كلِّ ما مرَّ به من تجاربَ ومِحَن ، إلى أن الحب بين الناس هو شريعةُ الحياة ، عنده يلتقون ، وأمامه يتساوَون ، وعلى عتباته يزول ما بينهم من فوارق ، ويذوب ما بينهم من خصومات ، وعن الحبِ تتفرعُ جميعُ مظاهر الحياة . العملُ أساسه الحب ، وكذلك الألمُ والدينُ والحريةُ والزواجُ ، وكلُّ رباط يربط بين القلوب والعقول والضمائر . ومشكلاتُ الوجودِ جميعُها : أولُها وآخرها ، وما بينها من مراحلِ التقلُّب والتّطور – ترجع عند « جبران » إلى أصلٍ واحد ، يفسر

لنا السّرّ المختفيَ وراء هذا الوجود ، وهو الحب . يقول عن العمل :

« وأنت – حين تعمل – مزمارٌ ، في جوفه تتحوّل همساتُ الدهر إلى أنغام . ومَنْ منكم يودُّ لو يصبح قصبةً خرساءَ صمّاء ، على حين أن الكائناتِ حولَه تغنّي في ائتلاف ؟»

ويمضي « جبران خليل جبران » يصوِّر في قوة واقتدارٍ شرفَ العمل وقداسةَ الواجب :

« أمّا إذا خِلْتم – ساعةَ تضيقون بالحياةِ فتألمون – أنَّ مولدكم مأساةٌ ، وأن تلبيةَ مطالبِ الجسد لعنةٌ كُتبت على الجبين – فإني أقول لكم : هيهات أن يمحوَ ما سُطِّر على الجبين إلا حبّاتُ العرق .» ثم يمضي مرة أخرى يعرض جوانب العمل وأسرارَه في عمق وبصيرة :

« ولقد نُبئتم أيضاً أن الحياةَ ظلام ، حتى أصبحتم تردّدون من فرطِ التعب ما يقوله المتعَبون .

ولعَمْري إن الحياة ظلام ، إلا إذا صاحَبَها الحافزُ .

وكلُّ حافزٍ ضريرٌ ، إلا إذا اقترنَ بالمعرفة .

وكلُّ معرفةٍ هباءٌ ، إلا إذا رافقَها العملُ .

وكلُّ عملٍ خَواءٌ ، إلا إذا امتزج بالحب .

فإذا امتزج عملُك بالحبِّ فقد وصلت نفسَك بنفسِك ، وبالناس ، وبالله .»

ويقول جبران في الحديث عن العطاء :

« لا ريبَ أن من استحق أن ينال أيامَ عمره ولياليَه جديرٌ بأن ينال سواها منكَ .

وأن من استحق أن ينهلَ من محيط الحياة جدير بأن يملأ كأسَه من جدوَلك الصغير .

وأيُّ جزاءٍ يعلو على جزاء مَنْ يتقبّل العطاء في شجاعة وثقة بل في بِرٍّ ؟»

ولعل جبران في قوله هذا كان يستلهم ما ورد في قصة إبراهيم الخليل في « بستان » الشاعر سعدي الشيرازي التي تروي قصة طرد إبراهيم ضيفاً عجوزاً بعد أن اكتشف أنه من المجوس عبّاد النار ، فنزل عليه جبريل ينكر عليه ما فعل ، مذكراً إيّاه بكرم الله الذي وسع هذا الشيخ أعواماً مائة ، وكيف بإبراهيم لا يتّسع لإيواء الشيخ ساعة من نهار ؟

إن جبران يخرج علينا من شاعريّته الرقيقة الملهمَة النّفّاذة ، بفلسفته البسيطةِ الأصيلة كالتاريخ ، المنطقيّة المتقدمة المندفعةِ كالتيار . والمتأمِّلُ في هذه الفلسفة يجدها قديمةً وجديدة معاً شأنها شأن الفنون . وقد تردّدت أسسُها في أفكار القدماء والمحدَثين ممن تناولوا العقائد والفلسفاتِ بالبحث والدراسة ، وممن مارسوا ألوان الفنون .

وإذ كان جبران مسيحيًا فما من شك في أنه قد تأثّر بأسلوب الكتاب المقدّس ، لا سيّما ترجمتُه الإنجليزية الرسمية في عهد الملك جيمس الأول ، التي استْلهمَ أسلوبَها ذا الروح الشاعرية بعنصريه الإيقاعيِّ والوصفيِّ ، الذي جاء على العكس من الترجمات الحرفيّة الأخرى عن الأصول العِبْرية واليونانيّة . وعلى الرغم من أن أعمال جبران تشيع فيها الروحُ الإنجيليّةُ إلا أنّنا نلمس فيها أيضا تأثُرَه بما جاء في نشيد الأنشاد التوراتيّ من مجازات مفرطةٍ ، وأسلوب ترنيميّ .

لقد أراد « جبران » بكتابه « النبي » أن يقدّم لنا نفسَه ، ويقدّمَ لنا مع نفسه صورةً صحيحةً للإنسانِ الكامل الذي أسفرت تجاربُه عن ضرورة وجوده لإصلاح نفوس البشر . وبهذا المعيار نفسِه يقوِّم جبران عملَه . فهو يرى أن كلَّ ما فعله ليس إلا عرضاً لفكْرِه حين غرَسَ في وجدان « النَّبيِّ » مُثُلاً آمن أنه لا بدَّ من ممارستها في الحياة ؛ فالتوقفُ عند كتابتها لا يعني شيئاً ، لكنَّ اقترانَها بالتطبيق في الحياة اليومية هو الذي يُعطيها بُعدَها الحقيقيَّ . وتلك رسالةُ جبران . لقد عَرَف الخطيئة بنفسه وعاش فيها ، وعن طريقِ تجاربه أدرك نقائصَ النفس الإنسانية ، وشَعَر بحاجتها إلى معلِّم يقودها إلى ما غمضَ عليها من أسرار هذا الوجود . ثم .. لعله بين خطاياه وتجاربه ، كان يشعر – شأن كلِّ الفنانين والعباقرة – أنه هو ، وربما وحدَه الذي اهتدى إلى هذا السِّرِّ و وقفَ عليه ، وفَهم حقيقته . ولم يكن أمامه من سبيل إلا أن يخرج لنا بكتابه « النبيِّ » يطلُّ به على العالم بشخصية المعلِّم العميقِ المستنير . ولم يكنْ هذا الغرورُ بِدْعاً بعد حياة مليئة بالمحن والتجاربِ والآلام .

رمل وزبد

لقد وصل جبران في كتاب « النَّبيِّ » إلى القمة ، ولم يكن يريدُ بعده أن ينحدرَ . على أنه بعد تفكير طويل وضعَ في ذهنه الخطوط الأساسيّة لبقية إنتاج حياتِه ، في سلسلةٍ تعالج بقيةَ صلاتِ الإنسان . فبعد أن تناول في « النَّبيِّ » صلاتِ الإنسان بأخيه الإنسان ، أرادَ أن يعالج صلاتِ الإنسان بالطبيعة في « حديقة النبي » ، فمضى يشرحُ لتلاميذه التسعةِ ترابط الأشياء صغيرها وكبيرها : قطرةِ الندى مع المحيط ، والشمس مع الحباحب ، والهواءِ مع طرق الفضاء ، والفصولِ مع النهار والليل ، والنور مع الظلام . كذلك أراد أن يختم هذه السلسلة « بموت النبي » بعدَ عودته من جزيرته ، فتتوافدُ عليه جماعات شتّى يتحدث إليها عن الأثير في الفضاء ، وعن الأمس والغد ، وعن الفصول الأربعة ، وعن النموّ والولادة ، وعن تساقُط الثلوج ، وعن الدُّخان والنار ، وعن سجن « النبي » ، ثم ذهابه إلى الساحة العامة لرجمه بعد إطلاق سراحه . على أن صَبْرَه لم يطاوعْه حتى يُكمل مشروعَه فأخرج كتابَه « رمل وزبد » ليسدَّ به فراغَ حياته الفكرية . وهذا الكتاب هو في حقيقته امتدادٌ لكتاب جبران « النبي » . ولسوف يحسُّ القارئ في الكثير من فقراتِ هذا الكتاب أنها أصداءٌ تُردِّدُ ما جاء على لسان « المصطفى » في كتاب « النبي » . فإن قوله في كتاب « رمل وزبد » : « الحبُّ الذي لا يُضفي على نفسه جديداً كلَّ يوم يصبحُ عادةً ، ثم لا يلبث أن يكونَ رِقًّا » أو « يُعانقُ المتحابّان ما بينهما من وُدٍّ أكثرَ مما يعانق أحدُهما الآخرَ » يمكن أن يكونَ تتمّةً لما جاء بكتاب « النبي » في موعظةِ « الحب » . وقوله في كتاب « رمل وزبد » : « ليس الجودُ أن تعطيَني ما أنا أشدُّ منك حاجةً إليه ، وإنما الجودُ أن تعطيَني ما أنتَ أشدُّ إليه حاجةً مني » ، يمكن أن يكون تتِمّةً لما جاء بكتاب « النبي » في موعظة « العطاء » . وقوله في كتاب « رمل وزبد » : « إنما نعيش لِنهتديَ إلى الجمال ، وكلُّ ما خلا ذلك لونٌ من الانتظار » يمكن أن يكون تتمّةً لما جاء بكتاب « النبي » في موعظة « الجمال » . ومن هذه الأمثلة يتضح أن ما جاء في كتاب « رمل وزبد » هو تَرْدادٌ لما جاء في كتاب « النبي » مع شيء من الإضافة والتلوين في الأسلوب والجنوح إلى الرمز .

على أن المرض – وكان قد بدأ يدبُّ في « جبران » منذ صدَر له كتابُ « النبي » – حال بينه وبين صدور كتابه الأخير « موت النبي » ، فأصدر بدلاً منه « أرباب الأرض » ، ومات « جبران » في

سنة ١٩٣١ قبل أن يموت النبيُّ الذي تصوَّره .

* * *

وتوقفُنا المرحلة الأخيرةُ من حياة « جبران » على أنه أخذ يقاوم العلّة ويستهين بالداء ، ويحاول أن يتغلَّبَ على ما في جسده من ضعف ، ليبدو أمام الناس قويًّا صلبَ العود . ولم يكن يستطيع أن يخدعَ نفسه والعلةُ تنهش فيه ، والداءُ يستبدُّ به ، فتغيَّر تفكيرُه ، وتغيَّرتْ كذلك أمانيه ، وتغير سلوكه الخاص : فبعد أن كان يقسو في نقده على بني وطنه ، أخذ يتمنى لو عاد إلى لبنان ، ونجا من مظاهر المدنية الغربية في أمريكا . وبعد أن كان حريصاً على أن يذوقَ من مُتع الحياة ما طاب له وهو لا يزال أعزب تعويضاً عما تعرض له من حرمان ، تمنى بأَخَرَة أن لو كان زوجاً سعيداً وربٌّ أسرة يعول أفرادَها. ولكن الفرصَة كانت قد أفلتتْ من الجسد المريضِ الخاوي ، والروحِ المكدودةِ المرهَقة .

جبران مصوِّراً

ضَمَّن « جبران » كتبه بعضَ صور رمزية تشارك الألفاظَ همسَها وإيحاءها ، وإن لم تخلُ من غموض في عيون بعضِهم حتى اختلف الناسُ في تفسيرها ، كتلك اللوحة التي تجمع بين اثنين متشابكَي الأيدي وظَهرٌ كل منهما في ظَهْرِ الآخر . فقد اختلف في تفسير مغزاها الكثيرون ، ورأى بعضهم أنها ترمز للزواج الذي يجمع بين زوجين مختلفي الميول والطباع ، ورأت بربارة يانغ في إشراقة ملامح أحدِهما واكتئابَةِ الآخر ما يجعل اللوحة رمزاً لارتباط الفرح بالحزن في حياة البشر . فالوجوه التي يصوِّرها « جبران » تنطق بشعور الحياة وتنبضُ بأنفاسه ، تتعالى جفونُها في كبرياء ، وتختلج شفاهها ، وتعلو صدورها وتهبط كأنما ترسل أنفاسَها ، تعابثُها الريحُ فتكاد تحرِّك خِمارَها وأقنعتَها ، وتحرِّك في مشاهِديها التأثُّرَ والانفعال ، حتى قال بعضهم : « ليستْ هذه ذكرى صور ، بل هي أرواح حيَّة .»

ذلك بالتحديد ما كان يريده جبران حين يجلس ممسكاً قلمَه أو فرشاتَه ، فهو يقول : « أنا أحاول أن أجدَ ذاتي من خلال الطبيعة . إن الفن بالنسبة لي أبعدُ من الأشياء التي نراها ونسمعها ، والطبيعةُ ما هي إلا جَسَدُ الله ، شَكْلُ الله ، واللهُ هو ما أنشدُه وما أحبُّ أن أتفهَّمَه .» [١]

وهكذا كانت فرشاةُ « جبران » صولجانَه بعد قلمِه .

وأغلب الظن أنه كان يحسُّ أن اللفظ لا ينقل كلَّ ما يريد أن يقولَه ، فضمَّ إليه الصورةَ تُعينه في نقل المعنىَ الذي تضيقُ عنه وسائلُ التعبير العادية . لقد كان جبران رمزيًّا في تعبيره ، رمزيًّا في تصويره؛ إذ الرمزية – أدباً وتصويراً – تحمل في طيّاتها ما يشبعُ نفس جبران وتحقّق ما يبغيه . ويطيب لي هنا أن أسوق رأيَ عدنان الذهبي [٢] في رمزية جبران حيث يقول :

« الرمزيةُ عند جبران ليست نزوةً عابرة كالتي عهدناها عند مَنْ سَبَقه من الأدباء والشعراء وبخاصة عن العرب منهم ، في فنِّيتهم البعيدة عن التمذهب الغربيّ ، فلقد عهدناه عند هؤلاء في التشبيهات والاستعارات الرمزية الطارئة في الأسلوب . هي عند جبران تمذهُبٌ روحيٌّ وفكري قد عاشَه هذا

(١) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٢١٦ .

(٢) جبران خليل جبران ورسمه الرمزي . مجلة الأديب ، ١٩٥١ .

الأديبُ الموهوب ، وبشّر به في الأدب المعاصر الحديث ، نستطيع تلخيصَها عنده بصوفيته الحلولية المسيحيّة التي كانت طابَعه في الشعور والتفكير من جهة ، وبقوة خياليّة المصوِّر الخلاق الذي أعطى لأسلوبه طابَعه التصويريَّ في التعبير من جهة ثانية . غير أن جبران نفسه لا يدين بهذا الرأي في معنى الرمزية فيقول : « الرمزية .. يقولون الرمزية .. أزيلوا هذه الكلمةَ ، ولا تقولوا الرمزية بل عبِّروا عنها بأنها الحقُّ المنظور ، وإذا شئتم فقولوا إنها الجمالُ الملموس . ليست الرمزيةُ هي الكلمة ، بل البساطة هي كل شيء .. البساطة تلك القدسيّة التي يفتقر إليها العالَم ، والتي بدونها ضَلَّ البشر ، ولا يزال حائراً جائلا في زمانِه ومكانِه . »

« أما رسومُ جبران فهي في الحقيقة عديدةٌ مختلفةُ الموضوع ، متنوعةُ الأجواء ؛ ولكنها ليست كلُّها رمزية ، كما أن أدَبه ليس كله رمزيًّا ، إلا أن المَسْحَة الغالبةَ والأصيلة حقًّا فيها إنما هي المَسْحة الرمزيّةُ ، التي تجلّت في الإطار الذي اتّخذه لرسومه : الإطارِ الرمزيِّ الذي لا تكادُ تخلو منه صورةٌ من صوره ، وهو لزوب [1] الإنسان بالأرض : الأرض التي يرسمها جبران مَهْداً للإنسان ، أو مسرحاً لآلامه ولذائذه ، أو لَحْداً له ولذكرياته .. بهذا بقيت لرسوم جبران الرمزيةُ الحقّةُ موضوع نشيدِه الفلسفيِّ الذي أبدعَ التعبيرَ عنه أ لا وهو الإنسانيةُ . »

على أن جبران لم يكن يميلُ إلى رسم المشاهد الطبيعيّة ، بل إنه لم يكن يستطيعُ رسمَها ، كما لم يجنحْ إلى أن يجعلَ لأية لوحة من لوحاته ورسومه اسماً إلا نادراً ؛ إيماناً منه بصعوبة تسمية الرُّؤى والأفكار .

أما ما يَلفتُنا حقًّا في رسومه فهو أجساد شخوصه المتكررة التي لا نستطيعُ معها تبيُّنَ إن كانت لذكور أم لإناث – مترسِّماً في ذلك خُطى فنانِه الأثير ليوناردو – فضلا عمّا يعتورُ قِوامها من رَخاوة وَطراوة ، نَحارُ معها : هل قصد جبران ذلك عامداً بوصفها شخوصَه النورانيّةَ التي يتطلّع إليها ، والتي تُمثِّل صلةَ الشفافية المتسامية التي تربط بين الرجل والمرأة وقد نَأَتْ عن أهواء الجسد ، أو كَما يدعوها هو : الجماعَ الفكريَّ والنفسيَّ عِوضاً عن الجماع الجسديِّ الكامل ؟ وهل هي في حقيقتها اعترافاتٌ خبيئة تكشفُ عن مكنون سرِّه الذي لم يَجرؤ على البوح به في كتاباتِه ، ومن هنا آثرَ ألا يُطلق أسماءً على رسومه إلا نادراً ، اللهم إلا إذا كان مردُّ ذلك إلى إيمانٍ منه بصعوبة تسميةِ الرُّؤى والأفكارِ المجرَّدة ؟

وفي حوارٍ دار بينه وبين ميخائيل نعيمة بادرَه صديقُه بقوله : « ليس الفنُّ ما نصوِّره ولا الشِّعرُ ما نَنْظِمه يا جبران ؛ بل الفنّ أن ندرك بأرواحنا أَلْفَةَ الحياة فنؤلِّف ما بين أفكارنا ومنازعنا وأقوالنا وأعمالنا حتى لا يبقى فينا من نقيض يناهضُ نقيضاً . والشعرُ أن نجدَ لأيامنا وزناً ولليالينا قافيةً . وما دُمْنا تمرُّ بنا حالاتٌ تتعصّرُ لها قلوبنا ، وتعتم أبصارنا ، ويتحوّل الشّهدُ في أفواهنا علقَماً ، والشدةُ في مفاصلنا رخاوةً ، فما نفعُنا من صورة جميلة نرسمها ، أو من قصيدة « عصماءَ » نَنْظِمُها ؟ أتصوِّرُ الجمالَ قبل أن يُصوِّرنا الجمال . أتلفّظُ الحقَّ قبل أن يلفِظَنا الحق . ونحن لو حَيينا حياةً جميلة لما استطعنا أن نَفُوه بغير الحق ، وعندئذ كنّا في غنى عن الكرازة بالحق . »

فاعترض عليه جبران قائلاً : « أ ليس يا ميشا أننا كلّما صوّرنا الجمال اقترَبْنا من الجمال ، وكلّما

(١) اللزوب : اللصوق .

نَظَمْنا الحق اتحدنا مع الحق ؟ أم أنت تشاءُ أن تحتِّم الصمت على الفنانين والأدباء ، والإفصاحُ عن مكنونات النفس حاجةٌ من حاجات النفس ؟ لا بدَّ للنفس من أن تشعَّ بمكنوناتها ومن تلقاء ذاتها ... وأنا ما أزال أقولُ إن الفن – وإن ميَّز بين الجمال والشناعة – هو أقربُ السُّبل إلى الله . أما التأملُ البَحْتُ الذي أنت ترمي إليه فسبيلٌ آخر ، لكنه يؤدي إلى الصمت ، وكَتْمِ سرِّ النفس ضِمْنَ النفس . والصمتُ أرهبُ من الكلام وأصدقُ . أنت محقٌّ في ذلك ، ولكنْ ستأتينا ساعةٌ نصمُتُ فيها ، فلماذا نصمت قبل أن تدقَّ الساعة ؟ سنصمُت يا ميشا ، سنصمُتُ ؛ ولكن لِنتكلَّمِ الآن .»

قضية التعبير عند جبران

لقد شارك جبران أدباءَ المهجر في العمل على تحرير اللغة من قيود « الشَّكلية » ، وتجديد الأساليب اللغوية دون الخروج على قواعد اللغة ، وتبنِّي فنونٍ أدبية حديثة كالشعر المنثور ، الذي يجمع بين الوِجْدانية والرمزيَّة والتجريد والمِثاليَّة المفرِطة .

كان تقديسُه للكلمة يبلغ أحياناً أن يَصْرِفَ عدّة أسابيع في تشكيل جملة صغيرة ويقول : « إنَّ عجْز الطرق القديمة عن التعبير عن أشيائي الجديدة جعلني دائبَ السَّعي وراءَ وسائل تعبيرٍ جديدة ، ولم أقتصر على صياغة ألفاظٍ جديدة بل كنتُ أشَكِّل إيقاعاتٍ وموسيقى وأشكال تأليفٍ جديدة . كان عليَّ أن أبتكر صوراً جديدة لآراءٍ جديدة . وإذا كان بعض الشعراء يبدءون القصيدةَ وَهم لا يعرفون كيف تنتهي بِهم فقد كنتُ أعرف دَوماً القصيدةَ الكامِلةَ قبل أن أبدأ فيها حرفاً واحداً . كنتُ أرى في التعبير الجميل لفكرةٍ سقيمة ما يجعلني أغضُّ الطَّرفَ عن فكرة جميلة صيغت في قالَب رديء .»[1]

ولقد استطاع « جبران » أن يكتسب مكانةً سامية بين الأدباء العرب في عصره بِقُدْرته الفريدة على تَطْويع اللغة العربية وتهذيبها ، وحسن صياغتها ، وتحويل عباراتها النثرية إلى قصائد تحمِل رنينَ الشعر وإن لم تحمِلْ أوزانه ، وتلوينِها بالألحان والظلال ونبضاتِ العواطف ، كما كتبَ مقطوعاتٍ غنائيةً تتألق بالروعة والنقاء ، والقدرة على التأثير والإيحاء .

ومع ذلك لم يَهِنْ جبران في معركته من أجل تكوين أسلوب شخصيٍّ خاصٍّ به وقادر على حمل رسالته . ولم تكن استعانتُه بفن الرسِم وبالكتابة باللغة الإنجليزية إلا مظهراً من مظاهر تلك المعركة .

وكان تردُّده بين الإنجليزية والعربية أوضحَ ما يكون في كتابه « النبي » : فلقد كتبه أولاً بالعربية ، ثم تركَه جانباً بعد أن رأتْ أمه المرهفَةُ الحسِّ أنه سابقٌ لأوانه . وبعد سنوات خمس تحرَّق رغبةً لإعادة صياغته ، غير أنه لم يكد يفرُغ منه حتى انبعث في سمعه صوتُ أمه التي كان الموت قد اختطفها ، فمزَّقه . لكن نفسه لم تصبر على طيِّ كتابه في صدره ، فكتبه مرة ثالثة لم يقتنع هو بها فمزَّقه من جديد . وبعد عَشْرِ سنوات من كتابته الأولى أخذ يكتبه باللغة الإنجليزية دون استِئناس بالنص العربيِّ . ولم يُعِد « جبران » صياغتَه بالعربية ، كما لم يترجم نصَّه الإنجليزي إلى العربية حتى بعد أن ظهرت للكتاب عشراتُ الترجمات بلغات مختلفة .

وما من شك في أن اللغة الإنجليزيةَ قد باتت عند « جبران » بمثابة لغته العربيةِ . فلم يعد يحسُّ

---

(١) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

بهذه لغةً أولى وبتلك لغةً ثانية بل أصبحتا لغَتيْه معاً ، وبات يختار هذه أو تلك حين يجد في هذه أو تلك قدرةً كبرى على تلقّي فكره وحمْلِه والإفصاحِ عن سرِّه . ويعترف جبران في هذا المقام بأن كل ما يعرفه من الإنجليزية قد لقنه عن شكسبير ، وعن التوراة ، وعن ماري هاسكل . ويضيف إلى ذلك : « إن لي أسلوبي الخاصّ باللغة الإنجليزية ، لكنّي لم أتمكن قطُّ من تغيير اللغة الإنجليزية بالشكل الذي غيّرتُ به اللغةَ العربيةَ . ففي العربية قد خلقتُ لغةً جديدة داخلَ لغة قديمة كانت قد وصلت حدًّا بالغًا من الكمال . لم أبتدع مفرداتٍ جديدةً بالطبع ، بل تعابير جديدة ، واستعمالاتٍ جديدةً لعناصر اللغة .» [١]

لقد كانت اللغةُ الإنجليزية طيِّعة طواعية اللغة العربية على لسان جبران ، مما مكّنه أن يكون شاعراً بهذه اللغة ، ولكنّا لا نستطيع الزعمَ أنه قد بلغ بشاعريته الإنجليزيةِ المكانة المرموقة بين شعراء الإنجليزية . ومع ذلك قد كسَب بهذه الشاعرية شعبيةً واسعة في الأوساط الغربية لا سيّما في الولايات المتحدة الأمريكية . ومن الظلم بمكان ألا تنال مؤلفاتُ جبران التي كتبها بالإنجليزية حظها في الأوساط الأدبيّة ، فليس ثمةَ إشارةٌ إليها من قُرْبٍ أو من بُعْدٍ .

وسواء كتبَ « جبران » بالعربية أو بالإنجليزية ، فقد كان له في كلتيهما أسلوبُه المتميّزُ الخاصُّ به ، الذي تأثر فيه بقراءته الكتب الدينية الهندية والمسيحية ، وبخاصة التوراة والإنجيل ، وكذلك كتب المتصوِّفةِ المسلمين وبخاصة ابن الفارض ، وعلى وجه التخصيص تائيّتهُ الكبرى التي أعْلَى من شأنها ، وكذلك الغزالي وابن عربي والحلّاج . هذه الكتبُ التي نرى فيها جميعِها أسلوبَ النبي الذي يعظُ بالموجَز من روائع الكَلِم ، ويجنحُ إلى الحكمة التي تنطوي دائماً على مَغْزًى نبيل ، أو تنمُّ على سرٍّ جميل ، في أسلوب أقربَ إلى الشعر المنثور ، محتذياً في ذلك نهج الصوفي الكبير الحلّاج حين يقول : « لو ألقي مما في قلبي ذَرةً على جبال الأرض لذابت ، ولو سقطتْ ذرةً من قلبي على الجحيم لأطفأتْه ، ولو سقطت ذرةً من قلبي على الجنة لأنارتها !» فلقد حلّق « جبران » في كتاب « النبي » في آفاقِ الرؤية المتفائلةِ بالحياة ، وتوهَّم في نفسه القدرة على تغيير تلك الحياة ، فكان متمرداً على ما جَلَبَتْه الحضارة الحديثة للحياة ، فيَنْفِر كما تقول بربارة يانغ : « من وسائل الحضارةِ الحديثةِ التي تهدمُ ولا تبني ، وكان بِودِّه لو أن حطَّم كلَّ طائرة وخلّى بين الإنسان وبين روحِه المجنّحة تسبح في الفضاء .» [٢]

كان « جبران » يريد حياةً أخرى غيرَ تلك الحياة العامة التي كَرِه مضامينَها وآلاتِها واكتشافاتِها ؛ لكنه لم يتخيلها غيرَ حياةٍ بدائية ساذَجة ، فلقد كانت عزلَتُه بعيداً عن وطنِه وأهله ، وانطواؤه على نفسه هارباً منَ المجتمع الأمريكيِّ الغريبِ عليه مما جعله يعجِزُ عن أن يقدِّم حلًّا حاسماً لمشاكِلِ الواقع اليوميِّ من حوله .

وعلينا أن نعترفَ ، مع خليل حاوي – في دراسته القيمة لأدب جبران – بأن « جبران » لم يكن في مستوى المسئوليةِ الاجتماعية التي حاول حملَها ، وإن أذهلَنا بنفاذه إلى أغوار الأشياء مهما دَقَّت .

---

(١) توفيق صايغ : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٢) يانغ ، بربارة : المرجع نفسه ، ص ١٧ – ٢٧ .

كان « جبران » نبيًّا ظهر في غير عصره وفي غير وطنه ، فلم تنجح نزعتُه ودعوتُه إلى الحياة الفطرية في مواجهة مشاكل العصر التكنولوجيّ الحديث ، ولم يزوِّدِ الإنسان المتمدين بزاد جديد ، وإن أتاح للمحزونين الهروبَ إلى عالم خيالي فيه الإخلادُ إلى الطُّمأنينة .

وقد فطِنَ أصحاب دور النشر إلى أنه ما يكاد يموت إنسانٌ حتى يتهافتَ العشراتُ من أقاربه وأصدقائه على اقتناء كتاب « النبي » بحثًا عن السلوى والعزاء . كما أن كثرةَ الشبان يقتَنون الكتاب ليقتبسوا من عباراته الرقيقةِ ما يمسُّ قلوبَ الفتيات ، ويثير فيها كمينَ الوَجْدِ ، ويلهب العواطف . وقد أوردتْ مجلة « سفنتين » - التي قالت بشعبيَّة الكتاب - فقرةً من رسالة فتاة تُعَدُّ شاهداً على ما تستشعره الكثرةُ من الفتيات عند قراءة النبي تقول فيها : « ما أندرَ هذا الكتابَ الفريد ! وما أقدرَه على تبديد الأحزان التي تجثُمُ على القلوب ، ومَنْحِ الأرواح المكدودة فرحَةَ الرّاحةِ والإشراق !»

عقيدة جبران في الوجود

في فم نبيّ « جبران » نشيدٌ عاطفيّ راعش ، يتغنى بالإنسان والطبيعة والحب والحياة ، وينسكب نوراً لا ينير غير الجوانب الخيِّرة الرائعة في الحياة والإنسان ، مؤمناً بنفع الإنسان وصلاحه وصفائه ونقائه من الشرور . إنه يهمس إلى الذات العظمى الكامنةِ في البشر جميعاً ، التي تنفلت من الصور المادية لِتلتقيَ متحدة متآلفة في عالم السماء . يتحدث إلى الإنسان العظيم الذي يمثل في كيانه غير المحدود البشرَ أجمعَ لحماً ودماً والذي هو وحدةٌ منه . فإيمانُه بالطبيعة إيمان بمجموعة من الكائنات الحية يحس بها في حركتها ، ويتبيَّنها في روح الحب النابعة في جميع المرئيات والمحسوسات التي ترتبط بالطبيعة برباط الأمومة : « كلُّ شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة ، فالشمس هي أم الأرض .. وهذه الأرض هي أم الأشجار والأزهار .. وأم كل شيء في الكون ، هي الروح الكلية الأزليةُ الأبدية المُتْرَعة بالجمال والمحبة .. والطبيعةُ ترتبط بذاته [الإنسان] ارتباطًا أعمق من ارتباط الجسد . إنها تهمس إلى روحه الكامنة في الأعماق ، ويحسُّ بها هو حين يتحلل القناع الماديّ عن ذاته فتهفو روحه إلى الطبيعة كاشفة له عن أسرارها . فما أشبه التجاذبَ بينه وبين الطبيعة بالتجاذبِ بين الموجة والشاطئ ، ما يكاد الموجُ يندفق حتى يعانقَ الشاطئَ الحبيب ، فإذا ما انحسر استرخى على أقدام ذلك الشاطئ ، وبالتجاذب بين المطر والروض حين يقول المطرُ : « إذا ما رأيتُ روضة جميلة سقطتُ وقبّلت ثغور أزهارها وعانقتُ أغصانها .»

وهو يرى الطبيعةَ نظاماً دقيقًا خاضعاً لقانون كَوْنيّ يحرك الشمس وكلّ ما يحيط بها ، ويستمد قوتَه من قدرة الله . ومن ثَمّ كان « جبران » يحمل للنظام الطبيعيّ ما يشبه التقديس ، ويرى في الطبيعة التي يسودُها النظام تجسيداً للحرية المثالية ؛ لأن القانون هنا نابعٌ من الذات وليس مفروضاً عليها . هكذا يرى « جبران » الوجود كله وحدة واحدة . وهو لا يفرق بين جزئياتِ الأشياء ، ما دامت هي جزئياتٍ في الكيان العام ، حتى المشاعر ، حتى الطاقات الحية في الإنسان ، حتى اختلافات التقدير . كلُّها في مجموعها أجزاءٌ للكل الواحد : الوجود . بل إن الوجود عند « جبران » ليَمتدُّ إلى أعمقَ من مفهومه ، فهو قائم بذاته بغضّ النظر عن صُوَره ، والأرواحُ عنده تتناسخ ، وفكرةُ الموت عنده تعني الانتقال لا العدم ؛ فنراه يقول لماري هاسكل : إنه يؤمن أنه عاش حياةً بشريَّة في الماضي : مرتين في سوريا ، ومرة في إيطاليا ، وأخرى في اليونان ، ومرة في مصر ، وستّ مرات أو سبعَ

في بلاد الكلدان ، و واحدةً في كل من الهند وفارس .»[١] على أن وحدة الوجود عند « جبران » لا تعوق نمو الشخصية الفردية ، ولا تحول بينها وبين الحركة الحرة المستقلة ذاتِ الطابع الخاص . وفي حديثه عن « الزواج » تحليلٌ بارع لوحدة الوجود ، ولاستقلال الشخصية الفردية ، والمحافظة على ما لها من مميزات .

والمظاهر التي تبدو للناس ليست حقائقَ ما في الوجود من أسرار .. كلا .. ولكنها لا تعدو أن تكون صوراً لحقائقَ أعمقَ مما تتحمله هذه المظاهر ، أو لما قد توحي به من معانٍ . وفي استطاعة « كلِّ إنسان أن يتشوّقَ ثم يتشوّق ثم يتشوّق حتى ينزعَ الشوقُ نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد إذ ذاك ذاته . ومَنْ يرى ذاتَه يرى جوهرَ الحياة المجرد ، فكلٌّ ذات هي جوهر الحياة المجرد .» ولعل فكر جبران هذا كان مصدرَ إلهام أنطوان ده سانت إكزويري حين قال : « لا يحسنُ المرء الرؤيةَ إلا بقلبه ؛ فالجوهر خفيٌّ عن الأنظار .» ومِنْ قبلُ تردَّدت هذه النظرات العميقة النفاذة في نظرات الصوفية والمتصوفين ، وفي عظات « الفيدا » .

وإذا كان الله هو مصدرُ قانون الطبيعة الكونية ، فإن القلبَ هو مصدرُ قانون الطبيعة البشرية . القلبُ هو الباب الذي يطلّ على الفردوس الأرضي ، والذي لو وُضع عليه سورٌ يقيده لاستحال سجناً كئيباً . إن الحرية هي النَّسْمة التي تضمن الحياة للقلب . ومن الطبيعي أن يحمل « جبران » للقلب وحريته القداسة نفسها التي يحملها لله وللقانون الطبيعي .

وهكذا يرتبط اللهُ والطبيعةُ والحريةُ والحبُّ والقلبُ برباط وثيق حتى تبدو في عيني « جبران » بمثابة دعائم دين خاص به ، تحيا الأرواحُ في عالمه القائم وراء الوجود ، وتمضي إلى جنته النفوس بعد التضحية من أجله ، والاستشهاد في سبيله ، وتحقيق الخلاص في محرابه . ويتألق الحب بينها بوصفه الركيزةَ الأساسية في دين « جبران » . إنه ينفذ إلى القلب فيغيّره ويعيد إليه طهره الأول ، حتى تصبح تجربة الحبِّ بمثابة تحوُّل دينيٍّ أو اعتناق للدين الجديد ، كما أن الحبَّ حين ينفذُ إلى قلبين عاشقين يعيد إليهما الوحدة الأولى . ذلك أن « جبران » يرى أن كلَّ عاشقين كانا متَّحدَيْن في الله منذ الأزل ، ثم انفصلا حين هبطا إلى العالم الأرضيّ ، وسيظلان شقيّين ما لم يلتقيا ، فالوحدةُ قاسية وسط الطبيعة التي يتحدث كل شيء فيها عن الحب ، حتى إذا عزَّ لقاء العاشقين انقلب الإحساس بالوحدة إلى تعطُّش إلى الموت الذي تعود معه أرواح العشاق إلى الاتحاد ، وتقول روحُ كلِّ عاشق لروح معشوقته : « أنت رفيق نفسي الذي فقدتُه ، ونصفي الجميل الذي انفصلتُ عنه عندما حُكِم عليَّ بالمجيء إلى هذا العالم .»

والحبُّ نار خالدة أبديةُ الإشراق . إنها نفثةُ الروح الكلية التي يسمو وجودها فوق الزمان والمكان والتاريخ ، بل إن « الأبدية لا تُبقي على غير الحب لأنه مثلُها » ، فليست الأبدية غيرَ الروح الكلية أو الإله « الذي لا يمكن أن يكون شيئاً سوى المحبة والرحمة .» عالَم الحب وحده هو الباقي . ولن يتفتح كاملاً إلا حين تندثر « المدينة » التي تجسِّد هذا العالم الأرضيَّ بأوشابه وصراعاته ، بقيوده المتعارضة مع قانون الطبيعة والحرية المقدسة ، بظُلمِهِ وتمييزه بين الناس ، وإفقاره مجموعةً منهم وحرمانِهم حقَّهم في العدل والحرية والمساواة ، « المدينة » التي تمثِّل بؤرة الشر في الكون ، وبقعةَ

---

(١) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٤٧ – ٤٨ .

الظلام الملوّثة لنقاء النور . هذه المدينة الظالمة ستندثر ، ولا يبقى من آثارها « غيرُ طلل بالٍ يخبر الرجالَ باندحار الظلمة أمام النور .» ففي عالم النور وحده يتألّق الحب .

وفي حديث « جبران » عن الحب مذهبٌ جديد :

« فالحبّ لا يعطي إلا ذاته ، ولا يأخذ إلا من ذاته .

والحب لا يملك ، ولا يملكه أحدٌ .. فهو مكتفٍ بذاته ..»

فإذا ما تحدث « جبران » عن العطاء ، فإن حديثه ينطوي على إنسانية مرهفة ، أساسُها إيمانه بوحدة الوجود ؛ فيرى جبران « إنه جميلٌ أن تعطيَ من يسألك ، وأجمل منه أن تعطيَ مَنْ لا يسألك ؛ لأنك تدرك حاجته » . بل يذهب إلى أبعدَ مِنْ هذا ، فيرى أن صاحبَ الحاجة إذا أخذ أحسن إليك بأخْذِه منك .

وفي عالمنا الأرضي يحمل الفقراءُ النور في قلوبهم ، وتتفتح أمامهم أبوابُ الخلاص لينفذوا ثانية إلى السماء : مَنْبِتِهم ومأواهم ، ومن أجلها ينتظرون الموت في شوق ، ويستقبلونه في فرح ؛ فهو يمحو من شفاههم مرارَةَ الحياة الأرضية ، ويزفُّهم إلى عالم الراحة والإشراق . فموتُ الأغنياء عند « جبران » يعني تحللهم ونهايتَهم ، في حين أن موت الفقراء – كموت العشاق – زفافٌ لهم إلى عالم السعادة والأفراح . أما الحياة فهي مصدر أفراح البشر وأحزانهم معاً . إنها البئر التي يغترفون منها ضَحكاتِهم بعد أنِ امتلأت بدموعهم ، مثلما « تُريقُ الشجرةُ دمعَها على الأرض ، ثم تمتصُّه حليباً من ثديَيْها .»

لقد مزج « جبران » بين الطبيعة والإنسان مزجاً ذاب معه كلٌّ منهما في كيان الآخر ، فالإنسان هو الطبيعة ، والطبيعة هي الإنسان ، فهو لا يؤمن إلا بأصل واحدٍ وخليقة واحدة وقانون واحد ، وحبٌّ واحد أبديٌّ لا نهائي .

« الأرضُ الطيبةُ السوداء » ، كانت هذه الكلمات دائماً على شفتَيْ جبران ، فقد أحبَّ الأرضَ والتراب وكلَّ ما نما منها ، ويكنُّ للأشجار إحساساً عميقاً بالتوقير والإجلال بل بالتقديس والعبادة . وفي ذلك يقول : « لو وُجد في هذا العالم كلّه شجرةٌ واحدةٌ ولا شجرةَ أخرى سواها لحجَّت إليها شعوبُ الأرض وخشعتْ تحتها وعبَدَتْها .» وكان يحب لَمْسَ خشب الأشجار ، فالقطعة المنقصفة من غصن في حرش أو غابة ينحني عليها ويلتقطُها ويحتفظ بها كأنها كنز ثمين ، وقد يحفر عليها صورةً جميلة . كما كان يعتزُّ بمجموعة من الأحجار الدقيقة يزعم أنه جَمَعها من كل شاطئ لكل بحرٍ من بحار هذا الكوكب . والأرض كان يتحسّسها ويلمسها بأنامله وقد سرتْ في أعطافه فرحةٌ حقّة تفوق متعةَ خازنِ الذّهب وهو يتحسّس دنانيره الزاهيةَ المتلألئة .

وكما أن الوجود كلّه وحدةٌ متآلفة يَتّسِق فيها الإنسان مع الطبيعة ويتناغم – فالبشر كذلك مجموعةٌ متحدة وإن وُزّعت بين بلاد مختلفة : « البشر ينقسمون إلى طوائفَ وعشائرَ ، وينتمون إلى بلاد وأصقاع ، وأنا أرى ذاتي غريباً في بلد واحد ، وخارجاً عن أمة واحدة ، فالأرضُ كلها وطني ، والعائلةُ البشرية عشيرتي .» يقول جبران في قصيدة له يومَ عيد مولده : « لقد أحببْتُ الجنس البشريَّ كله ، وأحببت الناس حبًّا جمًّا ، وأرى الناس في الحياة ثلاثةً : واحدٌ يلعنها و واحدٌ يباركها و واحدٌ

يتأملها ، فأحببت الأولَ لتعاسته ، وأحببت الثانيَ لأريحيته ، وأحببت الثالث لحكمته .» وتعلو عنده وحدةُ الجنس البشريِّ فوق الزّمن والتّاريخ والحدود ، وتتمثّل في الامتدادات الثّقافية والخلقية والسّياسية، ولا يتعارض الإخلاص لها مع الإخلاص القوميِّ : « أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي . وأحبُّ بلادي بقسم من محبتي للأرض وطني ، وأحب الأرضَ بكلّيتي لأنها مرتعُ الإنسانية روح الألوهية على الأرض .»

* * *

هكذا مضَى « جبران » بعد إنتاج لم يكن وليدَ الرفاهية والاسترخاء ، بل كان قرينَ سلسلةٍ من المحن والآلام . لقد كان إنتاجاً مغموساً في الأسى ، إنتاجاً أقربَ إلى الصيحة تنطلق من قلب جريح. والألمُ الكبير قد يحطِّم صاحبه فيقضي عليه ، فإذا صادف نفساً كنفسِ « جبران » تحوَّل إلى طاقةٍ خصبة منتجة تدفعُه إلى أملٍ وعملٍ أكبر .

وإني أبسط في هذه السيرة لقراء العربيةِ لوناً من ألوان أدب المهجر لعملاق عربيٍّ مغترب نَسجَ فيه أروعَ محاولة للتعبير عن الهروبِ من هذا المهجر إلى عالمٍ خياليٍّ تتراءى فيه صورةُ الوطن المفقود التي عاشت في ذكرياتِ الطفولة وأحلامِ الشباب .

ملاحق خاصة بدراسة جبران خليل جبران وأدبه

١ - تواريخ هامة في حياة جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١)

١٨٨٣ * في السادس من ديسمبر (كانون الأول)، ولد جبران بن خليل بن ميخائيل بن سعد، المتصل نسبه إلى يوسف بن جبران البشعلاني الماروني. أصله من دمشق، ونزح أحد أجداده إلى بعلبك، ثم إلى قرية «بشعلا» في لبنان، وانتقل جده يوسف جبران إلى قرية بِشَرِّي بلبنان الشمالي، وفيها ولد صاحب الترجمة.

وأمه كاملة بنت الخوري إسطفان عبد القادر رحمة، تزوجها خليل بعد أن مات عنها زوجها الأول مخلفاً لها ولداً هو بطرس؛ فأنجبت له جبران، ثم أنجبت بعده بعامين بنتاً أسمتها «مريانا»، ثم أخرى دعتها «سلطانة» بعد عامين آخرين.

١٨٩٥ * رحلت كاملة بأولادها الأربعة إلى الولايات المتحدة، ونزلت في الحي الصيني من مدينة بوسطن، تاركة زوجها في بِشَرِّي؛ حيث أرادت لجبران أن يسير في طريق غير التي اختارها له والده.

١٨٩٧ * عرَّفته مدرِّسة التصوير في مدرسته بمصوِّر معروف في أمريكا هو «ماجر»، وشرع جبران يزوره في مرسمه ليفيد من خبرته وفنه. وهناك التقى جبران زوجة أحد التجار، التي قصدت المكان ليصوِّرها المصوِّر، وكان هو وقتها في الرابعة عشرة من عمرها، وكانت هي في الثلاثين.

* عاد جبران إلى بيروت ليتمّ تعليمه، وفي بيروت دخل مدرسة الحكمة، وفيها درس جبران العربية والفرنسية أربع سنوات.

١٩٠٢ * عاد جبران من بيروت إلى بوسطن، سواء كان ذلك مباشرة أم بعد رحلة مع أسرة أمريكية شملت مصر و الآستانة و أثينا و إيطاليا و روما و البندقية و فلورنسا، ثم باريس فلندن.

١٩٠٨ * التقى جبران ماري هاسكل في معرض قد أقامه لصوره، ثم زارها في مدرستها، وقدمته إلى ميشلين. وفي تلك السنة شجعته هاسكل على السفر إلى باريس لاستكمال دراسة الفن على نفقتها، فسافر، وهناك اتصل بمعاهد الرسم والتصوير، والتحق بمدرسة الفنون الجميلة وأكاديمية جوليان.

١٩٠٩ * اقتسم مرسماً خاصًّا افتتحه مع يوسف الحويك، الذي كان رفيقاً له

بمدرسة الحكمة البيروتية . وكان جبران قد التقاه بمدرسة الفنون الجميلة ، وسرعان ما اختلفا مع أستاذهما ؛ فتركا الدراسة ، وافتتحا هذا المرسم . ومما لا ينسى أنه تعرَّف في باريس بالمثّال « أوغيست رودان » وأعجب به ، وقد قاده « رودان » بدوره إلى معرفة « وليم بليك » .

١٩١٠ * قبل أن يترك باريس التقى الشاعر والكاتب اللبناني أمين الريحاني ، وصارا صديقين ، ورحلا معاً إلى لندن ، ومعهما مواطنهما يوسف الحويك، وأصبح شغلهما الشاغل هو إيجاد وسيلة لنهوض العالم العربي من كبوته ، وحل النزاع الديني بين طوائفه المختلفة .

* أقيم معرض الجمعية الوطنية للفنون الجميلة بباريس ، وبه عرضت لوحة لجبران .

١٩١٢ * في التاسع والعشرين من مارس أرسلت إليه مي زيادة أول رسالة تعبر فيها عن إعجابها بأدبه ، ومن هنا نشأت بينهما العلاقة الأدبية الشهيرة .

* في الثاني عشر من مايو أرسلت مي إليه تشكره على إهدائها كتابه « الأجنحة المتكسرة » وتناقشه في موضوع الكتاب .

١٩١٣ * في أبريل من ذلك العام أقامت الجامعة المصرية حفلاً لتكريم خليل مطران ، وشارك فيه جبران من مهجره بكلمة ألقتها مي .

١٩٢٠ * في العشرين من أبريل ، بدأ التفكير في تكوين رابطة للأدباء ، وفي الثامن والعشرين من الشهر نفسه تم تأسيسها ، وانتخب جبران عميداً لها ، وميخائيل نعيمة مستشاراً ، و وليم كاتسفليس خازناً ، ورسم جبران شعارها .

١٩٢٢ * وافقت ماري هاسكل على الزواج بجاكوب فلورنس مينيس ، وكانت قد اعتذرت من قبل عن الزواج بجبران حرصاً على علاقتها به ؛ إذ كانت تعلم أنها لو تزوجته فلن تدوم العشرة بينهما ، وكانت تتذرع لجبران بحجة أنها تكبره بعشر سنوات ؛ مما يسرع بها إلى المشيب عنه .

١٩٢٥ * مرض جبران مرضاً شديداً ، وظل مريضاً حتى مات .

١٩٢٦ * تم زواج ماري هاسكل بجاكوب فلورنس مينيس ، وأخذت صلتها بجبران تتراخى شيئاً فشيئاً ؛ بعد أن انشغلت بحياتها الجديدة .

١٩٢٩ * احتفلت الرابطة القلمية بمرور خمسة وعشرين عاماً على شروع جبران في الكتابة .

١٩٣١ * في العاشر من أبريل (نيسان) قضى جبران نحبه ، وكان قد اعتل بعد أن انتهى من تأليف كتابه « النبي » .

* ماتت ميشلين في باريس بعد ستة أشهر من وفاة جبران ، وماتت مي زيادة

عام ١٩٤١ . أما ماري هاسكل فقد امتد بها العمر حتى التسعين ؛ فتوفيت عام ١٩٦٤ بعد أن خلّدها جبران . وكان قد ترك كل أعماله الفنية حتى مرسمه هبة لها .

٢ – أعماله المؤلّفة باللغة العربية
(في ترتيب ألفبائي دون التقيُّد بطبعة معيَّنة)

١ – الأجنحة المتكسرة . القاهرة ، ١٩١٢ .

٢ – الأرواح المتمردة . القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٢ .

٣ – البدائع والطرائف : مقالات ومنظومات حديثة ورسوم خيالية ، جمع يوسف توما البستاني . القاهرة ، مطبعة يوسف كومي ، ١٩٢٣ .

٤ – جبران الشاعر (ديوان جبران) ، جمع داود سليمان . الموصل ، المطبعة الشرقية الحديثة ، ١٩٤٥ .

٥ – دمعة وابتسامة . القاهرة ، مكتبة الهلال ، ١٩٢٣ .

٦ – رسائل جبران ، تقديم جميل جبر . بيروت ، ١٩٥٢ .

٧ – عرائس المروج . القاهرة ، مكتبة الهلال ، ١٩٢٢ .

٨ – العواصف . القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٠ .

٩ – كلمات جبران ، جمع أنطونيوس بشير . القاهرة ، المطبعة العربية ، د. ت .

١٠– ما وراء الخيال ، جمع محمد عبد الفتاح . القاهرة ، مطبعة السعادة ، د. ت .

١١– مع عالم الأدب : الكتابة والشعر ، جمع محمد زكي الدين . القاهرة ، مطبعة المحروسة ، ١٩٢٤ .

١٢– مناجاة أرواح ، اختيار نصيف عثمان شاكر . القاهرة ، مطبعة الشباب ، ١٩٢٦ .

١٣– من أعماق القلوب . القاهرة ، مطبعة الترقي ، د. ت .

١٤– المواكب : نظرات شاعر ومصور في الأيام والليالي ، نشرها نقولا عويضة . القاهرة، ١٩٢٣ .

١٥– الموسيقى . القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥٤ .

٣– أعماله باللغة الإنجليزية

1. The Madman (1918)

وقد ترجمه أنطونيوس بشير بعنوان : المجنون : أمثاله وأشعاره .

2. The Forerunner (1920)

وقد ترجمه أنطونيوس بشير بعنوان : السابق : أمثاله وأسفاره .

3. The Prophet (1924)

وقد ترجمه ميخائيل نعيمة ، ثم أنطونيوس بشير ثم الدكتور ثروت عكاشة بعنوان : النبي .

4. Sand and Foam (1926)

وقد ترجمه أنطونيوس بشير ، ثم الدكتور ثروت عكاشة بعنوان : رمل وزبد .

5. Jesus the Son of Man (1928)

وقد ترجمه الدكتور ثروت عكاشة بعنوان : عيسى ابن الإنسان .

6. The Earth Gods (1931)

وقد ترجمه أنطونيوس بشير بعنوان : آلهة الأرض . وترجمه الدكتور ثروت عكاشة بعنوان : أرباب الأرض .

7. The Wanderer (1932)

8. The Garden of the Prophet (1933)

وقد ترجمه بعنوان : حديقة النبي ، وقدّم له الدكتور ثروت عكاشة .

٤- من الدراسات المتعلقة بأدب جبران خليل جبران

إلياس زغبي (الأب) : جبران خليل جبران. حريصا (لبنان) ، مطبعة القديس بولس، ١٩٣٩ .

توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران . بيروت ، منشورات الدار الشرقية للطباعة والنشر ، د.ت .

جميل جبر : مي وجبران . بيروت دار الجمال ، ١٩٥٠ .

جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية . ط٢ بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٧ .

حبيب مسعود اللبناني : جبران حيًّا وميتاً . القاهرة ، مطبعة أبي الهول ، ١٩٣٢ .

حنا الفاخوري : الجديد في الأدب العربي وتاريخه . بيروت ، منشورات مكتبة المدرسة ، ١٩٥٥ .

رفائيل بطي : سحر الشعر . القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٢ .

رءوف سلامة : جبران ؛ حياته وآثاره . الإسكندرية ، دار مطابع المستقبل ، ١٩٨٣ .

سامي الكيالي : الراحلون . القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، د.ت .

عبد القادر القط : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر . القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٩ .

عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين . دمشق ، المكتبة العربية ، ١٩٥٧ . ج ٣ .

غازي فؤاد براكسي : جبران خليل جبران في دراسة تحليلية تركيبية لأدبه ورسمه وشخصيته . بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١ .

مارون عبود : جدد وقدماء ؛ دراسات ونقد ومناقشات . بيروت ، المطبعة التجارية ، ١٩٥٤ .

محمد عبد الغني حسن : الشعر العربي في المهجر ، تصدير عزيز أباظة . القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥ .

محمود تيمور : شفاء الروح . القاهرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٥١ .

ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران . بيروت ، مكتبة صادر ، ١٩٥١ .

نبيل كرامة : جبران خليل جبران وآثاره في الأدب العربي . بيروت ، دار الرابطة الثقافية ، د.ت .

النبيّ • رملٌ وزبد

الأرواح المتمرّدة • الأجنحة المتكسّرة

النَّبِيُّ

المصطفى

المختار الحبيب ، كان فجراً لزمانه ، ظلَّ اثنتيْ عشرةَ سنة بمدينة أورفاليس يترقَّب سفينته ، وكانت إلى عوْدة ؛ لترجع به إلى الجزيرة التي شهدت مولده . وفي السَّنة الثانيةَ عشرةَ ، في السَّابع من أيلول (سبتمبر) ، شهر الحَصاد ، ارتقى المصطفى التَّلَّ فيما وراء أسوار المدينة ، ورمى ببصره إلى البحر ، فلمحَ سفينته تأتي مع الغَمام .[1] وهنا انفرج شَغافُ[2] قلبه ، وطارت فرحتُه بعيداً حتى رفَّت[3] على البحر ، وأطبق المصطفى عينيه يردِّدُ الصَّلوات في مِحْراب السُّكونِ من روحه .

وحين هَبَطَ التَّلَّ لفَّته غَمامةُ حُزنٍ فراح يحدِّثُ نفسه :

أنَّى لي أن أمضي مُطْمَئنًا خالي القلبِ من الأشجان ؟

لن أبرحَ هذه المدينةَ إلّا وفي القلب جروح .

طويلةً كانت أيام ألَمي بين أسوارها ، وطويلة كانت ليالي وَحْدَتي فيها ؛ ومن ذا يستطيع أن يَنفَصِلَ عن ألمه و وَحْدَته غير آسِفٍ ؟

كم من حَبّات للرُّوح نَثَرْتُ في هذه الطُّرقات ! وكم من أطياف ولَّدها حنيني تجري عاريَةً بين تلالها؛ فلا أستطيعُ أن أنشقَّ عنها إلّا بأثقالٍ وأوجاعٍ !

ليس ما أنزعُهُ اليومَ ثوباً ، بل جِلْدي أمزِّقه بيديَّ هاتَيْن .

ولستُ أنزعُ فِكْرَةً أخلِّفُها ورائي ، بل هو قلب رقَّ بالجوع والظمأ .

* * *

على أنه ليس لي أن أطيل البَقاء ؛ فالبحر الذي يَهْتف بكل الكائنات إليه يهتف بي : أنْ أقْبِلْ ، ولا مَفَرَّ لي من نَشْرِ الشِّراع .

فإن بقيتُ جَمَدْتُ وتبَلْوَرْتُ واحتواني قالَبٌ ، برغم ليل لهّاب يُحْرِق السّاعات .

ليتني أستطيعُ أن أحمل معي كُلَّ شيء هنا ، ولكن ما السَّبيل ؟

الصَّوت حين يَنْطَلِقُ لا يَحْمِلُ معه جناحَيْه : لسانَهُ وشَفَتَهُ ، لكنه يمضي وحيداً يَنْشُدُ الأثير .

كذلك النَّسْر ، وحيداً ينطلق بلا وَكْرِه ، يروم الشَّمْس .

* * *

والآن ، حين بلغ المصطفى سَفْحَ التَّلِّ استدار يستقبلُ البحر ثانيةً ، فرأى سفينته تقترب من الميناء ، وفي مقدِّمتها ملّاحون من وطنه ، فهَتَفَ بهم من الأعماق :

أبناءَ أمّي الأزَليَّة ، يا فُرْسانَ الموج ، ما أكثر ما أبحَرْتم في أحلامي ! وأنتم الآن تَفِدون في يَقظتي ، وهي أعمقُ أحلامي .

هأنذا على أهْبَة الرَّحيل ، وقد أطلقتْ لهفتي شِراعَها كاملاً تَرْتَقِبُ الريح .

لم يَعُد لي سوى نَسْمَةٍ واحدة أتنسَّمها في هذا الجو الساكن ؛ لم يَعُد لي غيرُ نَظْرَة حُبٍّ واحدة ألقيها على ما كان ؛ ثم أنتظم في صفوفكم ملّاحاً بين ملّاحين .

وأنت أيها البحر الفسيح ، بل الأم الهاجِعَة ، يا من في صدرك وحدك يجد النهرُ والجدولُ السَّلامَ والحريَّة . ما هي إلّا انْثِناءةٌ أخرى فحَسْبُ لهذا الجدول ، ثم ما هي إلّا هَمْسَةٌ واحدة في هذه الغابَة، حتى آتي إليك قطرةً طليقةً في مُحيط غير مَحْدودٍ .

* * *

وبينما هو ماضٍ في طريقه ، إذ آنسَ على البُعْدِ رجالاً ونساءً ، قد تركوا حقولَهم وكُرومَهم مُسْرِعينَ نحو أبواب المدينة . وسمع أصواتَهم تنادي اسمَه ، وتَتجاوبُ من حقل إلى حقل ، مُعْلِنَةً مَقْدِمَ سفينته ،

(١) الغَمامُ : السَّحابُ . (٢) الشَّغاف : غِلافُ القَلْب .

(٣) رَفَّ : اضطرب وتحرَّك .

فراح يحدِّث نفسه :

تُرى هل يكون يومُ الفِراق هو بعينه يومَ التّلاقي ؟

وهل يقال إن ساعة غروبي كانت في الحقّ ساعةَ مطْلعي ؟

وماذا أنا مُعطي من ترك مِحْراثه في إبّان الحَرْث، أو مَنْ أوقف عجلة مِعْصَرته ؟

أ لقلبي أن يصير شجرة حافِلَة بالثّمار ؛ كيما أقطفُ منها لهم وأعطي ؟

وهل تتدفّق أمانيّ كالمناهل ؛ كيما أملأ كئوسهم ؟

ليتني كنت قيثارَةً فتمسّني يدُ العَلي القَدير ، أو مِزْماراً حتى تنسابَ خلالي أنفاسُه ؟

إنما أنا ساعٍ إلى السّكينة . تُرى أيَّ كنز لقيت في ظلّها ؛ فأنثره في ثِقَة واطمئنان ؟

إذا كان اليومُ يومَ حَصادي ، ففي أيِّ الحقول قد نثرت بذوري ، وفي أيّة فصول غابت عنيّ الآن ذكراها ؟

إن كانت هذه هي حتماً اللّحظة التي أرفع فيها مِصْباحي ، فلن تكون الشُّعْلَة التي ستضيء فيه هي شُعلتي ، ولسوف أرفع مِصْباحي خالياً مُظْلِماً . إن من يحرسُكم بالليل سوف يملؤه بالزّيْت ، وسوف يوقِدُه لكم .

* * *

هذه أمور عبَّر عنها المصطفى بالكَلِمَة ، وظلّ الكثير في قلبه مكْنوناً ، لم يستطع حتى هو أن يبوح بسِرِّه العميق .

* * *

ولَمّا دخل المدينة خَفَّ إلى لقائه كلُّ أهليها ، هاتفين باسمه ، كأنهم يهتفون بصوت واحد . وتقدّم الشيوخ وقالوا :

لا تُعَجِّل بالرّحيل عنّا .

لقد سطعْتَ في غَسَق [١] حياتنا كالشّمْس في رائعة النّهار ، وأمدّنا شبابُك بأحلام نحلُمُها .

لستَ بيننا ضَيْفاً ولا غريباً ، بل أنت وَلَدُنا الحبيب عَشِقَتْه أرواحنا ؛ فلا تتركْ أبصارَنا منذ الآن عَطْشَى إلى ملامح وَجْهك .

* * *

وانبرى الكَهَنَة والكاهنات له بقولهم :

لا تدعْ أمواجَ البحر تُفرِّق بيننا الآن ، ولا تجعل السِّنين التي قضيتَها بين ظَهْرانينا [٢] تئول إلى ذكرى ؛ فقد طُفْتَ بنا رُوحاً ، وكان ظلُّك لنا نوراً يشيعُ في وجوهنا .

فَلَشدَّ ما أحبَبْناك حُبًّا صامتاً مصوناً وراء قِناع ، ولكنه يهتف بك الآن عالياً ، يتمنّى لو يقف سافِراً بين يَدَيْك .

وهكذا الحبُّ أبداً لا يَعْرِفُ ما له من غَوْر [٣] إلّا ساعة الفِراق .

* * *

وجاء قوم آخرون يتوسّلون ، غير أن المصطفى لزِمَ الصَّمْتَ ثم أطْرَقَ ، ورأى الواقفون إلى جواره عَبَراتٍ تَسيلُ على صَدْره . ومضى ومضى القومُ معه إلى السّاحة الكُبرى قُدّام المعْبَد .

* * *

ومن كَنَفِ [٤] الهيكل طلعت عليهم امرأةٌ عرّافةٌ تُدْعى « أَلمِطْرا » ، فنظر إليها نظرة مِلْؤها الحنان ؛ إذ كانت أولَى من سعى إليه وصَدّق به ، ولَمّا يمضِ على قدومه المدينة غير يوم واحدٍ . وحَيّته المرأة بشَغَف وقالت :

يا نبيَّ الله ، يا مَنْ سعى وراء أسمى الغايات ، يا مَنْ ظلَّ يَتَطَلّعُ إلى الآفاق بحثاً عن سفينته ؛ ها هي

---

(١) الغسق : ظلمة الليل .

(٢) الظَّهر : خلاف البطن ، والمراد : بيننا .

(٣) الغور : العمق . (٤) كَنَفُ الشّيء : جانبُه .

ذي قد آبَتْ ، وأصبح رحيلُك أمراً محتوماً .

أ لا ما أعظمَ حنينَك إلى أرض ذِكْرياتك ، ومَوْطِنِ رَغَباتك الجِسام .

فحبُّنا لن يُقيِّدك ، وحاجاتنا لن تَسْتَوقِفَك ؛ غير أنّا سائلوك قبل أنْ ترحل عنّا أن تتحدَّث إلينا ؛ فتزوِّدَنا مما عندك من الحقّ ، وسنزوِّدُه أبناءنا من بعدنا ، وسيزوِّدونه هم أبناءهم من بعدهم ، فلن يَبيد .

ففي وحدتك كنتَ موصولاً بأيامنا ، وفي يقظتك كنتَ تستمعُ إلى ما يتخلَّلُ هَجْعَتَنا [١] مِنْ بكاء وضحك .

والآن نَضْرَعُ إليك أن تكشف لنا عن خَبايا نفوسنا، وتُطْلِعَنا بما أوتيتَ من علمٍ على ما يقوم بين الحياة والممات .

* * *

فأجابهم المصطفى : « يا أهلَ أورفاليس ، هل أنا مُحَدِّثكم إلّا بما يدور الآن في أحْناءِ [٢] سَرائركم ؟»

وانْبَرَتْ المِطْرا وقالت له : حدِّثنا عن

الحبّ

رفع المصطفى رأسَه مُشْرِفاً على القوم فغَشيَهُم السُّكون . وفي صوت عَريض قال :

إذا أوْمَأَ الحبُّ إليكم فاتّبعوه ، وإن كان وَعِرَ المسالك ، زَلِقَ المُنحَدَر .

وإذا بَسَطَ عليكم جناحيه فأسْلِموا له القِياد ، وإن جرحكم سيفه المستور بين قَوادِمه .[٣]

وإذا حَدَّثكم فصدِّقوه ، وإن كان لصوته أن يَعْصِفَ بأحلامكم كما تعصفُ ريح الشّمال بالبُسْتان .

إن الحبَّ إذ يُكَلِّل هاماتِكم ، فكذلك يشدُّكم على الصَّليب .

وهو كما يشدُّ من عودكم ، كذلك يُشَذِّبُ [٤] منكم الأغصانَ .

وكما يَرتقي إلى أعالي آفاقكم ، ويداعب أغصانكم الغَضَّةَ تَميسُ [٥] في ضوء الشمس ، كذلك ينزل إلى جذوركم العالِقَة بالأرض فيهزُّها هزًّا .

ويضمُّكم إلى أحضانه كما يضمُّ حُزْمَةَ قمح ؛

فيَدْرُسُكم لكي يُعَرِّيَكُم ،

ثم يُغَرْبِلُكم فيخلِّصكم من القشور ،

ثم يطحنكم فيُحيلكم دقيقاً أبيضَ ،

ثم يَعْجِنكم لتَلينوا ،

ثم يُسْلِمكم إلى نار هَيْكَلِه المقدَّسَة ؛ علَّ أن تصيروا الخبزَ المقدَّس لمائدة الرَّبِّ المقَدَّسة .

* * *

كل هذا يفعله الحبُّ بِكُم كي تعرفوا أسرار قلوبكم ، وبهذه المعرفة تصبحون فِلْذَةً [٦] من قلب الوجود .

أمّا إذا دَبَّ فيكم الخوفُ فلم تَنْشُدوا في الحبِّ إلّا الدَّعَة والمتْعَة ، فأَوْلى بكم أن تستروا عُرْيَكم ، وتخرجوا من بَيْدَر [٧] المحبّة إلى عالم لا تَتَعاقَبُ فيه فصول ، حيث تضحكون ولكن دون استغراق ، وتبكون ولا تَنْهَمِرُ كلُّ الدُّموع .

* * *

فالحبُّ لا يُعطي إلّا ذاته ، ولا يأخذ إلّا من ذاته . والحبُّ لا يَمْلِك ، ولا يَمْلِكه أحد ؛ فالحبُّ حسبُه أنه الحبُّ .

* * *

إذا أحببت ، فلا تقلْ : « لقد وَسِعَ قلبي اللهَ .»

---

(١) الهجعة : النومة الخفيفة من أول الليل .

(٢) الأحناء : جمع حِنو ، أي الجانب .

(٣) القوادم : ريشات أربع في مقدم الجناح .

(٤) يشذب الأغصانَ : يزيلها ليبدو اللحاء .

(٥) تميس : تختال . (٦) الفلذة : القطعة . (٧) البَيْدر : الجُرن .

بل قلْ : « وَسِعَني قلبُ الله . »

ولا تَظُنَّن أنك قادر على توجيه مَسْرى الحبِّ ؛ فإنما الحبُّ يَقودك إن وجدك خليقاً به .

* * *

الحبُّ لا يَنْشُدُ إلّا تحقيق ذاته ، فإذا أحببت ولم يكن بدٌّ من أن تُساوِرَك [١] رغبات ، فلتكن هذه رغباتك :

أن تذوبَ حتى تصبحَ كالغَدير المُنساب ، يُغَنّي الليلَ ألحانَه ؛

وأن تحسَّ الألم النابع من فَيْضِ حنان كبير ؛

وأن تُقبِّل الجُرْحَ ينتابك من إحاطة ذاتك لمعنى الحبِّ ؛

وأن ينزفَ دمُك عن رضاً وابتهاج ؛

وأن تنهضَ مع الفجر بقلب مُجَنَّح [٢] ؛ لتستقبل شاكراً يوماً في الحبِّ جديداً ؛

وأن تقيلَ [٣] مع الظَّهيرة ، مُسْتَغْرِقاً في نشوة الحبِّ ؛

وأن تعودَ مع الأصيل إلى مأواك ، عارفاً للجميل ؛

ثم تَخْلُدَ إلى النوم ، وقلبك يُسَبِّحُ بمن تهوى ، وشفتاك تَرْتَجفان بأُنشودة الحمد .

* * *

واستأنفت المِطْرا حديثها : وما قولك ، أيها المعلم ، في

الزَّواج

فأجاب قائلاً :

لقد وُلدتُما معاً ، ومعاً تظلّان إلى الأبد ، ومعاً تكونان ، حينما تذهب بأيامكما أجنحةُ الموت الشَّهْباء .[٤]

أجل كذلك تظلّان معاً ، في سِرِّ الله المكْنون .

ولكن ، هنالكَ لتكن في التئامكما فُسْحات .

ودَعا رياحَ السَّماوات ترقُص بينكما .

* * *

لِيُحِبَّ أحدُكما الآخر ، ولكن لا تجعلا من الحبِّ قيداً ، بل اجعلاه بحراً مُتَدَفِّقاً بين شواطئ أرواحكما .

وليملأْ أحدُكما كأس رفيقه ، وحذارِ أن تشربا من كأس واحدة .

ولْيُعْطِ أحدُكما الآخر من خُبْزه ، وحَذارِ أن تجتمعا على رغيف واحد .

غنِّيا وارقصا وامرحا معاً ، ولكن لِيَخْلُ كلٌّ إلى شأنه ؛ فإن أوتارَ القيثارة مشدودة على افتراق ، وإن خَفقتْ جميعاً بلحن واحد .

* * *

ولْتهبوا القلوب ، لا لتكون مِلْكاً لسواكم ؛ فلِيَدِ الحياةِ وحدَها أن تَسَع قلبيكُما .

ولتنهضا متماسِكَيْن ، ولا تتلاصقا ؛ فإن أعمدة المعبد على انفصال تقوم ، والسِّنْديان والسَّرْو لا ينمو بعضُها في ظلِّ بعض .

* * *

وقالت امرأة تضمُّ رضيعَها إلى صدرها : أَ لا حدِّثنا عن

الأطفال

فقال المصطفى :

إن أبناءكم ما هم بأبنائكم ؛ فلقد ولَدهم حنينُ الحياة إلى ذاتها ، فبِكم خرجوا إلى الحياة ، وليس

---

(١) تساورك : تصارعك وتواثبك . (٢) مجنح : له أجنحة .

(٣) تقيل : تنام وسط النهار .

(٤) الشهباء : خالط السواد فيها البياض .

منكم ، وإن عاشوا في كَنَفِكُم فما هم مِلْكُكُم .

* * *

قد تمنحونهم حُبَّكم ولكن دون أفكارِكم ، فلهم أفكارُهم .

ولقد تُؤون أجسادَهم لا أرواحَهم ؛ فأرواحُهم تسكُن في دار الغَد ، وهيهات أن تلمّوا به ، ولو في خطَرات أحلامكم .

وفي وُسْعِكم أن تجتهدوا لتكونوا مثلهم ، ولكن لا تحاولوا أن تجعلوهم مثلكم ؛ فالحياة لا تعود القَهْقَرى ، ولا هي تَتَمَهَّل عند الأمس .

أنتم الأقْواس منها ينطلق أبناؤكم سهاماً حيَّة .

والرّامي يرى الهدَفَ قائماً على طريق اللانهاية ، ويشدُّكم بقدرته حتى تنطلق سهامُه سريعة إلى أبعد مَدى .

وليكن انحناءُ أقواسِكم في يد الرّامي عن رضاً ؛ لأنه كما يُحبُّ السَّهم الطّائر ، كذلك يحبُّ القوْسَ الثابتة .

* * *

وهنا قال رجل ثَريٌّ : حدِّثنا عن

العطاء

أجاب المصطفى :

إنك لَتُعطي القليل حين تُعطي مما تملك ، فإذا أعطيتَ من ذاتك أعطيت حقًّا .

وهل ما تملكُ سوى أشياءَ ترعاها وتحفظُها ؛ خَشيةَ أن تحتاج إليها في غدك ؟ ذلك الغد ، ما تُراه يَدَّخر لكَلْب شديد الحِرص يَدفن العِظام في الرمال المهجورة ، وهو يتبع الحُجّاج إلى المدينة المقدَّسة .

وهل الخوفُ من الحاجة إلّا الحاجةُ بعينها ؟

أ ليست خشيةُ الظمأ ، وبئرك مَلأى ، هو العطش لا تُروى له غلّة ؟ [1]

(١) الغُلّة : شِدّةُ العَطَش .

* * *

بعض الناس يُعطي القليل مما عنده من كَثير . أولئك يُعطون تباهياً بالعَطاء ، فتذهب نيّاتهم المستورة بطيِّبات عَطاياهم .

وبعضهم لا يملك إلّا القليل فيَجود به كُلّه . أولئك هم المؤمنون بالحياة وما فيها من خير ، فلا تفرغ خزائنُهم أبداً .

وبعضهم يعطي فرحاً ، وفرحته جزاؤه ، أو يعطي متألّماً ، وفي الألم تطهير لنفْسِه .

وبعضهم يُعطي ولا يحسُّ ألَماً ، ولا يلتمِسُ فرحاً ، ولا يدري أن العطاء فضيلة . أولئك يُعطون كأنهم رَيحان الوادي يَبُثُّ عطره في الفضاء .

على فَيْضِ أمثال هؤلاء تَتَجَلّى كلمة الله ، ومن خلال عيونهم تُشْرِقُ بَسَماتُه على الأرض .

* * *

جميلٌ أن تُعطي من يسألك ، وأجملُ منه أن تُعطي من لا يسألك وقد أدركت عَوَزَهُ [2] ؛ فالسَّعْيُ إلى مَنْ يتقبَّل العَطاء هو للمُعْطي أعظم غِبْطَة من الغبطة بالعطاء ذاته .

وهل تستطيعُ حقًّا أن تقبض يدَك على شيء مما تَمْلك ؟

وَلَيَأتينَّ يومٌ كلُّ ما لَكَ فيه سوف يُعطَى ؛ فأعطِ الآن ، يكن لك مَوْسم العطاء ، لا لمن يَرِثُكَ .

* * *

وما أكثرَ ما تقول : « لَتَصبُوَنَّ نفسي إلى العطاء ، ولكن لا أعطي إلّا من يستحقُّ .» وليس ذلك قول الأشجار في بُستانك ، ولا القُطْعانِ في مَرْعاك . إنها تُعطي لتَحْيا ؛ لأن المَنْعَ سبيلُ الفَناء .

لا رَيْبَ أن من استحقّ أن ينال أيام عمره ولياليه ، لجديرٌ بأن ينال سِواها منك . وأنَّ من استحقَّ أن يَنْهَلَ من محيط الحياة ، لجدير أن يملأ كأسه من جَدْوَلِكَ الصغير .

(٢) العَوَزُ : الحاجَةُ واخْتِلال الحال .

وأي جزاء يَعْلو على جزاء مَنْ يتقبَّل العَطاء في شَجاعة وثِقَة ، بل و في بِرٍّ ؟

ومَنْ تكون أنت حتى يكشف النّاسُ لك عن خبيئَة صدورهم ويُلْقوا عنهم رِداءَ الكِبْرياء ؛ فترى منهم أقداراً عارية وعِزَّة مَبْذولة ؟

فانظر أولاً : أ حَقيقٌ أنت بأن تعطي ، وأن تكون للعَطاء أداة ؟

فالحقُّ أن الحياة هي التي تُعطي الحياة ، ولست أنت ، يا من تظنُّ أنك مُعْطٍ ، سوى شاهدٍ .

وأنتم يا من تأخذون – وكُلُّكم آخذ – لا تُسرفوا في الشُّكر ، وإلا وَضَعْتم نيراً [١] على كواهِلكُم وكاهل من أعطى .

بل أنتم والمعْطي ، قوموا واسْموا بعطاياهُ كأنها الأجنحَة .

ولئن استبدَّ بكم الشُّعور بأن الدَّين عليكم فادحٌ ، لذلك شَكٌّ في كَرَم مَنْ يعطي ، في حين أنَّ الأَرضَ السَّمحاءَ أمه والرَّبَّ أبوه .

* * *

وهنا انْبَرى شيخٌ صاحب نُزُلٍ فقال : حدِّثنا عن

المآكل والمشرب

قال المصطفى :

ليتكم تستطيعون أن تحيَوْا على عَبيرِ الأرض ، كما يحيا النَّباتُ المتَسَلِّق على الضَّوء .

فإذا لم يكُ بُدٌّ من أن تقتلوا لتأكلوا ، وأن تسلبوا لبنَ الأمِّ من رضيعها لِتُطفئوا ظمأكم ، فاجعلوا ما تعملون إذاً عِبادة .

ولتكن مائدتُكم مذبحاً يُضَحَّى عليه ما جاء من السَّهْل والغابَة نقيًّا بريئاً ، في سبيل ما هو في الإنسان أنقى وأبرأ .

* * *

وحين تَنْحرُ ذبيحَتَك فناجِها في سَريرَتك قائلاً :

« إن القُدْرَةَ التي تذبحُك هي نفسُها تذبحني ؛ فإني مِثْلُك مصيري الفَناء . وإن النّاموس الذي أسلَمَك إلى يدي سوف يُسلمني إلى يدٍ أشد بأساً . وما دمي ودمك إلّا العصير يَغْذو شجرة الخُلْد . »

* * *

وحين تقضم التفّاحة بين أسنانك ، فناجِها قائلاً :

« لسوف تحيا بذورُك في جسدي ، وتُزهر براعِمُ غَدك في قلبي ، ويُصبح عبيرك أنفاسي ؛ فنَمْرَح معاً على كَرِّ الفصول . »

* * *

وفي الخريف متى أخذتَ في جَمْع العِنَب من كَرْمَتِك لتلقي به إلى المِعْصَرَة ، فناجِه قائلاً :

« وأنا أيضاً كَرْمَةٌ ثِمارها إلى جَمْعٍ مآله المِعْصَرة ، وكالخمرة الجديدة سأُحْفَظُ في قنانيِّ الخلود . »

وفي الشتاء حين تَرْتَشِفُ الخمر ، أدِرْ في قلبك لكل كأسٍ أغنية ، واجعل في الأغنية ذِكْرى للخَريف ، وأخرى للكَرْمَة ، وللمِعْصَرة .

* * *

وعِنْدَ ذاكَ قال فلاحٌ : حدِّثنا عن

العمل

قال المصطفى :

أنت تعمل كي تُلاحِقَ الأرض وتُقارِبَ [٢] سِرَّها . فمن تَوانى صار غريباً عن مواقيتها ، خارجاً عن موكب الحياة ، وهو يمضي في وَقار واستسلام شامخٍ نحو الخلود .

وأنت – حين تعمل – مِزْمارٌ ، تتحوَّل هَمَسات الدَّهْرِ في جَوْفِهِ إلى أنغام .

---

(١) النير : الخشبة المعترضة فوق عنقي الثورين لجر المحراث وغيره ، والمراد : الحِمْل الثقيل .

(٢) تقارب : تُداني وتدرك .

ومن منكم يودُّ لو يصبح قَصَبَةً خَرْساء صَمّاء ، على حين الكائنات حوله تغنّي في ائتلاف ؟

* * *

وما أكثر ما سمعتم أن العمل لَعْنَةٌ على العاملين ، وأن الكدَّ عَثْرةُ حَظٍّ !

وعندي أنكم حين تعملون ، تُحقّقون للأرض بعض حُلمِها المتَباعِد ، وقد كان من نصيبكم يوم وُلد . وحين تمضون في العمل تُمارِسون في الحقّ حبَّ الحياة ، وحبُّ الحياة عن طريق العمل يَتَوَغَّل إلى أدقِّ أسرار الحياة . أمّا إذا خِلْتُم – ساعةَ تضيقون بالحياة فَتَألّمون – أن مولدكم مأساة ، وأن تَلْبِيَةَ مطالب الجسد لعْنَةٌ كُتِبَتْ على الجَبين ، فإني أقول لكم : هيهات أن يمحو ما سُطِّر على الجبين إلّا حبّاتُ العَرَق .

* * *

ولقد نُبِّئتُم أيضاً أن الحياة ظلام ، حتى أصبحتم تردِّدون من فرط التَّعب ما يقوله المتْعَبون . ولَعَمْري إن الحياة ظلامٌ إلّا إذا صاحبها الحافز ، وكل حافز ضَرير إلّا إذا اقترن بالمعرفة ، وكل معرفة هَباء ، إلّا إذا رافقها العمل ، وكل عمل خَواء ، إلّا إذا امتزج بالحبّ ؛ فإذا امتزج عملُك بالحبِّ فقد وصلتَ نفسَكَ بنفسك ، وبالناس وبالله .

* * *

وما يكون العمل الممزوج بالحبّ ؟

هو أن تَنْسج الثَّوب بخيوط مَسْلولةٍ من قلبك ، كما لو كان هذا الثوب سيرتديه من تُحِبُّ .

هو أن تبني داراً والوَجْدُ [١] رائِدُك ، كما لو كانت هذه الدّار ستَضمُّ مَنْ تُحِبُّ .

هو أن تنثر البذورَ في حَنان ، وتجمعَ حَصادَكَ في فَرَحٍ ، كما لو كانت الثِّمارُ سيأكلها مَنْ تُحِبُّ .

هو أن تنفح [٢] كلَّ ما تصنعه يداك بنَسْمَةَ من روحك ، وأن تُدرك أن كلَّ أعزّائك الراحلين قد التفّوا حولك يُراقبون .

وما أكثرَ ما سمعتُكم تقولون ، وكأن القولَ حديثُ مَنام :

« إن المثّال الذي يُشكّل الرُّخام ، ويُسوّي الحجَر على صورته لأنْبَلُ مِمَّن يحرث الأرض .

« وإن الرَّسّام الذي يلتقط ألوان « قَوْس قُزَح » ويُسوّي منها على لوحته ملامح الإنسان لأعظمُ من صانع النِّعال .»

أمّا أنا فأقولها في كامل يَقَظتي ، في رائعة النَّهار : إنّ الرِّياح لا تُسِرُّ إلى السِّنْدِيانة الضَّخْمَة بهَمَسات أرقّ من تلك التي تُسِرُّ بها إلى أهْوَن حشائش الأرض . إنما العظيم مَنْ يَرُدُّ صوتَ الرِّياح أغنية ، يَزِيدُها حبُّه عُذوبة .

* * *

العمل حبٌّ تَجسَّمَ للعيون . فإذا كنت تعمل وحَليفُكَ النُّفورُ لا الحبُّ ، فخَيْرٌ لك أن تهجُر العمل ، فتقعدَ على باب المعبد تتلقّى الصَّدقات مِمّن يعملون في ابتهاج ؛ لأنك إذا خبزت العيش سادراً [٣] فأنت إذاً تهيِّئ خبزاً مُرًّا ، لا يَسدُّ من جوع الإنسان إلّا بعضه .

وإذا أنت عَصَرْتَ الكَرْمَ مُتبَرِّمًا ، فسوف يَتَقاطَرُ تبرُّمك في الخمر سُمًّا .

وإذا شَدَوْتَ – ولو شَدْو الملائكة – دون أن تحبَّ ما تَشْدو ، فأنت إذاً تصدُّ صوت النهار وصوت الليل عن آذان البشر ، بما تصبُّه فيها من وَقْرٍ .[٤]

* * *

وهنالك قالت امرأة : حدِّثنا عن

الحزن والفرح

قال المصطفى :

(١) الوَجد : هنا بمعنى الحب . (٢) تنفح : تُعطي .

(٣) سادراً : بغير اهتمام . (٤) الوقر : الثقل والصمم .

إنما فرحُكم حُزْنكُم رُفِعَ عن وجهه القِناع . وما أكثر ما تمتلئ البئر التي تستقون منها ضحكاتكم بفَيْضِ دموعكم .

وكيف يكون الأمر غيرَ ذلك ؟ فعلى قدر ما يغوص الحزنُ في أعماقكم يزيد ما تَستَوْعِبون من فَرَح .

أ ليست الكأس التي تحمل خمرَكم هي هي الكأس التي احترقت في أتون [١] الفَخّاريّ ؟

أ ليست القيثارة التي تَسكُنُ لها نفوسكم هي هي قطعة الخَشَب التي حَفَرَتْها سكّين ؟

وحين يَستَخِفُّك الفرح ، اِرجع إلى أعماق قلبك ، فترى أنك في الحقيقة تفرح بما كان يوماً مَصْدَرَ حزنك .

وحين يَغْمُرك الحزن تأمّل قلبك من جديد ، فسترى أنك في الحقيقة تَبكي مما كان يوماً مصدر بَهْجَتِك .

* * *

يقول بعض الناس : « الفرح أسمى من الحزن .» ويقول آخرون : « إنما الحزن أسمى .» ولكني أقول لكم إنهما لا يَنْفَصِلان . معاً يُقْبِلان ، وإذا انفرد أحدُهما بك على المائدة ، فاذكر أن الآخر يَرْقُدُ في فِراشِك .

ولَعَمْري إنكم لَمُعلّقون مثل كِفّتي الميزان بين أحزانكم وأفراحكم . ويوم تَفْرَغُ منكم النفوس تَثْبُتُ حالُكم ؛ إذ تتساوى الكِفّتان .

وحين ترفعك يدُ الوَزّان الأعلى لتَزِنَ فيك ما له من ذهب وفِضّة ، فلا مَفَرّ من أن تَثْقُلَ موازينُ فرحكم وحزنكم أو تخفّ .

* * *

وعند ذلك تقدّم إليه بنّاء ، وقال : حدِّثنا عن

(١) الأتون : الموقد الكبير .

البيوت

فقال المصطفى :

لِتَبْنِ بخيالك خَميلة في الخلاء ، قبل أن تقيم داراً بين أسوار المدينة ؛ فكما تعود إلى دارك مع الغَسَق كل مساء ، كذلك الهائم فيك يئوب من أُفُقِه البعيد الوحيد .

إن بيتك هو جسدك الأكبر ، ينمو في رِحاب الشّمس ، ويغفو في هَدْأة الليل ، ولا تخلو رَقْدَتُه من الأحلام .

أ فلا يحلمُ بيتُك ؟ ومتى حلم ، أ فلا يهجر المدينة إلى الخَميلة أو إلى قُنّة [٢] الجبل ؟

* * *

ليتني أستطيع أن أجمع بيوتكم كلها في يدي ، فأنثرها كما ينثر الزّارع حَبّهُ بين السّهل والغابة .

تمنّيتُ لو أن طُرقاتكم أودية ، ومسالِككم مُروج خُضْر ، فيسعى كل منكم بين الكُروم إلى صاحبه ، وتعودوا وقد عَلِقَ عبيرُ الأرض بثيابكم .

ولكن لم يَحِنْ أوان ذلك بعد ؛ فقد تملّك الخوفُ قلوبَ أجدادكم ؛ فحَشَدوكم وشَدّوا بعضكم إلى بعض . ولَيَبْقَيَنّ هذا الخوف إلى حين ، و إلى حين ستبقى أسوارُ مدينتكم حَوائِلَ بين بيوتكم وحقولكم .

أ لا حدِّثوني يا أهل أورفاليس : أي شيء يَعْمُرُ هذي البيوت؟ وما الذي تحرسونه بأبوابكم الموصَدَة؟

أ عندكم الأمان ، ذلك الحافز الوادع يَنِم على قوّتكم ؟ أم ذكريَاتٌ ، تلك الأحناء الواهِجَة التي تُعْقَدُ بين ذُرَى الأفكار ؟ أم عندكم الجمالُ يسمو بقلوبكم من أُفُق الأشياء التي سُوِّيت من خَشَبٍ وحَجَرٍ إلى الجبل المقدّس ؟

خبِّروني ، أ تعمرُ هذي الأشياءُ بيوتكم ؟ أم أنكم لا تملكون في رِحابها إلّا النّعيم والطّمع فيه ؟

تلك الصّبْوة التي تتسلّل خِفيَةً إلى بيوتكم ، تنزل ضيفاً ، ثم تُصبح مُضيفاً ، فَسَيِّداً ، ثم تنقلب مروّضاً

(٢) قُنّة الجبل : أعلاه .

يُحرِّك الأنْشوطَة [1] والسَّوط ، فيجعل أمانيّكم العِراضَ ألاعيبَ في يديه .

أجَلْ ، وإن لعب بيدٍ ناعِمَة ، فله قلب من حديد. يُهَدْهِدكم حتى تناموا ، وليس له من مآرب إلّا أن يقف بجوار فراشكم ، هازئًا بحُرْمَة أجسادكم ، ثم يَسْخَر من حواسكم الرَّشيدة ، ويُلقي بها ، كأنها هَشُّ الأواني بين الأشواك الجارِحَة . لَعَمْري إن الصَّبْوة إلى النَّعيم تطفئ جَذوة الرّوح ، ثم تسير ساخرة في جِنازتها .

* * *

أمّا أنتم يا أبناء الفَضاءِ الذين لا تطمئِنّون حين تَحِلُّ الطُّمأنينة ، فإنكم لن تقعوا في الشَّرَك ، ولن يُجْدي معكم ترويض ، ولن تكون بيوتكم أبداً مَرْساةً بل ستبقى سارِيَة ، ولن تكون غِشاء برّاقًا يستر جُرْحًا ، بل جَفْنًا يَحْرس العين ، ولن تطووا أجنحتكم لتمروا من الأبواب ، أو تحنوا رءوسكم خَشيةَ أن تصطدم بالسَّقف ، أو تُمسكوا أنفاسكم خَشية أن تتصدَّع الجدْران وتَهْوي .

لا ، لن تقطنوا قبوراً شيَّدها الموتى للأحياء . ولتَبْقَينَّ بيوتكم ، على الرغم من جَلالها وبَهائها ، أعجز من أن تحفظ سِرَّكم أو تأوي حَنينكم ؛ فإن غير المحدود فيكم يقطُن في « مملكة السَّماء » ، بابها ضَباب الصَّباح ، ونوافذها أناشيد الليل وسكناته.

* * *

وقال النَّسّاج : حدِّثنا عن

الثِّياب

فأجابه المصطفى :

إن ثيابكم تحجُب من جمالكم الكثير ، ولا تُخْفي ما قَبُحَ فيكم . وإنكم ، وإن تَنْشدوا في الثياب حُرِّية الخَلوة بأنفسكم ، لتجدون فيها غُلًّا وقيداً . ليتكم تستطيعون أن تستقبلوا الشَّمس والرِّياح بمزيد من جِلْدِكم وقليل من مَلْبَسِكم ؛ فإن أنفاس الحياة تَكْمُنُ في أشعَّة الشَّمس ، ويَدُ الحياة تجري مع الرِّياح .

* * *

يقول بعضُكم : « إن الثِّياب التي نَرْتَديها نَسَجَتها ريحُ الشَّمال . » ،

وأنا أقول : أجلْ كانت ريح الشَّمال ، ولكنها نسجتها بنوْل من الخَجَل ، وأوتارٍ من العَضَل الواهن . وما إن فَرَغَتْ منها حتى انطلقت ضاحكة في الغابة.

فلا تنسَوْا أن الاحتشام دِرْعٌ يقيكم من نظرات أهل الدَّنَس ، فإذا زال الدَّنس فأي شيء يبقى من الاحتشام ، سوى أنه كان قيداً ومَفْسَدَةً للعقل ؟

ولا تَنْسَوْا أن الأرض تهتزُّ لِمَسِّ أقدامكم العارية ، وأن الرياح تَحِنُّ إلى مُداعَبَة شُعوركم المُرْسَلَة .

* * *

وقال تاجر : حدِّثنا عن

البيع والشِّراء

فقال المصطفى :

إن الأرض تؤتيكمْ ثمارَها فتكفيكم الحاجة ، لو عرفتم كيف تملأون منها أيديكم . فإن أنتم تبادلتم نِعَمَها نِلْتم الرَّخاء ، وطابت بذلك نفوسُكم ، فإن لم يجرِ بينكم التَّبادلُ بالحبِّ والعدل الرَّفيق، شَرِهَت فيكم نفوسٌ وجاعَت أخرى .

* * *

وأنتم أيها الكادِحون في البحار ، وفي الحقول ، وفي الكروم ، حين تَلْقَوْن في السّوق النَّسّاجين والخَزّافين وتُجّار التَّوابل : ابتهلوا إلى روح الأرض الوهّابة أن تحلَّ في وسطكم ، وتبارك موازينكم ومعاملاتكم ، مِثْقالاً بمِثْقال ، ولا تسمحوا لأصحاب اليد الشَّحيحة أن يشتركوا في مُعامَلاتكم ، فيبيعوكم أقوالاً بأعمال . وقولوا لأمثال هؤلاء :

« تعالوا معنا إلى الحقول ، أو امضوا مع إخواننا

(١) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها .

إلى عُرْضِ البحر فألقوا شِباكَكم ؛ إن سخاء الأرض والبحر سيَفيضُ عليكم مثلما يفيض علينا .»

* * *

فإذا وافاكم هنالك المغنّون والرّاقصون والزّامرون فاقتَنوا أيضاً مما يُتحِفُون ؛ لأنهم مثلُكم يجمعون ثِماراً وبخوراً .

ولئن كان ما يحملونه إليكم نَسيج أحلام ، لَهو الكِساء لأرواحكم والغذاء .

* * *

وقبل أن تغادروا السّوق ، احرصوا على ألا يتركها أحد صِفْرَ اليَدَيْن ؛ فإن روح الأرض لن يتوسَّد سمُوُّها جناحَ الريح هادئًا حتى ينالَ أدناكم ما يكفيه .

* * *

وانبرى عندئذ قاضٍ من قُضاة المدينة ، وقال : حدّثنا عن

الجريمة والعقاب

فقال المصطفى :

حين تنطلق أرواحكم هائمة فوق الرِّياح ، هنالك تَخلون بأنفسكم ولا رَقيب ، فتُخطئون في حَقّ الناس وفي حَقّ أنفسكم .

ولن تُكَفِّروا عن هذه الخطيئة إلّا إذا طَرقتم باب أهل النّعيم ، وصبرتم إلى حين لا يحْفِلُ بكم أحد .

* * *

إن ذاتكم النّورانيّة لكالبحر المحيط ؛ إلى الأبد تظلُّ نقيّة ، وكالأثير لا تَرْفع إلّا ذا الجناح .

بل هي كالشّمس ، ذاتكم النّورانيّة ؛ لا تعرف مسارِبَ [١] الخُلْد [٢] ، ولا تسعى إلى جحور الأفعى ،

ولكن هذه الذاتَ النّورانيّةَ لا تقيمُ وحدها في كيانكم .

فَقَدْرٌ كبير فيكم لا يزال إنسيًّا ، وقَدْرٌ كبير لم يُصبح بعد إنسيًّا ، إنما هو مَسْخٌ لا شَكْلَ له ، يسير غافياً في الغمام ، باحثًا عن يقظة نفسه .

فلأحَدِّثَنَّكم عن الإنسيِّ فيكم :

إنه هو وحده – لا ذاتكم النّورانيّة ، ولا المسخُ الهائمُ في الغَمام – يعرف الجريمة والعقاب .

ما أكثر ما سمعتُكم تتحدّثون عن أحدٍ أذْنَبَ كأنه ليس منكم ، بل غريب عنكم ، دخيل على دنياكم .

أمّا أنا فأقول إن التّقيَّ أو الصّالح لا يمكنه أن يَتسامى على أرفع ما يكونُ في نفس كلٍّ منكم ، وكذلك الخبيث أو الضعيف ، لا يمكنه أن يهبط دون ما هو فيكم أيضاً .

وكما أن ورقة الشجرة لا تَصْفَرُّ إلّا بعِلْم كامِن من الشّجرة كلّها ، كذلك المخطئ لا يأتي الخطيئة إلّا بإرادة مُسْتَتِرَة منكم جميعاً .

كأنكم في موكب تمشون ، تنشدون ذاتكم النورانيّة ؛ ذلك أنكم السّبيل ، وأنتم أيضاً سالِكوه .

ولئن سقط أحدكم ، سقط من أجل من يسيرون خلفه ، فيكونُ نذيراً لهم يُجنّبهم حجر العَثْرَة .

أجَلْ ، إنه ليسقط أيضاً من أجل من تقدّموه ، أولئك الذين لم يطرحوا الحجَر ، وإن كانوا أشدَّ منه سرعة وأثبتَ قَدَماً .

* * *

وأقول لكم أيضاً ، وإن ثَقُلَتْ كلماتي على قلوبكم :

إن القتيل ليس بريئاً من جَرِيرة [٣] مقتله ، والمسروق لا يَسْلَمُ من اللّوْم على ما سُرِق منه .

والصّالح لا يخلو من الذّنب على ما أتاه الأشرار ، وطاهر اليَد لا ينجو من رِجْس [٤] الأثيم .

أجلْ ، كثيراً ما يكون الجاني ضحيّة المجني

(١) مسارب : جمع مَسْرب ، وهو مكان السُّروب بمعنى الخروج . (٢) الخُلْد : الفأرة العمياء .

(٣) الجريرة : الجناية والذنب . (٤) الرجس : الفِعْل القَبيح .

عليه . وما أكثر ما تنزل العقوبة بمن يحمل أوزار من بَرِيءٍ من الذّنب واللَّوْم ! فإنك لا تستطيع أن تُفرِّق بين العادل والظالم ، ولا بين الخيِّر والشِّرِّير ؛ يقفان معاً في وجه الشمس ، كما يتشابك الخيط الأسود والخيط الأبيض لُحْمَةً وسَدى .[١] فإذا انقطع الخيطُ الأسود اختبر النسّاجُ المنسوجَ كُلَّه ، واختبر أيضاً مجرى النّوْل .

* * *

وإنْ أحدُكم ساق إلى ساحة القضاء زوجةً خائنة، فليضع قلبَ زوجها أيضاً في الميزان ، وليَسْبُرْ[٢] روحَه بالمقاييس .

ومن أراد منكم أن يَجْلِدَ الجاني فليمتحن سَريرة المجني عليه .

وإذا شاء أحدُكم أن يُنزل العقاب باسم الفضيلة، ويولج حَدَّ السكّين في شجرة الإثم ، فليتأمل جذورها ؛ سوف يرى جذور الخير والشرّ ، والمُثمِر والمُجْدِب ، مُتَشابِكَةً في قلب الأرض السّاكن .

وأنتم أيها القضاة ، يا من يَنْشُدون العَدالة ، أيَّ حكم تصدرون على من بَرِيءٍ جسدُه وأثِمَتْ سَريرته ؟

وأي جزاء هذا الذي تُنزلونه بمن ذَبَحَ جسداً ، وهو نفسه ذبيح السِّريرة ؟

وكيف تقاضون من تَتَّسِمُ فَعالُه بالخَديعة والعُدْوان ، وهو نفسه قد حلَّ به ظلم وانْتُهِكَت عنده حُرُمات ؟

* * *

وكيف تُعاقبون من فاقَ ندمُهم ما قدّمت أيديهم من سوء ؟

أ ليس النّدَم هو العدالة يقيمها هذا القانون نفسه، الذي يطيب لكم أن تكونوا من سَدَنته ؟[٣]

على أنكم لا تستطيعون بَعْدُ أن تفرضوا النّدم على البريء ، ولا أن تَنْزِعوه من قلب المذْنِب . بلا استئذان يهتف بالليل ، فيوقظ الخَلق ليتفحّصوا طَواياهم .

وأنتم يا من تتحرّون العدالة ، كيف يتأتّى لكم ذلك ، ما لم تتدبّروا الأفعال كلها في وضَح النّور ؟ هنالك فحَسْب تتبيَّنون أن الناهض والساقط ليسا إلّا شخصاً واحداً يقفُ في السَّحَر بين ليلٍ من ذاته الممسوخة ونهار من ذاتِه النورانيّة ، وأن حَجَر الزّاوية في المعبد ليس أسمى من أدْنى حجر في الأساس .

* * *

وهنا قال له مُحامٍ : وما الرأي أيها المعلم في

قوانيننا

فقال المصطفى :

إنكم لتَبْتَهجون حين تَسُنّون القوانين ، ولكِنْ يزيدُ ابتهاجكم حين تخرجون عليها . كالصِّبْيَة يلعبون على شاطئ المحيط ، فيقيمون في مُثابَرة من الرمال بُروجاً ، ثم يقوِّضون أركانها ضاحكين .

ولكنكم حين تُقيمونها يأتي المحيط بمزيد من الرِّمال إلى الشاطئ ؛ وإذ تهدمونها يُشارككم المحيطُ ضحكاتكم . ولعَمْري إن المحيط يُشارك البريء ضحكاته أبداً .

* * *

ولكن ما يكون شأن أولئك الذين لا يرَون الحياة محيطاً ، ولا القوانين التي وضعها البشر بروجاً من رمال ؟

وما يكون شأنُ المُقْعَد وهو على الراقصين حاقد ، وشأن الثّور يعشق نِيرَه ، ويخال ظَبي الغاب ووَعْلها[٤] في شُرود وتيهٍ ؟

وشأن الأفعى شاخَت وعجزت عن أن تنزع جِلْدَها ؛ فرَمَت كل من عداها بالعُرْي وخَلْع الحياء ؟

---

(١) اللُّحمة : خيوط النسيج العرضية التي تلحم بالسَّدى ، وهو الخيوط التي تُمد طولاً . (٢) يَسْبُر : يَقيسُ الغَوْرَ .

(٣) السَّدنة : جمع سادِن ، وهو الخادم في مكان مقدس .

(٤) الوعل : تيس الجبل .

وما يكون شأن من يأتي إلى وَليمة عُرْسٍ مُبكّراً ، حتى إذا تَخِمَ مضى قائلاً إن جميع الولائم إثم ، وإنّ كل من يشتركون فيها مُذنبون ؟

* * *

ماذا أقول في هؤلاء ، سوى إنهم واقفون كغيرهم في وضَح النهار ، ولكنهم ولّوا ظهورهم للشمس ؟ فلا يَرَوْن إلّا ظلالهم ، وما ظلالُهم إلّا شرائعُهم . وهيهات أن يروا في الشمس إلّا مصدراً للظلال ! وهل يكون الاعتراف بالقوانين عندهم إلّا الانحناء لها وترسُّم ظلالها على الأرض ؟

أما أنتم يا من تواجهون الشمس في مَسيرتكم ، فهيهات أن تُقَيِّدكم صورٌ رُسِمتَ على الأرض !

وأنتم يا من ترحلون مع الرّياح ، هيهات أن تَهْدي خُطاكم « دوّارةُ » الريح !

ولن يقيِّدكم نيرُ الناموس متى حطّمتم قيودَ قانون وضَعَه البَشَر ليغلّ [1] البشر .

امرحوا ما شئتم ؛ فلا خوف عليكم من النّاموس ما دُمتّم لا تتعثّرون بالأغلال .

ومن ذا الذي يسوقكم إلى ساحة القضاء إذا نزعتم ثيابكم ، ولم تُلقوا بها في طريق سواكم ؟

* * *

يا أبناء أورفاليس ، إنكم لتستطيعون أن تكتموا صوت الطُّبول وترخُوا أوتار القيثار ، ولكن مَنْ منكم له أن يأمر البلبل أن يكفّ عن التّغريد ؟

* * *

وقال خطيب : حدِّثنا عن

الحرِّية

فقال المصطفى :

لقد رأيتكم تَخِرّون سُجّداً ، وتُجِلُّون حريّتكم عند أبواب المدينة ، وفي ركن المصْطَلَى [2] من بيوتكم ، كشأن العبيد ، يُذلّون أنفسهم أمام الطّاغية ، ويُسبِّحون بحمده ، مع أنه جَلّادُهم .

أجلْ ، لقد رأيت في ساحة المعبد ، وفي ظلّ القلعة أشَدَّكم تحمُّساً للحرية ، يضعون حريتهم في أعناقهم كالنّير ، وفي الرُّسْغَيْن كالقيد .

وأخذ قلبي يَقْطُرُ دماً بين جَوانحي ؛ فلن تكونوا أحراراً إلّا حين تُصبح رغبتُكم إلى الحرية غير مُهَيْمِنَة عليكم ، وتَكُفّوا عن أن تتحدّثوا عن الحرية هدفاً ومَغْنماً تَنْشُدونه .

* * *

ولَعَمْري إنكم لَبالغوها إذا ما مضت أيامكم دون شاغل ، ومضت لياليكم دون حاجة أو همّ . وإنكم لبالغوها حقًّا إذا ما أحدَقَت بكم الهموم فسَمَوْتم عليها ، نافِضين لها ، منطَلِقين من قيودها .

* * *

وهيهات أن تَسموا فوق هذه الأيام وهاتيكَ الليالي ، إلّا إذا حَطّمتم الأغلال التي وُلِدَتْ مع فَجْرِ يقظتكم ، وكبّلتكم بها شمسَ حياتكم !

والحقُّ إن ما تُسَمّونه الحرية لَهو أشدُّ ما تَرْسُفون [3] فيه من هذه الأغلال ، وإن كانت حَلَقاتها تَلْمَعُ في الشمس فيخطف بريقُها أبصارَكم .

* * *

وهل هذا الغُلُّ الشديد إلّا بَضْعَة من نفسك ، تريد أن ترفعها عن كاهلك حتى تصبح حرًّا ؟ فإذا كانَتْ قانوناً جائراً تودُّ أن تُبطله ، فإنك أنت الذي سطّرته بيدك على جبينك ، وهيهات أن تمحوه بأن تُحرِّقَ كتب القوانين التي سطّرتها يداك ، ولا بأن تغسل جِباهَ القُضاة من حولك ، ولو غَمَرْتهم بمياه البحر !

وإذا كانَتْ طاغية تريد أن تَثُلّ [4] عرشه ، فاستوثق

---

(١) يغُل : يضع القيد في الأعناق أو في الأيدي .

(٢) المصطلى : المِدفأة .

(٣) رسف في القيد : مشى فيه رويداً .

(٤) تثل عرشه : تذهب سلطانه .

أوّلاً أنْ قد تحطّم العَرْش الذي أقمته له في نفسك ؛ فهل لطاغية أن يَحكُم الأحرار والأعزّة إلّا إذا شابَ حريّتهم الاستبدادُ ، وخالط عزّتهم العارُ ؟

وإذا كانَتْ هَمًّا تودُّ أن تخلص منه ، فإنك أنت الذي اخترته لنفسك ، ولم يفرضه عليك أحد . وإذا كانَتْ خَوْفًا تودُّ أن تُبَدِّده ، فإنه يَتَربّعُ في قلبك أنت ، وليس زِمامُه في يد من تخاف .

* * *

ولَعَمْري إن الأمور جميعاً ، مَرْغوبةً أو مَرْهوبةً ، مَمْقوتةً أو محبوبةً ، مطلوبةً أو مَرْذولةً – تتحرّك كلها في أعماق وجودك ، حيث تكاد تَتَعانَقُ أبداً .

أجلْ إنها تتحرّك في طَوايا نفسك ، كما يتحرّك الضّوءُ وظلّه ، زوجيْن متلازِمَيْن . وعندما يخف الظلُّ ويتلاشى ، فإن الضوء الخافت يُصْبح ظِلًّا لضوء جديد.

وهكذا تكون حريتكم ، ما إن تخلص من أغلالها حتى تَغْدو هي نفسها قيداً لحرية أعظم .

* * *

وعادت الكاهنة إلى الكلام قائلة : حدِّثنا عن

العقل والعاطفة

فقال المصطفى :

ما أكثر ما تكون نفوسُكم ساحةَ قتال ، تَشُنُّه عقولكم ونُهاكم [١] على عواطفكم وشهواتكم !

وإني لأتمنى أن أحلَّ في نفوسكم صانعَ سَلام ، فأشيعَ الوحْدَة بين عناصركم المتنافِرَة ، وأردَّ تنافسَها إلى وِئام وتوافق أنغام . ولكن هيهات أن يُتاح لي ذلك إلّا إذا كنتم أنتم أنفسكم صُنّاع سلام ، بل عشاقًا لجملة عناصركم .

* * *

إن عقولكم ونُهاكم هي الدّفّة والشّراع لأرواحكم السارِحَةِ في البحار ، فإذا تحطّمت الدّفة أو تمزّق الشّراع ، تقاذَفَتْها الأمواجُ فضلّت ، أو توقّفت بلا حَراك في وسط البحر .

فالعقل إذا سيطر وَحْدَهُ باتَ قُوَّةً تقيِّدكم ؛ والعاطفة إذا تُركت وشأنها غَدَتْ لهيباً يتلظّى حتى تَبيد ؛ فدع روحَك تحلّق بعقلك إلى أسمى العواطف ، حتى تَصْدحَ بالنّغم . ودعها تَهدي عاطفتك بالحِجا [٢] ؛ فالعاطفة يُهَذّبها كلُّ يوم بعثٌ ، فتكون كالعَنْقاء [٣] تحرق نفسها ثم تنهض من بين الرماد .

وليتكم تنظرون إلى نُهاكم وشَهواتكم نظرتكم إلى ضَيْفَيْن عزيزين حلّا بداركم . يقيناً إنكم لن تُؤْثروا أحدَهما على الآخر ؛ فإنكم إن أسْرَفتم في العناية بأحدهما فَقَدْتُم حُبَّ الاثنين وثقتَهما .

* * *

وإذا جلستَ بين التّلال في ظلٍّ لأشجار الحور البيض ظَليلٍ ، وشاركت ما تَرامى من الحقول والمروج هَدْأتها وصفاءها ، فدع قلبك يُردد في سكون : « إن روح الله تسكن في العقل .»

وإذا هَبّت العاصِفَةُ ، وهزّت الرّيحُ العاتِيَةُ أرجاءَ الغابة ، وأفصَحَ الرَّعْدُ والبَرْقُ عن جلال السّماء ، فدع قلبك يُردِّد في خَشْيَة : « إن روح الله تَموج في العاطفة .» .

وتحدثت امرأة قائلة : حدِّثنا عن

الألم

فقال المصطفى :

إن الألم الذي بكم ، هو أن يَتَفَتّق السّتْر الذي يحيط بإدراككم . وكما أن نواة الثمرة تتفتّق

(١) النُّهى جمع نهية ، ومعناها العقل وسمي بها لأنه ينهى عن القبيح وعن كل ما ينافي العقل .

(٢) الحجا : العقل .

(٣) يشير إلى أسطورة قديمة تقول إن العنقاء لما كبرت وأسنّت صنعت لها عشا وضعت فيه لقاحها وغطته بالأغصان الرّخصة ، ثم أشعلت فيه النار وماتت محترقة فخرج من بين الرماد طائر جديد يحمل صفات الطائر الأول .

لتكشف قلبها للشمس ، كذلك الألم لا مَناصَ لكم من أن تَخْبُروه .

ولو استطعتَ أن تجعل قلبك يَتَهَلَّلُ دائماً للعجائب التي تَتَكَشَّف لك كل يوم ، لرأيت أن آلامك لا تَقِلُّ رَوْعَةً عن أفراحك ؛ ولَرضيتَ بالأطوار التي تنتابُ قلبك ، كما ترضى دائماً بالفصول تتعاقَب على حقلك ، ولَوَقَفْتَ رابِطَ الجأش ، تَرَقُّبُ شتاءَ أحزانك .

* * *

إنما أنت الذي اخترت أكثر آلامك . إنها الدواء المرّ ، به يُداوي مرضَك طبيبٌ خَفيٌّ في نفسك ؛ فَلْتَثِقَنَّ إذاً بالطبيب ، وتجرَّعْ دواءه في صَمْتٍ وطُمأنينة ، فإن يده ، وإن بدت ثقيلةً خَشِنة ، لَتَهديها يدٌ حانيةٌ لا يُرى صاحبُها الأعلى . والكأس التي جلَبها ، وإن أحرقت شفتيك ، قد صُنِعَتْ من طين مَزَجَه الخزّاف الأعلى بدموعه المقدّسة .

* * *

وقال رجل : حدِّثنا عن

معْرِفة النّفْس

فقال المصطفى :

إن قلوبكم في صَمْتٍ تُدرك أسرارَ الأيام والليالي ، ولكن آذانكم تتعطَّش إلى صوت المعرفة ينبعث من قلوبكم . وكم تتمنَّون أن تعرفوا باللَّفْظ ما عرفتموه دائماً بالفِكْر ، وأن تلمسوا بأصابعكم العُرْيَ في مُجَسَّدات أحلامكم .

ونِعْمَ ما تُريدون ؛ فلا بدَّ أن يفيض اليَنْبوعُ المحجوب في نفوسكم ، وأن ينطلق هامساً إلى البحر ، وأن يَتَكشَّف لأبصاركم الكَنْزُ المنطوي في أغوار لا تنتهي في نفوسكم السَّرْمَدِيَّة .

ولكن حذارِ أن تَزِنوا بالموازين كنوزَكم الخافية ، أو تُدلو العِصِيَّ أو الحبال لتَسْبُروا أغوارَ معرفتكم فإن الذّات بَحْرٌ لا يُحَدُّ ولا يُقاس .

* * *

ولا تقلْ : « وجدتُ الحقيقة .»

بل قلْ : « وجدتُ بعض الحقيقة .»

ولا تقلْ : « اكتشفت سبيل الرّوح .»

بل قلْ : « وجدتُ الرّوح تسير في سبيلي .»

فإن الرّوح تسير في جميع السُّبُل ؛ لا تسير في خطٍّ مَرْسوم ، ولا تنمو كما تنمو القَصَبَة [١]، وإنما هي تتفتّح كزَهْرَة اللّوتس ، أكمامُها لا تُحْصَى .

* * *

وهنالك قال مُعَلِّم : حدِّثنا عن

التّعليم

فقال المصطفى :

لا يستطيع إنسان أن يَكْشِفَ لك عن شيء إلّا إذا كان غافياً في فَجْرِ مَعْرِفَتك . المعلّم الذي يمشي في ظلِّ المعبد بين مُريديه لا يُعطي من حِكْمَتِه ، بل من إيمانه ومحبّته ، فإن كان قد أُوتي الحكمة حقًّا ، فإنه لا يدعك تَلِجُ [٢] باب حِكْمته ، بل يقودك إلى عَتَبَةِ فكْرِك أنت .

والفَلَكيُّ قد يُحدِّثك عن إدراكه للفضاء ، ولكنه لن يستطيع أن يمنحك هذا الإدراك . والموسيقيّ قد يُنْشِد لك اللَّحْنَ الذي انتشر إيقاعه في أرجاء الفضاء ، ولكنه لن يستطيع أن يُعيرك الأذن التي تلتقط الإيقاع ، ولا الصَّوت الذي يُردِّده .

والعالِم المتَمكِّن من حساب الأعداد يستطيع أن يُحدِّثك عن مجالات الوزن والقياس ، ولكنه لن يستطيع أن يقود خُطاك إليها ؛ لأن بَصيرة هذا لا تُعير ذاك جناحَها .

وكما أن كلَّ واحد منكم قائمٌ بذاته في عِلْم الله ، كذلك يجب أن يكون كلٌّ منكم قائماً بذاته في عِلْمِهِ بالله ، وفَهْمِهِ أسرار الأرض .

(١) القصبة : كل أنبوبة في ساق الشجر تنتهي بعقدتين .

(٢) يلج : يَدْخُلُ .

* * *

وقال شابٌ : حدِّثنا عن

الصَّداقة

فقال المصطفى :

صديقك هو حاجَةٌ لك قُضِيت ، وهو حَقْلك تُلقي فيه البذور في حُبٍّ ، وتجني منه الثّمار في شُكر، وهو مائدة طعامك ومِدْفأتك ؛ لأنك تَسْعى إليه بجوعك ، وتَنْشُد عنده الطُّمأنينة .

* * *

وحين يُفضي إليك صديقُك بما يدور في نفسه لا تخشى أن تُصرِّح له بـ « لا » ، وأن تَضنَّ عليه بـ « نعم » . فإذا أمسَك عن الكلام ، ظلَّ قلبُك يُصغي إلى حديث قلبه ؛ ففي الصَّداقة تنبعث الأفكار والرَّغبات والأماني جميعاً بلا ألفاظ ، وتَشارَكُ [١] فيها النُّفوسُ وهي تَبْتَهجُ بلا زَهْوٍ أو إعجاب .

وإذا نَأيْتَ عن صديقك فلا يُصيبنَّك الأسى ؛ فلربما كان خيرُ ما تحبُّه فيه أوضح في غَيْبَتِه ، كذلك يزيد وضوحُ الجَبَل للمتَسَلِّق إذا رَمَقَهُ [٢] من الوادي.

وحَذارِ أن تجعل للصداقة هدفاً غير النّفاذ إلى الروح ؛ فإن الحب الذي لا يَنْشُد إلّا الكشف عن أسراره ليس حبًّا ، وإنما هو شَبَكَةٌ تُلْقى ، فلا تَلْقُطُ إلّا الغَثَّ [٣] الذي لا نَفْعَ فيه .

* * *

وادَّخِرْ لصديقك خير ما في نفسك ؛ فإذا حُقّ له أن يعرف ما يصيب حياتَك من جَزْرٍ ، فدَعْهُ يَعْلَمْ ما يَغْمُرُها من مَدٍّ .

وأيّ صديق هذا الذي لا تلتمسه إلّا لتُزْجي معه أوقات الفراغ ؟ فانشُد صديقك دائماً لتقضي معه أوقات الحياة ؛ فما وُجد الصَّديق ليملأ فراغ نفسك بل ليسدَّ حاجَتَك .

ولْتَمزِجَنَّ حلاوة الصَّداقة بالضَّحك والبهجَة المشْتَرَكَةَ ؛ ففي قَطْرِ النَّدَى الذي يُبَلِّل دَقائِقَ الأشْياءِ، يُطالع القلْبُ صباحَه ويَنْتَعِش .

* * *

وقال له عالِم : حدِّثنا عن

الكلام

فقال المصطفى :

إنكم تتكلّمون حين يَدبُّ الخصامُ بينكم وبين أفكاركم ، فإذا عجزتم عن أن تَخْلدوا إلى قلوبكم تعلّقت حياتُكم بشِفاهِكم ، وانطلقت أصواتكم تَسْلِيَةً وإزْجاءً للفراغ .

ومع أكثر كلامكم يَهْلِكُ نصفُ تفكيركم ؛ لأن الفِكْر من طَيْر الفضاء ، يستطيع أن ينشر في قَفَصِ الألفاظ جَناحَيْه ، ولكنه عاجز عن أن يطير .

* * *

ومنكم من يسعى إلى من يُثَرْثِرون ؛ خَشْيَةَ الخُلوِّ إلى نفسه ؛ لأن سكوت الوَحْدة يكشف لأعينهم خَفايا أنفسهم فيفرُّون .

ومنكم من يتحدَّثون ، فيكشفون بلا عِلْمٍ أو رَوِيَّة عن حقيقة تفوتُهم هم .

ومنكم من لَقِنوا [٤] الحقيقةَ في أعماقهم ، ولكنهم يأبَون أن يُفْصِحوا عنها بالكلام ، وفي صدر هؤلاء تقيم الروح في سكون تآلَفَت نَواحيه .

* * *

إذا لقيتَ صديقك في الطَّريق أو في السُّوق ، فَدَع الرّوح الكامِنَة فيك تُحرِّك شفتيك وتُوجِّه لسانك . ودع الصَّوت الهاتف وراء صوتك يتحدَّث إلى الأذن المصْغِيَة من وراء أذنه ؛ فإن روحه تحفظ حقيقة قلبك ، كما يحفظ اللِّسان مَذاقَ النَّبيذ يوم يُنْسَى لونُه وتُطْوَى كأسُه .

---

(١) تشارَكُ : أصلها : تتشاركُ .
(٢) رمقه : نظر إليه .
(٣) الغث : الرديء الفاسد .
(٤) لقِنَ : فهم .

* * *

وقال فلكيٌّ : أيها الهادي ، حدِّثنا عن

الزّمن

فقال المصطفى :

تَوَدّون أن تقيسوا الزّمن الذي لا يُقاس ولا يُحَدُّ ، وأن تُخْضِعوا سُلوككم لمقتضى السّاعات والفصول ، بل تستهدوا بها في منازع نفوسكم ، وأن تجعلوا من الزّمن جدولاً تجلسون على ضِفافه ، وتتأمّلون مَجْراه .

ولكن ما هو خالدٌ فيكم يُدْرِك أن الحياة لا يَحُدُّها زمان ، ويعلم أن الأمس ما هو إلّا ذاكِرَة اليوم ، وأن الغد ما هو إلّا حُلمه ، وأن ما يتغنّى فيكم ويَتَفَكَّر لا يزال يسكن في رِحاب اللّحظة الأولى ، تلك التي انتثَرت فيها النُّجوم في الفضاء .

فأيكم لا يُحِسُّ أن قدرته على الحبِّ لا تَعرفُ الحدود ؟ ولكن أيكم لا يشعر أن هذا الحبَّ نفسه ، وإنْ أفلَتَ من الحدود ، مَضْموم في صدر وجوده ، لا يَخْرج من فِكْرة حبٍّ إلى أخرى ، ولا من مَسْعَى حبٍّ إلى آخر ؟

أ ليس الزمن كالحبِّ نفسه ، لا ينقسم ولا يُقاس بالخُطى ؟

* * *

فإذا حَمَلَكم العقلُ على أن تقسّموا الزّمن إلى فصول ، فاجعلوا كلَّ فَصْلٍ يُحيط بالفصول الأخرى جميعاً ، ودعوا الحاضرَ يُعانقُ الماضِيَ بالذّكرى ، والغدَ بالحنين .

* * *

وقال شيخ من أهل المدينة : حدِّثنا عن

الخير والشّرّ

فقال المصطفى :

عن الخير فيكم أستطيعُ الحديثَ ، لا عن الشّرّ .

وهل الشّرُّ إلّا خيرٌ أضْناهُ ما كَمَنَ فيه من جوع وظَمأ ؟

لَعَمْري إن الخير إذا جاع التمس الطّعام ولو في الكهوف المظْلِمَة ، وإذا عَطِشَ رَوّى ظمأه ولو من الماء الآسِنِ .

* * *

أنت خَيِّر إذا ثَبتَّ على مبدأ واحد مع نفسك ، ولكنك لا تُصبح شِرّيراً إذا أنت لم تفعل ؛ فإن البيت المنقَسِم على نفسه ليس وَكْراً لِلُّصوص ، هو بيت مُنْقَسِمٌ على نفسه فحَسْبُ . وقد تهيم السَّفينة بلا دَفَّة شَريدَة بين الجُزُر المحفوفة بالمخاطر ، ولكنها لا تَهوي إلى القاع .

* * *

وأنت خَيِّر حين تَجِدُ في البَذْل من ذات نفسك ، ولكنك لا تغدو شِرّيراً حين تلتمس لنفسك الغُنْم ، وما مَثَلُك حين تسعى إلى الغُنم إلّا كمثل الجذور تتشبَّث بالأرض وترضع من ثدييها .

ولعمرْي إن الثمرة لا تستطيع أن تقول للجذور : « كوني مثلي ، ناضِجَة وافِيَة ، تَجودين دائماً بما أوتيت من خَيِّرات . » لأن العطاء عند الثّمرة حاجَة ، والأخذ عند الجذور حاجَةٌ أيضاً .

* * *

وأنت خيِّر حين تتحدَّث في كامل يَقَظَتِك ، ولكنك لا تكون شِرّيراً حين تَغْفو ، ولسانك يَتَعثَّر بلا هدف ؛ فلربمّا كان الحديثُ المتعثِّر مُعيناً لِلسانٍ عاجز .

* * *

وأنت خيِّر حين تمضي إلى غايتك ثابتاً جَرِيء الخُطَى ، ولكنك لا تكون شِرّيراً حين تمضي بخُطى عَرْجاء ؛ فإن الأعرج ، على عَرَجِه ، لا يعود إلى وراء . أما أنتم أيها الأقوياء السِّراع الخُطى ، فلا

تصطنعوا العَرَج أمام الأعرج ؛ رحمةً به وشَفَقَة .

* * *

إنك لخيِّرٌ في أمور لا تُحصى ولا تُعَدُّ ، ولكنك لا تكون شرّيراً حين يُجانِبُك الخير ؛ فما أنت إلّا كمن يَتَلكّأ ويَتَباطأ . ومِنْ أسَفٍ أن الظِّباء لا تستطيع أن تُعَلِّم السَّلاحِفَ الخفّةَ والسُّرْعَة .

* * *

إن الخيْرَ يكْمُن في شوقك إلى نفسك الشامِخَة ، وما مِنْ أحد منكم إلّا يُكابِدُ هذا الشّوق ، ولكنه في بعضكم كالسَّيْلِ المتَدَفّق ، يندفع بقوّة إلى البحر ، حاملاً أسرار التّلال وأناشيد الغاب . وفي بعضكم كالجَدْول الهادئ ، يَهيم في المُنْحَنياتِ والمُنْعَطَفات ، ويَتَرَيَّث قبل أن يبلغ الشاطئ .

ولكن حذار أن يقول من لجَّ [1] به الشّوق لمن قَلَّ شوقُه : « فيمَ تريثُك و وقوفك ؟» فإن الخيِّرَ حقًّا لا يقول للعُرْيان : « أين ثوبك ؟» ولا للشّريد : « ما الذي دَهَم بيتَك ؟»

* * *

وقالت كاهنة : حدِّثنا عن

الصلاة

فقال المصطفى :

أنتم تُصلّون إذا مَسّكُم ضُرٌّ أو أعْوَزَتْكم حاجَةٌ ، وليتكم تُصلّون أيضاً إذا غَمَرَ قلوبَكم الفَرَحُ وعَمَرَ أيامَكم الرّخاءُ .

* * *

وهل الصّلاة إلّا انطلاق الرّوح في الأثير الحيّ ؟ فإذا كنتم تَجدون الرّاحَةَ لِقُلوبكم حينَ تَصُبّون ظُلْمَةَ نُفوسِكم في القَضاءِ ، فلسوف تَسْتَشْعِرونَ المسرّةَ حينَ تَصُبّون فيه نورَ نفوسِكم فَتُشْرِق قُلوبكم .

وإذا كنتم لا تَتمالكون دموعَكم حين تُغْريكم أرواحُكم بالصّلاة ، فسوف تَحثُّكم عليها مرّة ثم أخرى على رَغْمِ بُكائكم ؛ حتى تأتوا إلى الصلاة مُتَهَلّلين ؛ فإن نفوسكم لَتَصْعَد حين تُصلّون ، لتلقى أرواح أولئك الذين يُصلّون في اللحظة نفسها ، وهيهات أن يَتمَّ لقاءٌ إلّا في الصلاة . فَلْتَحُجُّنَّ إذاً إلى هذا المعبد في خَفاء ، لا غايةَ لكم إلّا نشوةُ الوَجْد وحَلاوة الأُلْفَة ؛ لأنك إذا لم تدخل المعبَد إلّا سائلاً ، فلن تنال حاجَتَك .

وإن أنت لم تدخُله إلّا لإذلال نفسك ، فلن تَسْمو لك روحٌ ، وحتى إذا دخلته لِتَطْلُبَ الخَيْر لسِواك ، فلن يُنْصِتَ أحد لِندائك . وحَسْبُك أن تدخل المعبدَ في خَفاء .

* * *

وهيهات أن أعلّمكم كيف تُصلّون بكلمات تُردَّد ؛ فإن الله لا يَسْتَمِعُ إلى كلماتكم إلّا إذا أجْراها هو على شِفاهِكم .

وهيهات أن أعَلِّمَكم الصّلاة التي تُسَبِّح بها البحار والغابُ والجبال ؛ فإنكم أنتم يا أبناءَ البِحار والغاب والجبال لَتَسْتَطيعون أن تَلْتَمِسوها في قلوبكم. وحسبكم أن تُنْصتوا في هَدْأة اللّيل فتسمعوها تُردَّد في سكون :

« ربَّنا ، يا روحَنا ، تُرَفْرِف علينا من سمائك . إن إرادتك الماثِلَة فينا هي التي تُريد ، ورَغْبتك الماثِلَة فينا هي التي تَرْغَبُ ، والحافز الذي نَفَحْتَ أعماقنا به هو الذي يُحوِّل لَيْلَنا – وهو لَيْلُكَ – إلى نهار هو أيضاً لك .

« ربَّنا إنا لا نسألك شيئاً ؛ فإنك تَعْرِفُ حاجَتَنا قبل أن تُولَد فينا . ولأنْتَ حاجَتُنا ، ولئن زِدْتَنا عَطاءً من ذاتك ، لقد أعطيتنا كل شيء .» .

* * *

وهنالك تَقَدَّمَ إليه ناسِكٌ كان يزور المدينة مرّة في كل عام ، وقال : حدِّثنا عن

---

(١) لجّ به : تمادى .

المتعة

فقال المصطفى :

المتعة أنشودةُ حُرِّيَّةٍ ، ولكنها ليست الحرِّية . إنها رغباتكم تتفتّح أكمامُها [١] ، ولكنها ليست ثمارَها . إنها عُمقٌ يُنادي العُلا ، ولكنها ليست العَميق ولا العَليّ ، بل هي ذلك الذي اتّخذ جَناحاً واحتبس في قَفَص ، وليست هي الفضاء تكتنفه حدود .

لعمْري إنما المتعةُ أنشودة حُرِّية ، ولكَمْ تمنَّيتُ لو بها تغنّيتم بمِلْء قلوبكم ، ولكني لا أتمنى أن يضيِّع الغناءُ قلوبكم .

* * *

إن بعض شبابكم يسعى إلى المتعة كأنها كل شيء ، فيَحِلُّ بهم العِقابُ ويَحِقُّ عليهم التأنيب .

ولو كنت منكم ما عاقَبْتُهم ولا أنّبْتُهم ، بل لَشَجَّعْتُ مَسْعاهم ؛ لأنهم حين يجدون المتعة لن يجدوها وحدها ، فسَبْعٌ هُنَّ أخواتها ، وأقلُّهن جمالاً أبهى من المتعة نفسها .

أ لم يأتِكُم نَبَأُ الذي راح يَنْبشُ الأرضَ بحثاً عن الجذور فوجد كَنْزاً ؟

* * *

إن بعض الشُّيوخ منكم يذكرون في حَسْرَة تلك المُتَع التي نَعِموا بها ، كما لو كانت آثاماً اقْترفوها وهم سُكارَى . ولكنَّ الحسْرَة غاشِيَة [٢] تَحِلُّ بالعقل وليست عِقاباً ، وأَوْلى بهم أن يذْكروا متعتهم شاكرين ، تَذَكُّرهم محصول الصَّيف . فإذا لم يكن غير الحَسْرَة راحة لِقُلوبِهم ، فَدَعْهُمْ يَلْتَمِسونَ الرَّاحَةَ فيها .

* * *

ومنكم من ليسوا بشباب يَسْعى ، ولا هم شيوخ يذَّكَّرون ، يَجْزَعون من السَّعي والذِّكْرَى ، فيتجنَّبون المُتَعَ جميعاً ؛ خَشْيَةَ أن يُهْمِلوا رعاية أرواحهم أو يسيئوا إليها . ولكن متعتهم في زهدهم هذا ، فيجدون هم أيضاً كَنْزاً ، وإن كانوا يَنْبشون عن الجذور بأيدٍ تَرْتَعِشُ .

ولكن خبِّروني : من ذا الذي يستطيع أن يُسيء إلى الرّوح ؟

أ وَ يستطيع البلبلُ أن يُعكِّر صَفْوَ اللَّيْل ، أو تُسيء اليَراعَةُ [٣] إلى النُّجوم ؟

وهل تستطيع شُعْلَتك أو دُخانُك أن يُثْقِلَ كاهِلَ الرِّياح ؟

أ وَ تَحْسَبُ أن الرّوح بِرْكَةٌ هامِدَة تستطيع أن تُزْعِجَ صَفْوَها بِعَصاك ؟

أ لا ما أكثرَ ما يكون في إنكارك للمُتْعَة ادِّخارٌ لشوقك في أطواء ذاتك ! ومن يدري أن ما تُنْكِره اليوم ينتظرك في غدك ؟

إن جسدك نفسه لَيَعْلَم ما وَرِثَ ، ويعلم حاجَتَه الحَقَّة ، ولن يخدعه عنها شيء .

إن جسدك هو قيثارَةُ روحِك ، وأنت الذي تُنْطقها بالنَّغم العَذب ، أو اللَّحن القَلِق . ولْتُسائِلَنَّ نفسك الآن : كيف أُميِّز في المتعة بين ما هو خَيْرٌ وما هو شَرٌّ ؟

أ لا فامضِ إلى البستان ، تَرَ أن النَّحلة تجد المُتْعَة في جَنْي العَسَل من الزَّهرة . ولكن الزَّهْرَة أيضاً تجد المتعة في أن تُسْلِمَ النَّحلَ العَسَلَ . فالزَّهْرَة في عين النَّحلة يَنْبوعُ حياة ، والنَّحلة في عين الزَّهرة رسول حُبٍّ . والنَّحلة والزَّهرة في الأخذ والعطاء يَجدان حاجةً ونَشْوَةً .

* * *

يا أهل أورفاليس ، كونوا في مُتْعَتِكم كالزَّهر والنَّحل .

* * *

(١) الأكمام : جمع كِمّ ، وهو برعوم الثمرة .

(٢) الغاشية : الداء .

(٣) اليراعة : حشرة تضيء في الظلام .

وقال شاعر : حدِّثنا عن

الجمال

فقال المصطفى :

كيف تَسْعَون إلى الجَمال ، وكيف تجدونه إن لم يكن هو الطَّريق والدَّليل ؟ وكيف تتحدَّثون به إلّا إذا كان هو الذي يَحوكُ [١] بُرْدَ حديثكم ؟

يقول المطعون ويقول المكْلوم [٢] :

« الجَمال رقيقٌ رَفيقٌ ، يسير كما تسير الأم الشابَّة بيننا على شيء من الاستحياء ، لما تَحْمِلُ من فَخْرٍ ».

* * *

ويقول مَشْبوبُ [٣] العاطِفَة :

« لا ، بل الجَمال قويٌّ مَرْهوب كالعاصفة ، تُزَلْزِلُ الأرض من تحتنا ، وتهزُّ السَّماء من فوقنا ».

* * *

ويقول المتْعبُ المنْهوكُ :

« الجَمال همسات ناعِمَة تَهْمس في أرواحنا ، ويَخْلُدُ صوتُه إلى سكناتِنا كالضَّوء الخافت ، يَرْتَجِفُ خوفاً من الظِّل ».

* * *

ويقول القَلِقُ :

« لقد سمعناه يَهْتف في شِعابِ الجِبال ، يُلاحق هُتافُه وَقْعَ حَوافِرَ ، وخَفْقَ أجْنِحَةٍ ، وزئيرَ أسود ».

* * *

وفي الليل يقول حُرّاسُ المدينة ،

« سيَطْلُع الجَمالُ مع الفجر من الشَّرْق ».

* * *

وفي رائعة النَّهار يقول الكادِحون وعابِرو السَّبيل:

« لقد رأيناه يَطُلُّ على الأرض من نوافذ الغروب ».

* * *

ويقول أسيرُ الجَليد في الشِّتاء :

« سيأتي الجَمالُ مع الرَّبيع يتَوَثَّب فوق التِّلال ».

* * *

ويقول الحُصَّاد في قَيْظِ [٤] الصَّيف :

« لقد رأيناه يُراقِصُ أوراقَ الخريف ، ولَمَحْنا نَفَحاتِ الثَّلج في شَعْرِه ».

* * *

أجلْ ، لقد وصَفْتُم الجَمالَ بهذا كلّه ، ولكنكم لعَمْري لم تتحدَّثوا عنه إلّا بحاجات لكم لم تُقْضَ .

والجمال ليس حاجة بل هو نَشْوَة . وما هو بفَم عَطْشانَ ، ولا يدٍ ممدودة فارِغَة ، إنما هو قلب مُشْتَعِل ونفس مَفْتونَة .

وما هو بالصّورة التي تَوَدُّ أن تراها ، ولا الأغنية التي تَوَدُّ أن تسمعها ، إنما هو صورة تَراها وإن أغمضت العين ، وأغنية تَسْمَعُها وإن سَدَدْتَ الأذن .

وما هو بعصير يَكْمُنُ تحت لِحاءِ [٥] الشَّجر المخدَّد [٦] ، ولا هو بجَناح مشدود إلى مِخْلَب ، إنما هو بُسْتانٌ لا يغيب زَهْرُه أبداً ، وطائِفَةٌ من الملائكة أبداً تُحَلِّق .

* * *

يا أبناء أورفاليس ، إن الجمال هو الحياة ساعة تَكْشِفُ عن وجهها القُدْسيِّ . ولأنتم الحياة ، ولأنتم الحِجاب . وهو الخلود يَسْتَجْلي وَجْهَه في مرآة . ولأنتم الخُلود ، ولأنتم المِرْآة .

* * *

(١) يحوك : ينسج ، والبُرد : كساء مخطط يُلتحف به .
(٢) المكلوم : الجريح . (٣) مشبوب : متَّقد .
(٤) القيظ : صميم الصيف . (٥) لحاء الشجر : قشرها .
(٦) المخدَّد : المشقَّق .

وقال كاهن شيخ : حدِّثنا عن

الدِّين

فقال المصطفى :

وهل حدَّثتكم اليوم عن شيء سواه ؟ أ ليس الدِّين هو كل عمل وكل تفكير ؟ ثم هو أيضاً ما ليس بعمل ولا تفكير ، بل عَجَبٌ ودَهْشَة ، ينبعثان من النَّفس دائماً ، حتى حين تَنْحِتُ اليدُ الصَّخْرَ أو تُدير النَّوْلَ .

ومن ذا الذي يستطيع أن يَفْصلَ إيمانَه عن عمله ، أو عقيدته عن شَواغله ؟

ومن ذا الذي يستطيع أن يَنْشر أوقاتَه بين يديه ويقول :

« هذه لله ، وهذه لي ؛ هذي لروحي ، ولجسدي هذي » ؟

إن أوقاتَكُم جميعاً لأجْنِحَةٌ تضربُ في الفضاء ، مُتَنَقِّلة من نَفْسٍ إلى نَفْسٍ .

* * *

ومن اكتسى بفضائله ليَبْرُزَ في أبهى زِيِّه ، فأوْلَى به أن يَظَلَّ عارياً ؛ فإن الرِّيح والشَّمس لن يَثْقُبا له جِلْداً .

ومن يُحدِّدْ سلوكه بقواعد الأخلاق ، يَسْجُنْ طائِرَه الصَّدّاح في قَفَص ؛ فإن أكثر الأغاني انطلاقاً لا تَنْبعثُ من بين الأسلاك والقُضْبان .

ومن يَرَ في العِبادَةِ نافِذَة يَفْتَحها ثم يستطيع أن يُغلقها ، فإنه لم يُلِمَّ بعد بمَسْكن روحه ، حيث النَّوافذُ تُشْرَعُ (1) من فَجْرٍ إلى فَجْرٍ .

* * *

إن الحياة التي تَحياها كل يوم ، هي مَعْبَدُك وهي دينُك ؛ فاحرِصْ كُلَّما وَلَجْتها أن تأخذ معك كل زادِك :

خذ المِحْراث والكورَ (2) والمِطْرَقة والرَّبابَ (3) ، والأشياء التي هَيَّأتَها لحاجتك أو لمسَرَّتك ؛ فإنك لا تستطيع حين تَسْبح في جوِّ أحلامك ، أن تَسْمُوَ فوق ما عَلَوْتَ ، ولا أن تَهبُطَ دون ما سقطتَ .

وليكن معكَ النّاسُ جميعاً ؛ فإنك في هُيامِك لن تُجاوزَ في تَحْليقِكَ أمانِيَّهم ، ولن تهبِط نَفْسُكَ إلى أدنى مِنْ مَواطئ يأسهم .

* * *

وإذا أردتم أن تَعْرِفوا الله فلا تَشغَلُوا أنفسَكم بحلِّ الألغاز ، بل انظروا فيما حولكم تَرَوْه يُداعب أطفالَكم . وانظروا إلى الفضاء تُبْصِروه يسير بين السَّحاب ، ويَبْسُط ذِراعَيْه مع البَرْق ، ويتنزَّل في المطر .

سترَوْن بَسْمَتَهُ في الزَّهْرِ ، وحين يعلو يَخْفِقُ الشَّجَرُ بخَفْقِ يديه .

* * *

وهنالك تكلَّمت أَلمِطْرا ، وقالت : هَلّا تحدِّثنا الآن عن

الموت

فقال المصطفى :

تَوَدّون أن تَعْرِفوا سِرَّ الموت ، فكيف تهتدون إليه إن لم تلتمسوه في قَلْبِ الحياة ؟

إن البومة التي تُبْصِر في اللَّيل وتَعْشو (4) بالنَّهار ، لا تستطيع أن تكشف عن سِرِّ الضِّياء . فإن شئتم حقّاً أن ترفعوا الحِجابَ عن كُنْهِ (5) الموت ، فافتحوا قلوبَكم على مَصاريعها لِكيان الحياة ؛ لأن الحياة والموت واحد ، كما أن النَّهر والبحر واحد .

* * *

وفي أعماق آمالكم ورغباتكم تَقْبَعُ مَعْرِفَتُكم

(1) تُشرع : تُفتَح .

(2) الكور : مِجْمرة الحداد .

(3) الرَّباب : آلة وترية شعبية ذات وتر واحد .

(4) تعشو : يسوء بصرها . (5) الكُنْه : الجوهر والحقيقة .

الصّامِتَة بالغيب . وتَحْلُمُ قلوبكم بالرَّبيع ، حُلُمَ البذور مَكْنونَةً تحت الثّلج . ثِقوا بالأحلام ؛ إن في أطوائها بابَ الخلود .

* * *

وما خوفكم من الموت إلّا رِعْشَة تُصيب الرّاعي في حَضْرَة المليك وهو يُرَبِّتُ على كَتِفه تكريماً له .

أ لا تطيبُ نفسُ الراعي عن هذه الرَّعْشَة بما سيتَقَلَّد من سِماتِ المليك ؟ ولكن ، أ لا تراه أكثر اهتماماً بتلك الرَّعْشَة ؟

* * *

وهل الموت إلّا أن نَقِفَ عُراة في مهَبِّ الرّيح ، وأن نذوب في وَقْدَة الشَّمْس ؟ وهل تنقطع منا الأنفاسُ إلّا للتحرّر من قَلَقِ الزّمن الدّائر ، كما تَصْعَدُ فتَنْطَلِقُ ساعِيَة إلى الله بغير قيود ؟

* * *

هَيْهاتَ أن تَشْدُوا بالغناء حَقًّا إلّا إذا ارتويتم من نهر السُّكون . وهَيْهاتَ أن تَشْرَعوا في الصُّعود إلّا متى بلغتم رأسَ الجبل . وهَيْهات أن تَرْقُصوا حقًّا إلّا يوم تَضُمُّ الأرضُ أعضاءَكم وأطرافكم .

وهنا كانت الشَّمْسُ قد مالَتْ إلى الغُروب .

* * *

وقالت العرّافةُ ألمِطْرا : « تباركَ هذا اليومُ ، وتبارك هذا المكانُ ، وتباركت روحُك التي حَدَّثتنا . » .

فقال المصطفى : « وهل كنت أنا الذي أتحدث؟ أ لم أكن أنا أيضاً مُسْتَمِعاً ؟»

* * *

وهبط المصطفى درجاتِ المعْبَد فتبِعَه النّاسُ جميعاً، ثم صَعِدَ إلى سَفينته ، و وقف على ظهرها وعاد يُواجه النّاس ، ثم رفَع صوتَه قائلاً :

يا شعب أورفاليس ، إن الريح تُهيبُ بي أن أفارقكم ، فلا مَفرَّ من الرَّحيل ، وإن كنت أقلَّ من الرّيح لهْفَةً .

إننا نحن الضّاربين في الآفاق ، السّاعين دائماً إلى أبعد الطُّرق عُزْلَةً ، لا نَسْتَهِلُّ يوماً حيث انتهى بنا غيرُه ، ولا تَطْلُعُ علينا الشَّمْسُ حيث تَرَكْنا مَغيبُها.

بل إنّا لَفي رِحْلة ، حتى وإن كانت الأرض مُسْتَغرقة في رَقْدتها . وما نحن إلّا بذور النّبات المكين ، لا تَتَلَقَّفُنا الرّيح لِتَنْثُرنا إلّا عندما تَنْضَجُ وتُفْعَمُ [1] قُلوبُنا .

* * *

قصيرةٌ كانت الأيام التي قضيتُها بين ظَهْرانِيكم ، وأقْصَرُ منها كَلماتي التي صَبَبْتُها في آذانكم . فإذا ما خَفَت صوتي في آذانكم واضمحلَّ حتى في ذاكرتكم ، فَلأرْجِعَنَّ إليكم ، فأُكلِّمُكم بقلبٍ أخصَبَ عاطفةً وشَفَتَيْن أكثرَ استجابةً للروح .

أجلْ لآتِيَنَّ مع المدِّ ، وإني لَساعٍ إلى مخاطَبَةِ ألبابكم ، حتى إذا طواني الموتُ ولَفَّني السُّكون الأعظم . ولن يذهبَ هَباءً مَسْعاي ؛ فلئن كانت الحقيقة في شيء مما حدَّثتكم به ، فلقد تكشَّفت هذه الحقيقةُ عن نفسها بصوت أوضَحَ نَبْراً ، وكلمات أقرب مَنالاً لأفكاركم .

* * *

يا شعب أورفاليس ، إني أمضي مع الرِّيح ، ولكني لا أهبط إلى مهاوي العَدَم . وإذا لم يكن يومُنا هذا قد سَدَّ حاجاتِكم ، وأشبع حُبِّي ، فمَوْعِدُنا يوم آخر ؛ فإن حاجاتِ الإنسان تَتَغيّر ولا يتغيَّر حُبّه ، كذلك لا تتغيّر رغْبَتُه في أن يَسُدَّ هذا الحبُّ حاجاته .

ولتَعْلَموا إذاً أني سأعود من طَوايا السُّكون الأعظم ؛ فإن الضّباب الذي يَنْحَسِرُ عند الفجر ، ولا يترك في الحقول إلّا قطرات النّدى ، يرتفع ويَنْعَقِدُ سَحاباً ، ثم يَسّاقَطُ مَطَراً .

وما كنت إلّا الغَمام ، أسيرُ في طُرقاتكم في هَدْأَة اللّيل ، وتَزورُ روحي بيوتَكم ، وتلتقي في قلبي

[1] تُفعم : تُملأ .

ضرباتُ قلوبكم ، وتمسُّ وجهي أنفاسُكم ، فقد عَرَفْتكم جميعاً .

أجلْ عَرَفْتُ أفراحكم وآلامكم ، وكانت أحلامُكم في المنام أحلامي . وما أكثرَ ما كنت بينكم كالبُحَيْرَة بين الجبال ، كالمرآة أعْكِسُ ذُرَى نفوسِكم وما انعَطَف فيها من مُنْحَدرات ، أعْكِسُ حتى مَواكب أفكارٍ ورَغَباتٍ لكم عابِرَة .

وأقبلتْ إلي في سُكوني ضحكاتُ أطفالكم تَنْساب في الجداول ، وأشواقُ شبابكم تجري في الأنهار ، حتى إذا مسَّت أعماقي ، لم تَكفَّ الجداولُ والأنهارُ عن الشَّدْوِ .

* * *

و وافاني ما هو أحلى من الضَّحك ، وأروع من الأشواق ؛ ذلك الذي لا يَحُدُّه شيء فيكم ،

الإنسان الشّامل ، الذي لا تُمثّلون فيه جميعاً إلّا الخلايا والأنسجة .

أجلْ ، إنه هو الذي تغيب نبضاتُ غِنائكم في نشيده ، فلا يُسْمَع لها صَوْتٌ . إن في اتّحادكم بالإنسان الشامل انطلاقاً يَخْرُجُ بكم عن الحدود والقيود ، وما شاهدتكم وأحببتكم إلّا حين شاهَدْتُه .

وهل يستطيع الحبُّ أن يبلغ من الآمادِ [١] ما يُجاوز هذا الأفقَ البعيد ؟ وأيُّ رؤى ، وأيُّ آمال ، بل أيُّ فروض تستطيع أن تُساميه [٢] في عُلاه ؟

إن الإنسان الشامل فيكم كدَوْحَة البلّوط تُجلّلها أزهارُ التُّفّاح . يربُطكم جَبَروتُه بالأرض ، ويُحلّق بكم عبيرُه في الفضاء ، ويَعْصِمُكم دَوامُه من الموت .

ولقد قيل لكم إنكم كالسِّلْسِلة ذاتها ؛ وإذْ كنتم كالسِّلْسِلة فأنتم ضِعافٌ كأضعف حَلَقاتها . وما هذا القَوْل إلّا نِصْفُ الحقيقة ؛ فأنتم أيضاً أقوياء كأقوى حَلَقاتها .

(١) الآماد : جمع أمد ، وهو الغاية والنهاية .

(٢) تساميه : تباريه .

ومن يَقِسكم بأقل أعمالكم ، يكُنْ كمَن يَقْدُرُ [٣] جبروتَ المحيط بوَهَنِ [٤] زَبَدِه [٥] . ومن يَحكُمْ عليكم بما أصابَكم من إخفاق ، يَكُنْ كمن يلومُ الفصولَ على تَقَلُّبِها .

* * *

أجلْ ، إنكم كالمحيط ، ومع أن السُّفُنَ الجانِحات المُثْقَلات تنتظر المدَّ على شواطئكم ، فإنكم كالمحيط لا تستطيعون أن تتعجّلوا نصيبَكم من المدِّ .

ولأنتم أيضاً كالفصول . ومع أنكم في شتائكم تُنْكِرون الرَّبيع ، فالربيع الغافي في أعماقكم يبتسم في غَفْوته ولا يُسيئه إنكارُكم .

ولا تحسبوا أنني أقول هذا ليقولَ الواحدُ منكم للآخر : « لقد وَفَّانا حقَّنا من المديح ، ولم يَشْهَدْ غيرَ الخَيْر فينا . » فما أنا إلّا محدِّثكم بألفاظ عمّا تعرفونه أنتم بالفِكْر . وهل مَعْرِفَةُ الألفاظ إلّا ظِلٌّ للمعرفة بلا لَفْظٍ ؟

إن أفكاركم وألفاظي إنْ هي إلّا مَوْجاتٌ تَنْبَعِثُ من ذاكرة مَخْتومة تحتفظ بسِجِلات أمْسِيّاتنا ، وبذكريات الغابِر [٦] ، يَوْمَ لم يكن للأرض مَعْرِفَةٌ بنا ولا بذاتها ، وبتلك الليالي لمّا كانت الأرضُ تضطرب في جَهالاتٍ .

* * *

ولقد أتاكم الحكماءُ يَبْذلون لكم من حِكْمتهم، ولقد أتيت لأتزوّد من حِكْمَتِكُمْ . وهأنذا قد وجدتُ ما هو أعظم من الحِكْمة :

إنها جَذْوَةُ [٧] الرّوح فيكم تتزوّد دائماً من ذاتها ،

وأنتم في غَفْلَةٍ من انتشارها تندبون أياماً لكم ذَوَتْ . إنها لحياةٌ تَسْتَجْدي حياة أجسادٍ تخافُ القبورَ .

* * *

(٣) يقدُر : يبيِّن المقدار . (٤) الوَهَن : الضعف .

(٥) الزّبَد : الرغوة . (٦) الغابر : الماضي .

(٧) الجذوة : الجمرة الملتهبة .

وليس هُنا من قبورٍ ، وما هذي الجبال والأودية إلّا مِهادٌ (١) وَنجادٌ .(٢) فانظروا كلّما مَرَرْتم بالوادي الذي أودعتم فيه أجسادَ أسلافكم ، وتأمّلوا ، تروْا أنفسكم وأطفالكم في حَلْقَة رقص . ولعَمْري إنكم لتَمْرحون كثيراً وأنتم غافلون !

* * *

ولقد أتاكم آخرون واشتروا إيمانكم بالوعود البرّاقة ، فجازَيْتموهم على ما بذلوا بالثّراء والسُّلطان والمجْد . أمّا أنا فقد بذلْتُ لكم ما هو أقلُّ من الوَعْد ، وكان جزاؤكم لي أنْدى سَخاءً ، فوَهَبْتم لي أحَرَّ الظّمأ إلى الحياة .

ولعمْري ، أيُّ هِبَة يَتلقّاها الإنسان أنْفَسُ من تلك التي تجعل كل ما يَسْعى إليه شِفاهاً ظَمْأى ، وتجعل حياتَه كلّها نَبْعاً ؟

وفي هذا شرفي وجزائي ، فكلما قصدت النّبع لأرْتويَ وجدتُ المياهَ الدافِقَةَ نَفْسَها عَطْشَى ، فإذا هي تشربني حين أشربُها .

وقد ظنّ بعضكم أنّ كِبْرياءَ بي وفَرْطَ حياءٍ ، صَرَفاني عن قبول الهدايا . ولعْمري إني آنف من قبول الأجور ، لا الهدايا . فقد رُحْت أغْتذي من توت التّلال ، حين تمنّيْتم عليَّ أن أجلسَ إلى موائدكم ، وأنامُ في رُواقِ (٣) المعْبد ، وأنتم تدعونني إلى رِحاب بيوتكم .

ومع ذلك ، أ فلم يكن احتفاؤكم الرّفيق بأيامي ولياليَّ هو الذي حلّى الطعام في فمي ، وطوّق منامي بالرُّؤى ؟

* * *

ومن أجل ذلك أباركُكم بأطيب البَرَكات ؛ فإنكم تُعطون الكثير ولا تَدْرون على الإطلاق أنكم تعطون . والحقُّ إنّ الإحسان الذي يتأمّل نفسه في المرآة ينقلب صَخْراً ، والعَمَلَ الطيِّب الذي يَنْعَتُ نفْسَه بأسمح الصفات يُصْبحُ أبّاً للّعنة .

* * *

ولقد دعاني بعضُكم عَزوفاً ، نَشْوانَ بوِحْدَتي ، وقلتم : « إنه يأنَسُ بأشجار الغاب ، ولا يأنسُ بالناس ، ويجلس وحيداً فوق قِمَم الجبال ، ويُشْرِفُ من عَلٍ على مدينتنا .»

ولعَمْري لقد تسلّقْتُ الجبالَ وضربتُ في آفاقٍ بعيدة ؛ وهل كان لي أن أراكم إلّا من ارتفاع شاهق أو بُعْدٍ مَديدٍ ؟ وكيف يحسُّ المرءُ القربَ حَقّاً إن لم يُعانِ البعادَ ؟

* * *

ومنكم من هتف بي ، ولم ينطق : « أيُّها الغريبُ ! أيُّها الغريب ! يا عاشقَ الذُّرى المنيعَة ، لِمَ تَخْلُدُ إلى القِمَم ، حيث تبني النُّسور أعشاشَها ؟

وما بالك تَسْعى إلى ما لا يُنال ؟

وأيُّ العواصف تَرومُ إيقاعها في شِباكك ؟

بل أيُّ أباديد (٤) الطَّير تصيدُ في السَّماء ؟

تعالَ وكُنْ واحداً منا . اهبطْ ، وسَكِّن جوعَك بخُبْزنا ، وارْوِ غُلّتك من راحِنا .» (٥)

أجلْ ، لقد قالوا ذلك إذْ خَلَوْا إلى نفوسهم ، ولو كانت خَلْوتُهم أبعدَ غوْراً ، لعلموا أنني إنما تَعَقَّبت سِرَّ أفراحكم وأتْراحِكم (٦) ، ولم أصْطَدْ إلا نفوسكم الطّلْقة وهي تَذْرَعُ (٧) السَّماء .

* * *

ولكن الصَّيادَ كان الصَّيْدَ أيضاً ؛ فقد انطلقت كثيراتٌ من سِهام قَوْسي لِتَرْتَدَّ ساعِيَةً إلى صدري . كذلك كان الطائر زاحفاً أيضاً على الأرض ؛ فحين بَسَطْتُ جناحيَّ في رِحاب الشّمس تَمَثّلَ ظِلُّهُما

(١) المهاد : الأرض المنخفضة المستوية .
(٢) النجاد : جمع نجد ، ما ارتفع من الأرض .
(٣) رواق المعبد : سقيفته .

(٤) أباديد : مُتَفَرِّقة . (٥) الراح : الخمر .
(٦) الأتراح : الأحزان . (٧) تذرع السماء : تقطعها بسرعة .

سُلَحْفاةً تَزْحفُ على الأرض . وكنت أنا المؤمن والمستَريبَ معاً ؛ فما أكثر ما وضعت إصبعي على جُرْحي ؛ لعلّ إيماني بكم يشتَدُّ ، ومعرفتي بكم تنمو وتتّسع .

* * *

وإني لأقول لكم عن هذا الإيمان ، وعن هذه المعرفة :

إنكم لستم رُهَناءَ أجسادكم ، ولا سُجَناءَ بيوتكم وحقولكم ؛ فإنّ ذاتَكم تسكُن فوق الجبل ، وتَسْري مع الريح . وليست هي بالشيء الذي يزحف إلى الشمس سعياً إلى الدِّفْءِ ، أو يَحْفِرُ الكهوفَ في الظّلام طلباً للأمان . وإنما هي شيء حرٌّ ، بل روح تُحيط بالأرض ، وتنطلق في الأثير .

* * *

فإذا بدت كلماتي هذه غائمة فلا تَسعَوْا إلى تِبْيانِها ؛ فإن الغائم والغامض هما بداية كل شيء وليسا نهايته .

وتمنّيت أن أكون في ذاكرتكم بداية ، فالحياة — ومثلها كل حيٍّ — يبدأ الحَمْلُ بها في الغَمام لا في الصَّفاء . ومن يدري لعلّ الصَّفاءَ غمامٌ تَحَلَّل ؟

* * *

ولْتَذْكروا ما سأقوله عندما تَذْكرونني :

إن ما يبدو لأعينكم أضعفَ ما فيكم وأكثره اضطراباً — هو في الحق أقوى ما فيكم وأشدُّه ثباتاً .

أ ليست أنفاسُكم هي التي أقامت هيكلَ عِظامِكم وقوّت دَعائِمَه ؟

أ لم يكن حُلْماً غابَ عن ذاكرتكم أجمعين ، ذلك الذي شيَّد مدينَتَكم وصَوّر كل ما فيها ؟

فلو أبصرتم أنفاسكم وهي تضطرب لأغفلتم رؤية أي شيء سواها . ولو استطعتم أن تسمعوا هَمَسات ذلك الحلم لكَفَفتُم عن سماع أيِّ صوت آخر ، ولكنكم لا تُبصرون ولا تسمعون ، وهذا خَيْرٌ لكم ؛ فإن الحِجاب الذي يَغْشَى [1] أبصارَكم سترفعه اليدُ التي نسجت خيوطَه ،

والطِّين الذي يَسُدُّ آذانكم ستَنْفُذُ فيه الأصابع التي عَجَنَتْه .

ولسوف تُبصرون وتسمعون ، ولكنكم لن تأسَوْا [2] على ما أصاب أعيُنَكم من عَمًى ، ولن تأسَفوا على ما نزل بآذانكم من وَقْرٍ ؛ فلسوف تَعْلَمون يومئذ العِلل الخفيّة للأشياء ، وتُباركون الظُّلمة كما تباركون النّور .

* * *

وما إن فرغ من خطابه ، حتى نظر حَوالَيْه فرأى رُبّان سفينته واقفاً بجوار الدَّفة : تارة ينظر ويتأمّل الأشْرِعَة المنشورة ، وتارة يمدُّ بصره إلى الأفق البعيد ، فقال :

يا لَصَبْرِ رُبّانِ سفينتي ، يا لَصَبْرِه ! تَهُبُّ الريح ، والشّراع في جَزَع ؛ بل الدَّفّة نفسها تَتَوسَّل إلى قائدٍ ما ، ومع ذلك فرُبّانُ سفينتي هادئاً يَرْقُبُ سكوني .

وهؤلاء الملّاحون رفاقي ، قد استمعوا لي صابرين بعد ما استمعوا إلى أناشيد البَحْرِ الأعظم .

والآن ، لن يطولَ بهم الانتظارُ ؛ فقد اتَّخَذْتُ أُهْبَتي ، وبلغ الجدولُ البحرَ ، ومرّة أخرى تضمُّ الأمُّ الكبرى ابنَها إلى صدرها .

* * *

وداعاً يا أهل أورفاليس ، فقد وَلّى هذا اليومُ ،

وها هو ذا يُسْدِلُ علينا سِتارَه ، كما تُسْبِلُ زَنْبَقَةُ الماءِ أوراقَها على غدها .

ولسوف نحتفظ بما أوتينا هنا ، فإذا لم يكف حاجتنا ، فلا مَناص من أن نلتقي مرّة أخرى ، ونمدَّ أيدينا معاً إلى مَنْ آتانا مِنْ نِعَمِه .

ولا تَنْسَوْا أنّي عائدٌ إليكم ، وإنْ هي إلّا لحظةٌ قصيرة ثم يُعاودني الشَّوْقُ إلى جمع الطِّمْي والزَّبَد

(١) يَغشى : يُغطي . (٢) تأسَوا : تحزنوا .

لِجَسَدٍ جديد . أجلْ ، هُنَيْهَة ، بل لحظةً قصيرة أخْلُدُ فيها إلى السَّكينة على مَتْنِ الرِّيحِ ، ثم تحمل بي امرأة أخرى .

* * *

وَداعاً لكم ، ودَاعاً للشَّباب الذي قضيتُه بينكم ، ولم يكن لقاؤنا إلّا أمس وفي حُلم . غنَّيتم لي في وَحْدتي ، ومِنْ أشواقِكم أقمتُ بُرْجاً في السَّماء . وها هو ذا النَّوْمُ قد ولّى ، وحُلْمُنا قد انقضى ، ومضى الفجرُ ، والظَّهيرة فوق رءوسنا ، وقمنا من غَفْوَتنا إلى رائعة النهار ، ولا مَفرَّ من الرَّحيل .

فإذا قُدِّر لنا أن نلتقي في غَسَق الذَّاكرة مَرَّة أخرى ، فسيتَّصِلُ بيننا الحديثُ من جديد ، وستُنْشِدون لي أغنية أبعدَ غَوْراً . إذا قُدِّر لأيدينا أن تَلْتَقِيَ في حُلْم آخر ، فسنقيم بُرْجاً آخر في السَّماء .

* * *

وما إن فرغ من حديثه حتى أشار إلى الملّاحين فرفعوا المِرْساة على الفور ، وأطلقوا السَّفينة من عقالها ، ومضوْا شَطْرَ[1] المشْرِق .

وصَرَخَ النّاس كأنهم من قلبٍ واحد يصرخون ، وتعالى صُراخهم في عَتَمَة المساء ، وحملته الرِّيح إلى البحر كأنه دَوِيّ بوقٍ عظيم .

« أَلمِطْرا » وحدها لزمت الصمت ، وراحت تُشيِّع السَّفينة بنَظَرها حتى توارت في الضَّباب .

وتفرَّق شَمْلُ الناس جميعاً ، و وقفت هي وحيدة فوق سَدِّ البحر تَتَمثَّل في قلبها قولَه :

« أجل ، هُنَيْهَةً ، بل لحظة قصيرة أخْلُدُ فيها إلى السَّكينة على مَتْنِ الرِّيح ، ثم تَحْمِلُ بي امرأة أخرى . »

---

(١) الشَّطر : الناحية .

رَمْلٌ وَزَبَد

رَمْلٌ و زَبَدٌ

على هذه الشُّطآن أسْعى إلى الأبد ، بين الرَّمل مَسْعاي و الزَّبَد .

سوف يَطْغَى المدُّ على آثار قدميَّ فيمحو ما وَجَد ، وتُطوِّح الرّيحُ بعيداً بعيداً بالزَّبَد .

أمَّا البَحْرُ وأمَّا الشّاطئ فباقيان إلى الأبد .

* * *

مرَّةً ملأتُ من الضَّباب يدي ، ثم بَسَطْتُها ، فإذا الضَّباب دودَة . وقَبَضْتُ يدي ، وثانيةً بَسَطْتُها ، فكان ثَمَّ عُصْفورٌ . وأخذت أقبض يدي وأبسُطها ، فإذا في قَرارَتها رجلٌ قائمٌ ، ينظر إلى عَلٍ ساهِمَ الوجه . ثم قبضت يدي ، وحين بَسَطْتُها لم يكن ثمَّ شيء غير ضباب ، ولكني سمعت شدْوًا ، ما أعْذَبَه من شَدوٍ !

* * *

بالأمس القريب خِلْتُني [1] شَظِيَّة تَرْتَعِدُ نافِرَةً في فَلَكِ الحياة . والآن أعلم أني أنا الفَلَك ، تَجري فيَّ الحياةُ كُلُّها شَظايا متَّسِقَة .[2]

* * *

يقولون لي في يقَظَتهم : « ما أنت والعالَم الذي تعيش فيه إلّا حَبَّة من رَمْلٍ ، على ساحِلٍ لا يَتَناهَى لِبَحْرٍ لا يَتَناهَى .»

وفي حُلْمي أقول لهم : « إني أنا البحر لا نهايةَ له ، وليست العوالِمُ كُلُّها غير حَبّات من رمل على ساحلي .»

* * *

وَجَدْتُني أخْرَسُ مرَّة واحدة ، حين سألني امرُؤٌ : « مَنْ أنت ؟»

* * *

(١) خِلْتُني : ظننتني . (٢) متَّسِقَة : مجتمعة منتظمة .

تصوَّر الرَّبُّ أوَّل ما تصوَّر مَلَكًا ، وأولى كلماته كانت كلمة : إنسان .

* * *

كُنّا خَلْقاً ضالِّين هائمين ، توّاقين آلاف السنين ، قبل أن نُلْهَمَ الكلمات من البحر والرِّيح في الأجَمات [3] ؛ فأنّى لنا الآن أن نُفْصِحَ عن خَوالي [4] الدّهور بأصوات أمسنا ؟

* * *

مرَّة ، وما ثَنّى ، نَطقَ أبو الهول ، قال : « إن حبَّة من رمل هي صَحْراءُ ، والصَّحْراءُ حبَّة من رمل . والآن فَلْنَلْزَمِ الصَّمْتَ ثانِيَةً .»

لقد استمعت إلى أبي الهول ، بَيْدَ أني لم أفهم.

* * *

ذاتَ يوم وَقَعَ نظري على وجه امرأة ، فشاهدت أطفالها جميعاً وما وُلِدوا بَعْدُ ؛ ورَنَت [5] امرأة إلى وجهي ، فتعرَّفت أجدادي جميعاً ، وقد مضوا جميعاً قبل أن تُولَد !

* * *

والآن بودّي لو حقَّقت وجودي ، ولكن هل مِنْ سبيل قبل أن أغدو كَوْكَبًا تَدِبُّ عليه مواكبُ حياة واعية . أ وَ ليس هذا هَدَفَ كُلِّ حيٍّ ؟

* * *

ما مِنْ لؤلؤة إلّا وهي هيكل شادَهُ [6] الألَمُ حول حَبَّة من رمل . تُرَى أيُّ شَوْقٍ شادَ أبدانَنا ، وحول أيَّة حَبّات ؟

* * *

عندما قَذَفَ بي الله حَصاةً إلى هذه البحيرة

(٣) الأجَمات : جمع أجمة ، وهي الشجر الكثير الملتف .

(٤) الخَوالي : الماضية .

(٥) رَنَت : أدامت النظر في سكون طرْف .

(٦) شادَهُ : أعلاه ورفعه .

العجيبة أزعجتُ صَفحَتَها بدوائرَ لا تُحصى ، غير أنيّ لمّا بَلَغتُ أغوارَها لقّني سكونٌ شامِل .

* * *

هَبْني صمتاً فأغلب به اللّيلَ جُرْأةً .

* * *

كان لي مَوْلدٌ ثانٍ حين انعقد الحبُّ بين روحي وجسدي فتزاوَجا .

* * *

عَرَفْتُ رجلاً رَهيف السّمع غير أنه كان أبكم ، فَقَد لسانَه في إحدى المعارك . وإني لأعْلَمُ الآن أيّة معارك خاضها ذلك الرجل، قبل أن يُلِمَّ به الصَّمْتُ الكبير . وإني لَسعيدٌ بموته ؛ فما أضيَقَ الدُّنيا عن أن تتّسع لنا معاً !

* * *

ما أطولَ ما رقدت في ثَرى مصر صامتاً في غَفْلَةٍ عن الفصول ، ثم منحتني الشَّمْسُ الحياة ، فنهضت أمشي على ضِفاف النيل ، مُنْشِداً مع الأيام ، حالماً مع الليالي .

والآن تَطؤني الشَّمْسُ بألف قَدَم ؛ عساي أن أرْقُدَ ثانيةً في ثَرى مصر .

ولكن هاكَ الأعجوبة المبْهِرَة والأحْجِيَّة [1] المحيِّرة :

إن الشَّمْسَ نفسَها التي جَمَعت شَتاتي تَعْجَزُ عن أن تَنْثرَني بَدَداً [2] ، ولا أزال ناهضاً على ضِفَّتي النّيل ، أمشي مُطْمَئِنَّ الخُطى .

* * *

الذِّكرى صورةٌ من صوَر اللّقاء .

* * *

النّسيان صورةٌ من صور الحرّيّة .

(١) الأحْجِيَة : اللغز يتبارى الناس في حلّه . (٢) بَدَداً : متفرقاً .

* * *

نحن نَقيسُ الزّمَنَ بحركة شُموس لا تُحصى ، وهم يقيسون الزّمن بآلات في جيوبهم .

والآن خَبّرْني : أنّى لنا أن نلتقي في المكان والزّمان اللّذَيْنِ نُحدّدهما ؟

* * *

ليس الفَضاءُ فضاءً بين الأرض والشّمس للذين يُطِلّون من بين فُرُجات نهر المَجَرّة .

* * *

الإنسانية نهر من النّور يجري من الأزَل إلى الأبَد.

* * *

أ لا تَحْسِدُ الأرواحُ الهائمةُ في الأثير الإنسانَ على ألَمه ؟

* * *

في طريقي إلى المدينة المقدّسة لقيت حاجًّا آخر ، وسألته : « أ هذا حقًّا هو الطّريق إلى المدينة المقدّسَة ؟ »

فقال : « اتبعني تَبْلُغ المدينة المقدّسة في يوم وليلة . »

وتبعته ، وسِرْنا أياماً ، وسِرْنا لَياليَ ، وما بلغنا المدينة المقدّسة . ولَشَدَّ ما دَهِشْتُ إذْ وجدته قد ضاق بي ؛ لأنه أضَلّني الطّريق .

* * *

ربِّ اجعلني فَريسة للأسد قبل أن تجعل الأرنبَ فَريسة لي .

* * *

قد لا يبلغ المرءُ الفجرَ إلّا عن طريق اللّيل .

* * *

يقول لي منزلي : « لا تهجُرْني ؛ فها هنا يُقيم ماضيك . »

ويقول لي الطريق : « هلُمَّ وامضِ في إثري ؛ فإني لك المستَقْبَل .»

وأقول لهما معاً ؛ منزلي والطَّريق : « أنا لا ماضي لي ولا مُستَقْبَل . وإذا ما أقمتُ هنا ففي إقامتي رَحيلٌ . وإذا ما رَحَلْتُ ففي رحيلي إقامة . الحب والموت وحْدَهما يُبَدِّلان الأشياءَ كُلَّها .»

* * *

كيف أفقد إيماني بعَدْل الحياة ، وأحلامُ الرّاقدين على الفِراش ليست أجمل من أحلام الذين يَفْتَرِشون الغَبْراء (١) ؟

* * *

يا عجباً ، إن الرغبة في لَذّات معيَّنة هي بعض ألمي .

سَبْعُ مَرّات ازْدَرَيْتُ روحي :

أولاها : لَمّا رأيتها تَتَواضَع ؛ عساها تَبْلُغُ الذُّرْوَة .

ثانيتها : لَمّا رأيتها تَعْرُجُ في حَضْرَة الكَسيح .

ثالثتها : لَمّا خُيِّرَتْ بين الصَّعْبِ والهيِّن ، فاختارت الهيِّن .

رابعتها : لَمّا اقتَرَفَتْ خطأً ، وتعزَّت بأن غيرها يقترف هو الآخر الخطأ .

خامستها : لَمّا صَبرت عن ضَعْفٍ ، ونَسَبَتْ صبرَها إلى القوَّة .

سادستها : لَمّا أنِفَتْ (٢) من وجه دَميم ، وما عَرَفَتْ أنه قِناعٌ من أقنِعَتها هي .

سابعتها : « لَمّا تغنَّت بأغنية مَدْح ، وأنزلت ذاك مَنْزِلَةَ الفضيلة .

* * *

أنا جاهل بالحق المطلَق ، غير أني أشعر بالضَّعَة (٣) أمام جهلي ، وفي هذا موضع فخري وجزائي .

* * *

ثمَّة مسافةٌ بين ما يتخيَّل المرءُ وما يُحَقِّقه ، لا يَقْطَعُها غير شَوْقه .

* * *

الجنةُ ثَمَّ وراء ذلك الباب في الغرفة المجاورة ، غير أن المِفْتاحَ ضاع منّي ، ولَعَلّي أنْسيتُ موضِعَهُ فَحَسْبُ .

* * *

أنت أكْمَه (٤) وأنا أصمُّ أبْكَمُ ؛ إذاً فلْتَتَماسَّ الأيدي ، ولْنَتَفاهَمْ .

* * *

قيمةُ المرء ليست فيما يَبْلُغُه ، بل فيما يَرومُ (٥) بلوغَه .

* * *

مِنّا مَنْ هو كالمِداد ، ومِنّا مَنْ هو كالوَرَق ، فلولا ما بَعْضِنا من سَوادٍ لكان بعضً آخَرُ أبكمَ ، ولولا ما ببعضنا من بياض لكان بعضُنا الآخر أعمى .

* * *

أعطني أذُناً أعْطِكَ صَوْتاً .

* * *

العقل فينا إسْفَنْجَة ، والقلب جَدْوَل .

* * *

أ ليس عجيباً أن أكثرنا يُؤْثِرُ الامتصاصَ على الانسياب ؟

* * *

حينما تَتوقُ إلى نِعْمَةَ لا تَعْرِفُ لها اسماً ، وحينما

(١) الغَبْراء : الأرض . (٢) أنِفَتْ : استكبرت ونفرت .

(٣) الضَّعَة : خلاف الرفعة في القدر .

(٤) الأكْمَه : من وُلد أعمى . (٥) يَرومُ : يطلب .

تَحْزَنُ دون أن تدري لذلك سبباً ، فأنت في الحَقّ تنمو مع كل ما ينمو ، وترتفع إلى ذاتك الكبرى .

* * *

عندما ينتشي الإنسانُ برؤيا ، يَعُدُّ تعبيرَه الواهي عنها الخَمْرَ بعينها .

* * *

أنت تشرب الخَمْرَ لعلك تَسْكَرُ ، وأنا أشربها لَعَلّي أصحو بها من نَشْوَة تلك الرّاح [١] الأخرى .

* * *

عندما تَفْرَغُ كأسي أرَوِّضُ نفسي على فراغها ، وعندما يَفْرَغُ نِصْفُها أضيقُ بأن تكون نَصيفَةً .[٢]

* * *

ليست حقيقة غيرك فيما يُبْديه لك ، بل فيما لا يستطيع أن يُبْدِيَه لك ؛ فأنت إذا أردت أن تُدْرِكَ كُنْهَهُ ، فلا تُصْغِ إلى ما يقول ، بل إلى ما لا يقول .

* * *

نِصْفُ ما أقوله لك لا معنى له ، غير أني أقوله لَعلَّ النصف الآخر يَبْلُغُكَ .

* * *

الحِسُّ بالدُّعابة من الحِسِّ البصير بالمقاييس .

* * *

وُلِدَتْ فيَّ العُزْلَةُ حينما أطْرَى [٣] النّاسُ عيوبي الصّارِخَة ، وتَنَقَّصوا فضائلي الصّامِتَة .

* * *

عندما لا تَجِدُ الحياةُ من يُغَنّي بما في قلبها ، تأتي بفيلسوف .

* * *

الحقُّ يُعْرَفُ في كل حال ، ولا يُنْطَقُ به إلّا في بعض الأحوال .

* * *

كل ما هو مطبوع فينا صامِتٌ ، أما المكْتَسَب فَثَرْثار .

* * *

صوتُ الحياة فيَّ لا يستطيعُ أن يَبْلُغَ أذُنَ الحياة فيك ، ولكن دعنا نتحدث حتى لا نُعاني الوَحْدَة .

* * *

عندما تَتَحادَث امرأتان لا تقولان شيئاً ، فإذا تحدَّثت واحِدَةٌ كَشَفَتْ عن الحياة كُلِّها .

* * *

قد يكون للضِّفادع نَقيقٌ أشدُّ من خُوار[٤] الثِّيران، لكنها لا تقوى على أن تَجُرَّ المِحْراثَ في الحقل ، ولا أن تدور بعَجَلَةِ مِعْصَرَة النَّبيذ ، كما أنك لا تستطيع أن تَصْنَعَ من جُلود الضِّفادع أحْذِيَة .

* * *

ما مِنْ أحد غير الأصمِّ يَحْسِدُ الثَّرْثارَ .

* * *

مَنْ للشِّتاء بمن يُصَدِّقه إذا قال : « إن الربيع محلُّه قلبي ؟»

* * *

كل بِزْرةٍ شوق .

لو أنك فتَّحت عينيك ، وأمْعَنْتَ النَّظر ، لرأيت صورتك ماثلة في كل صورة .

ولو أرْهَفْتَ أذنيك ، وأصغيت ، لَسَمِعْتَ صوتك في كل الأصوات .

* * *

---

(١) الرّاح : الخمر . (٢) النّصيف : نِصْفُ الشّيء .

(٣) أطْرَى : بالَغَ في الثناء .

(٤) خُوار : صياح .

لا بُدَّ للكَشْف عن الحق من اثنين : رجل يَجْهَرُ [١] به ، وآخر يَفْهَمُه .

* * *

أبداً تَغْشانا مَوْجَةُ الكلام ، غير أن أعماقنا تَلزم الصَّمْتَ أبداً .

كم من مَذْهَبٍ يَحْكي [٢] زُجاجَ النّافذة ، نرى الحقَّ من خلاله ، غير أنه يَفْصِلُ بينه وبيننا .

* * *

فلْنأخُذْ في لُعْبَة « المُخابَأة » ، وليُفَتِّشْ بعضُنا عن بعض ؛ فإذا كان في قلبي مخبؤك ، فغيرُ عسير عليَّ أن أجدك . أما إذا اختبأت طيَّ قِشْرَتك ، ففي غير طائل يُفتَّش عنك .

* * *

قد تَحْجُبُ المرأةُ وجهَها بابتسامة .

* * *

ما أجلَّ القلبَ المهموم حين يُشارك القلوبَ المرِحَة أنشودةً مَرِحَة !

* * *

مَثَلُ الذي يَبغي أن يُدْرِكَ كُنْهَ امرأة ، أو أن يَتَعَرَّفَ عبقريًّا ، أو أن يَجْلُوَ [٣] سِرَّ الصمت ، كَمَثَل مَنْ يطمع في أن يستيقظ من حُلْمٍ جميل ليجلس إلى مائدة الصَّباح .

* * *

أريد أن أسير مع السائرين ، ولا أبغي أن أتلبَّث في جمودٍ ، أرْقُب الموكبَ يمرُّ بي .

* * *

أنت مَدينٌ لمن يَخْدمك بما هو أعزُّ من الذَّهب ، فابذُلْ له من قلبك ، أو اخدمْه .

(١) يَجْهَرُ : يُعلن . (٢) يَحْكي : يشابه .
(٣) يَجْلُو : يوضح ويكشف .

* * *

ما كانت حياتُنا هَباءً . أ وَ لم تُشيِّد البروجُ من عِظامنا ؟

* * *

لا يَحْسُنُ بنا أن نُدَقِّق أو أن نُشْغَل بالصَّغائر ؛ فمن الثَّرى عينِه يَنْبُتُ في جَلالٍ ذِهْنُ الشاعر ، وذَنَب العقرب .

* * *

مع كل تِنّين يُولَدُ مار جرجس لِيَذْبحه .[٤]

* * *

الأشجار أشْعارٌ تَخُطُّها الأرضُ على صفحة السَّماء ، ونقطعها نحن ، فنُحيلها أوراقًا نَخُطُّ عليها فراغَنا .

* * *

إذا أحسَسْتَ ميلاً إلى الكتابة – وعند أولياء الله عِلْمُ ذلك الميل – فلِزامٌ عليك أن تكون ذا مَعْرِفَةٍ وفَنٍّ وسِحْرٍ : مَعْرِفَةٌ بجَرْس الكلمات ، وفنٌّ من لا يَدَّعي الفن ، وسِحْرٌ من يُحِبُّ قُرَّاءَه .

* * *

هم يَغْمِسون أقلامَهم في قلوبنا ، ويَخالون أنهم مُلْهَمون .

* * *

لو أُتيحَ لِشَجَرَةٍ أن تُسَطِّرَ تاريخَ حياتها ، ما اختَلَفَ عن تاريخ جِنْسٍ من الأجناس .

* * *

إذا كان لي أن أختار بين القُدْرَة على نَظْمِ الشِّعر والنَّشوة مِنْ شِعْرٍ لم يمثُلْ إلّا في مُخَيِّلتي ، لاخترتُ النَّشْوة ؛ فهي شِعرٌ أسمى .

(٤) يشير إلى القديس مار جرجس الروماني (٢٨٠–٣٠٣م) الذي قتل التنين قبل أن يفترس الأميرة التي قدمت ضحية له .

* * *

غير أنك وجيرتي جميعاً مُتَّفِقون على أني أبداً أسيء الاختيارَ .

* * *

ليس الشِّعْرُ رأياً تُفْصِحُ عنه ، بل هو أغنية تَفيضُ من جُرْحٍ دامٍ أو فمٍ باسِمٍ .

* * *

الكَلمات طَليقَةٌ من حدود الزَّمان ؛ فلتنطقْ بها أو فلتكْتُبْها ، عارفاً أنها أزليَّة .

* * *

الشّاعر مَلِكٌ خُلِعَ عن عَرْشِه ، جلس بين أطلال قَصْرِه ، يحاول أن يُسوّي من الأطلال صورة .

* * *

الشِّعر كَمٌّ من الفَرَح والألم والعَجَبِ ، مع نَزْرٍ(١) مما وَرَدَ في المعاجم .

* * *

عَبَثاً يَنْشُدُ (٢) الشّاعرُ المصدرَ الذي صاغ أغاني قلبه .

* * *

قلت مرَّة لشاعر : « لن نُقَدِّرَك قَدْرَك حتى تموت .»

فأجاب : « نعم . الموت دائماً يَكْشِفُ ما استَتَر . فإن رَغِبتَ حقا في أن تَعْرِفَ قَدْري ، فاعلم أن ما في قلبي أكثر مما على لساني ، وأن رغبتي أكبر من أن تتَّسع لها يدي .»

* * *

إذا تغنَّيت بالجمال فستَجِدُ من يَستَمِعُ إليك ، ولو كنتَ وحيداً في جوف الصَّحراء .

(١) النَّزْر : القليل . (٢) يَنْشُدُ : يطلب .

* * *

الشِّعر حِكْمَةٌ تَستَهوي القلبَ ، والحِكْمَةُ شِعْرٌ يَصْدَحُ (٣) في الفِكْر . فإذا قُدِّر لنا ، ونحن نستهوي قلبَ إنسان ، أن نَصْدَحَ في فِكْرِه ، فلَعَمْري لسوف يحيا في كَنَفِ(٤) الرَّبِّ .

* * *

أبداً لن يكفَّ الإلهامُ عن الغِناء ، ولن يُبِينَ الإلهامُ أبداً .

* * *

كثيراً ما نُغنّي لأطفالنا كي يناموا ، لَعلنا نحنُ أنفسَنا نَنام .

* * *

ليست كلماتنا كُلُّها إلّا فُتاتاً يَسّاقط من مائدة الفِكْرِ .

* * *

إعمالُ الفِكْرِ حَجَرُ عَثْرَةٍ دائم في سبيل الشِّعر.

* * *

المغنّي البارع هو مَنْ يَصوغُ من صَمتِنا غِناءً .

* * *

أنّى لك أن تغنّي إذا كان فمُك مليئاً بالطّعام ؟ وأنّى لِيَدِك أن تَرْتَفِعَ لِتَسْأَلَ البَرَكَة إذا كانت مليئة بالذَّهب ؟

* * *

يقولون إن البُلْبُلَ يَخِزُ (٥) صدرَه بشَوْكَة حين يُغنّي أغنية الحبِّ ، وكذلك نحن جميعاً نفعل .

هل مِنْ سبيل آخر للغناء ؟

* * *

(٣) يَصْدَحُ : يُطرِبُ .

(٤) كَنَفُ الرَّبِّ : رحمته وستره وحفظه .

(٥) يَخِزُ الشّيءَ بالإبرة ونحوها : يطعنه طعناً غير نافذ .

ما العَبْقَرِيَّةُ إلّا أغْنيةُ عُصفور في مُستَهَلِّ ربيعٍ قد أبطأ في إقباله .

* * *

حتى أكثر الأرواح أجنِحَة لا تَستَطيعُ أن تَنْجُوَ من حاجة الجسَد .

* * *

المجنون موسيقيٌ لا يَقِلُّ عنّي ولا عنك قَدْراً ، غير أن الآلة التي يَعْزِفُ عليها قد خرجت هَوْناً [١] ما عن الإيقاع .

* * *

الأغنية التي تَكْمُنُ صامتَةً في قلب الأم تَتَرنّم بها شَفَتا وليدها .

* * *

لا شوقَ إلّا ارتوى غليلُه .

* * *

لم أوافِقْ ذاتي الأخرى تماماً ؛ إذ الحقُّ فيما يبدو مُتَنازَعٌ بيني وبينها .

* * *

ذاتُك الأخرى دائِمَةُ الحزن من أجلك ، غير أن ذاتك الأخرى قِوامُها الحزن ؛ فلا بَأسَ إذاً ولا ضَيْر . [٢]

* * *

لا صِراعَ للرّوح وللبَدَن إلّا في أذهان ذوي الأرواح الغافِيَة والأبدان الناشِزَة . [٣]

* * *

عندما تَصِلُ إلى جوهر الحياة ستُحِسُّ الجمال في كل شيء ، حتى في العيون التي عَمِيَتْ عن رؤية الجَمال .

* * *

إنما نعيش لنَهتَدِيَ إلى الجَمال ، وكُلُّ ما خلا ذلك لَوْنٌ من الانتظار .

* * *

ابذُرْ حبَّة تُعْطِكَ الأرضُ زَهْرَةً . وتَمَنَّ على السَّماء ما تتمنّى فستُواتيك السَّماءُ بمن تحب .

* * *

لأن الشّيطان مات في اليوم نفسه الذي وُلِدْتَ فيه ، فستلقى المَلاكَ دون أن تَصْطَلِيَ بنار الجحيم .

* * *

كم من امرأة تستعير قلبَ الرجل ، وما أندرَ اللائي يَقْدِرْن على امتلاكه !

* * *

إذا أردت حيازَةَ شيء فلا تُطالبْ به .

* * *

متى مسَّت يدُ رجل يدَ امرأة فقد مسّا معاً قلبَ الخلود .

* * *

الحبُّ قِناعٌ بين مُحِبٍّ ومُحَبٍّ .

* * *

لكلِّ رَجُلٍ محبوبتان ، إحداهما من نَسْجِ خياله ، والأخرى لَمّا تولد .

* * *

إن الذين لا يغفرون للنّساء أخطاءهن الصُّغرى لا يستمتعون أبداً بفضائلهن العُظْمى .

* * *

الحبُّ الذي لا يُضْفي على نفسه جديداً كل يوم يَستَحيلُ عادَةً ، ثم لا يَلْبَثُ أن يكون رِقًّا .

---

(١) خرَجَ هَوْناً : خَرَجَ خروجاً يسيراً . (٢) ضَيْر : ضرر .
(٣) الناشِزَة : النابية الخارجة عن القاعدة .

* * *

يُعانِقُ المتَحابّان ما بينهما (مِن ودٍّ) أكثر مما يُعانق أحدُهما الآخر .

* * *

ما اجتمع الشّك والحبُّ قطُّ على صَعيد التّجاوُب .

* * *

الحُبُّ كلمة من نور ، خَطَّتها يدٌ من نور ، على صَفْحَةٍ من نور .

* * *

الصّداقة دائماً تَبِعَةٌ حُلْوَة ، وما كانت قَطُّ فرصة تُنْتَهَزُ .

* * *

إذا لم تفهم صديقَك في كل حال فلن تفهمه أبداً .

* * *

أبهى حُلّة لك نَسَجَها غيرُك . وأشهى طعام لَدَيْكَ ما أصَبْتَه على مائدة غيرك . وأنعم فراش عَرَفْتَ ما كان في بيت غيرك . فالآن خَبِّرْني : أنّى لك أن تُباعد ما بينك وبين غيرك ؟

* * *

لن يلتقي عقلُك وقلبي أبداً ، إلّا أن يُمْسِكَ عَقْلُك عن السّعي بين الأرقام ، وقلبي عن السّعي في الضّباب .

* * *

لن يفهم أحدُنا عن الآخر إلّا حين نَخْتَصِرُ اللُّغَةَ إلى سبع كلمات .

* * *

أنّى لقلبي أن تُفَضَّ أختامُه إلّا إذا تحطّم .

* * *

ليس لغير حُزْن عميق أو فرح جَزيل أن يَكْشِفَ عن حقيقتك ، فإذا شئت أن تبيِّن حقيقتك فارْقُصْ في الشّمس عارياً ، أو احمل صَليبك .

* * *

لو ألْقت الطّبيعةُ بالاً لما نقول عن القَناعة فلن يجري نهرٌ إلى بحر أبداً ، ولن تجد شتاءً يَستحيل إلى ربيع ، وإن تُبالِ بما نُردِّد عن الادّخار ، فهل تُرى أكثرنا كان يَسْتافُ [١] هذا الهواءَ ؟

* * *

أنت لا ترى غير ظلّك حين تولّي ظهرَك للشّمس .

* * *

أنت حُرٌّ حين تُطالعك شمسُ يومك ، وحُرٌّ حين تُظِلُّك نجومُ اللّيل .

وأنت حرٌّ حين لا شمس ولا قمر ولا نجوم ، بل أنت حرٌّ حين تُغْمِضُ عينيك عن كل ما هو موجود .

ولكنك عبدٌ لمن أحببت ؛ لأنك تُحبُّه . وعبدٌ لمن أحبك ؛ لأنه يُحِبُّك .

* * *

كلنا نقف بباب الله سائلين ، وكلٌّ منا يَنالُه من فضل المليك نصيب ، حين يدخل الهيكل ، وحين يخرج منه . غير أننا جميعاً يَغارُ بعضُنا من بعض ، وليس في هذا تَوْقيرٌ للمليك .

* * *

ليس في مقدورك أن تأكلَ فوق ما تشتهي ؛ فاقتسم الرّغيف مع آخر ، وأبق شيئاً للطّارئ من الضُّيوف .

* * *

(١) يَسْتافُ : يشمّ .

لولا الضَّيفُ لأضْحَتْ بُيوتنا مَقابِرَ .

* * *

قال ذئب ظريف لِنَعْجَة ساذَجَة : « هلا تُشرِّفين دارَنا بزيارة ؟»

فأجابت النَّعجة : « لقد كان يُشرِّفني أن أزور بيتَك لو لم يكن مكانُه في جوفك .»

* * *

أوقفت ضيفي على عَتَبَة الدّار وقلت : « لا ، لا تمسح قدميك عند الدُّخول ، ولكن عندما تخرج .»

* * *

ليس الجودُ أن تعطيني ما أنا أشَدُّ منك حاجةً إليه، وإنما الجود أن تعطيني ما أنت أشَدّ إليه حاجة مني .

* * *

إنك مُحْسِنٌ حقًّا حين تعطي ، وعندما تعطي حَوِّلْ وجهَك حياءً ، فلا تُبْصِر مَنْ يَتَقبَّل عطاءك .

* * *

ما الفرقُ بين أكثر الناس غِنًى وأشدهم إملاقًا [١]، سوى يوم في سَغْبٍ [٢] وساعة على ظَمأ .

* * *

كثيراً ما نستعيرُ من الغد لنَرُدَّ ديونَ الأمس .

* * *

أنا الآخر تطوف بي الملائكة والشّياطين ، غير أني لا ألبث أن أدْرَأَهُمْ [٣] عن نفسي . فإذا ما طافَ بي ملكٌ أخَذْتُ في صلاة مأثورة فيضيق ذَرْعًا . وإذا ما طاف بي شيطانٌ اقْتَرَفْتُ إثمًا مطروقًا فَيعدِلُ عني .

* * *

وبعد ، فليس هذا بسِجن مَرْذول ، غير أني لا أحِبُّ هذا الجِدارَ يفصل بين زنزانتي وزنزانة السَّجين المجاور . وإني على ذلك أُؤكِّدُ لك أني غير راغب في لَوْم السَّجّان ، ولا مَنْ شَيَّدَ السِّجْنَ .

* * *

إن الذين يُعطونك حيَّة حين تسألهم سَمَكَةً قد لا يَمْلكون غير الحيّات ؛ فهو إذًا مِنْ جانبهم سَخاء .

* * *

قد ينجح الخِداعُ أحيانًا ، ولكنه دائمًا قاتل نفسه.

* * *

إنك حقًّا غفورٌ حين تَغْفِرُ لقتلة لا يَسْفِكون أبداً دَمًا ، وللصوص لا يَسْرِقون أبداً ، ولكَذَبَةٍ لا يَنْطقون بباطلٍ.

* * *

إن من يَلْمِسُ الفاصلَ بين الحَقّ والباطِل يَلْمِسُ بيديه أهداب رِداء الرَّب .

* * *

إذا كان قلبك بُرْكانًا فأنّى لك أن تَرى الأزهارَ تتفتَّح في يديك .

* * *

إليك غريبةً من غرائب إمتاع الذّات : مرّات أحِبُّ أن أكون المضَلَّل المخدوع ؛ كيما أضحك من الذين يَخالون أنّي لا أعرف أنّي المضلَّل المخدوع .

* * *

ماذا أنا قائل في هذا الذي يُطارد غيره ، ويتَظاهر بأن غيره يُطارِدُه ؟

* * *

دَعْ رِداءَك لمن يمسح به يديه الملوَّثَتين ؛ فقد يَحْتاجُ إليه ثانيةً ، أما أنت ففي غِنًى عنه .

(١) الإمْلاق : الافتقار (الفقر) .
(٢) السَّغْب : الجوع مع التعب . (٣) أدْرَأَهُمْ : أدفعهم .

* * *

من أسَفٍ أن الصَّيارِفَة لا يستطيعون أن يكونوا من خيرَة البُسْتانِيّين .

* * *

بربِّك لا تموِّه أخطاءك الغريزيَّة بفضائلك المكْتَسَبَة ؛ فإني أوثِرُ هذه الأخطاء بعينها ، فما أقربها شبهاً بأخطائي !

* * *

ما أكثر ما عَزَوْتُ [١] لنفسي جرائِمَ لم أقترفْها قَطُّ ؛ لأدع غيري يستريح في حضرتي .

* * *

إنما أقنعة الحياة أقْنِعَة لأسرار أشدَّ منها غموضاً .

* * *

لن تقدر أن تحكم على الآخرين إلّا بما تُمليه عليك مَعْرِفَتُك لنفسك ، فالآن خبِّرني : أيّنا البريء ، وأيّنا المذْنِب ؟

* * *

إن العادل حقًّا هو من يحس أنه شَريكك في النِّصْفِ من سيئاتك .

* * *

لا يَخْرُجُ على قانون وضَعَه الإنسانُ غيرُ مَعْتوه وعبقريٍّ ، وكلاهما أقربُ ما يكون إلى قلب الله .

* * *

لن تُسْرِعَ الخَطْوَ إلّا أن تكون مُطارَداً .

* * *

لا عَدُوَّ لي ؛ فإذا ما قُدِّر أن يكون لي عدوٌّ ، فاجعل ربِّ قوتَه كِفاء [٢] قوتي ؛ حتى تكونَ الغَلَبَةُ لِلْحَقِّ وَحْدَهُ .

* * *

سيجمعُ الموتُ بينك وبين عدوِّك برباط من الصَّداقة مَكين .

* * *

قد يَصْرَعُ المرءُ نَفْسَه وهو يُنافحُ [٣] عنها .

* * *

من زمن بعيد صُلب « رجل » لأنه كان مُفْرِط الحب ، وكان النّاس مُفْرِطين في حبه . ومن عَجَبٍ أني لَقيتُه بالأمس ثلاث مرات : كان في الأولى يَطْلُبُ إلى شرطيٍّ ألا يقود بَغِيًّا إلى السِّجْن ، وفي الثانية كان يُشارِبُ [٤] أحداً من المنبوذين ، وكان في الثّالثة يتبادَلُ اللَّكَمات مع رجل يُتاجِرُ بتعاليم الكَنيسة .

* * *

لو أن ما يقولونه عن الخير والشرِّ كان حقًّا ، إذاً لأضحت حياتي جريمةً مُتَّصِلَة .

* * *

الرَّحمة نِصْفُ العدالة .

* * *

إن الرَّجل الوحيد الذي لم يُنْصِفْني هو هذا الذي لم أُنْصِفْ أنا أخاه .

* * *

إذا أبصرتَ رجلاً يُقادُ إلى السِّجْن فَناجِ نفسك : « لعله قد خَلَصَ من سِجْن أكثر ضيقاً . » وإذا أبصرت رجلاً مخموراً فقل في نفسك : « عساه يرى النَّجاة بها من حال أشد قُبْحاً . » .

* * *

كثيرا ما أبْغضُ النّاسَ دِفاعاً عن نفسي ، ولو

(١) عَزَوْتُ : نسبتُ . (٢) كِفاء : مماثلة . (٣) يُنافحُ : يدافع . (٤) يُشارِبُ : يشرب معه .

كنتُ أكثر قوّة ما شَرَعْتُ [١] مِثْلَ ذاك السِّلاح .

* * *

ما أشدَّ غَباءَ من دارَى بَغْضاءَ عينيه بابتسامة من شفتيه .

* * *

لا يملك أن يَحْسِدَني أو يُبْغِضَني إلّا من كان دوني . وما حَسَدَني أحدٌ ولا أبغضني ؛ فلستُ أعلى منزلةً من أحد .

من هم أرفع منّي شأناً يملكون وحدهم إطرائي أو التّهوين من شأني . وما أطراني أحدٌ ولا هوّن منّي ؛ فلَسْتُ دون غيري .

* * *

إن قولك لي : « لستُ أفهم عنك » إطراءٌ يُجاوز قَدْري ، وازدراءٌ لك لستَ له أهلاً .

* * *

ما أهونني حين تَهبني الحياةُ ذهباً وأهَبُك فِضّةً ، ثم أعدُّ نفسي كريماً .

* * *

عندما تُدْرِكُ كُنْهَ الحياة سوف تَعْرِفُ أنك لست أرفع من المجرم ، ولا أَحطَّ من النّبيِّ .

* * *

مِنْ عَجَبٍ أنك تَرْثي لبطيء الخَطْوِ لا لبطيء الفَهْمِ ، ولأعْمَى البَصَرِ لا لأعمى البَصيرة .

* * *

إنه لمن الفِطْنة ألا يُحَطِّم الأعرجُ عُكّازَهُ على رأس عدوّه .

* * *

ما أجهلَ الذي يُعطيك مما في جَيْبِه ؛ عسى أن يأخُذَ مِمّا في قلبك !

* * *

الحياةُ مَوْكِبٌ يراه بطيءُ الخَطْوِ مُمْعِناً في السُّرعة فيتخلّف ، ويراه سريعُ الخَطْوِ مُمْعِناً في التّخلُّف ، فينقطع هو الآخر عنه .

* * *

إذا كان ثمَّ ما يُسَمَّى خطيئة ، فإن نفراً مِنّا يَقْتَرِفونها مُتأثّرين بخُطَى السَّلَفِ [٢] ، ونَفَراً مِنّا يُنَشّئون عليها أولادَنا بتحكُّمهم فيهم .

* * *

أكثرُ الناس صلاحاً من فَنيَ في التّعاطف مع الموصومين [٣] بأنهم من الطّالحين . [٤]

* * *

كُلُّنا سُجَناء ، غير أن فِئةً مِنّا في زَنازين ذات نَوافِذ ، وفئة لا نوافِذَ لِزَنازينها .

* * *

مِنْ عَجَبٍ أن حماسَتَنا حين نُدافع عن سيئاتنا أكثر منها حين نُنافحُ عن طيِّباتنا .

* * *

لو تكاشَفنا بخطايانا لَضَحِكَ بعضُنا من بعض ؛ لأننا عَجزنا عن أن نأتي بجديد ، ولو كَشَفْنا عن فضائلنا لَضَحِكْنا أيضاً ؛ للسَّبب عَيْنِه .

* * *

قد لا يَخْضَعُ الفردُ لشريعة قومه ، حتى يُجْرِمَ في حق أعرافهم ، وعندها لن يَعْلُوَ على غيره ، أو يَنْحَطَّ عنه .

* * *

(١) شَرَعَ الشَّيْءَ : أعْلاهُ وأظْهَرَهُ .

(٢) السَّلَف : كل من تقدم من الآباء وذوي القرابة .

(٣) الموصوم : المعيب . (٤) الطالح : الفاسِد .

الحكومة عَقْدٌ بيني وبينك ، وكثيراً ما أكون أنا وأنت مخطئين .

* * *

الجريمة إما اسم للحاجَة ، أو عارضٌ من عوارض المرَض .

* * *

هل بَعْدَ إدراكنا لخطايا غيرنا خطيئةٌ كبرى ؟

* * *

إذا ضَحِكَ منك غيرُك فلك أن تَرْثي له ، أما إذا ضحكتَ أنت منه فقد لا تَغْفِرُ ذلك لنفسك .

وإذا آذاك غيرُك فقد تَنْسى أذاه ، أما إذا آذَيْتَه أنت فسوف تذكر ذلك أبداً .

وفي الحقِّ أن غيرك ليس إلّا نفسك المفْرِطَة الحِسِّ قد أعْطِيَتْ بدناً آخر .

* * *

يا لَطَيْشِكَ حين تريد النّاسَ على أن يطيروا بجناحَيْك ، وأنت أعجزُ من أن تمدَّهم بريشة .

* * *

جلس إلى مائدتي ذات مرّة رجل فأكل خُبْزي ، ورَشَفَ [1] نَبيذي ، ثم غادرني يَهْزَأُ بي . ثم عاد ثانيةً إلى خبزي ونَبيذي فأقْصَيْته ، فسَخِرَتْ منّي الملائِكةُ .

* * *

البَغْضاء من الموت . من منكم يُحِبُّ أن يكون لَحْداً ؟ [2]

* * *

إنه لَمِمّا يُزْهَى به القتيلُ أنه ليس القاتل .

* * *

مِنْبَرُ الإنسانية في قلبها الصّامت ، لا في خاطِرها الثّرْثار .

* * *

نحن جميعاً مُصْعِدون إلى ذروة أمانيِّ قلوبنا . فإذا ما سَلَبَك رفيقٌ مُصْعِدٌ غِرارَتَك [3] وكيسَك ، سَمَّنه هذا وأثقلته تلك ، فأوْلى بك أن ترثي له ؛ سيكون الصُّعودُ أشَقَّ على سِمْنَته ، وسيطيلُ الثِّقَلُ طريقَه . فإذا ما رأيته أيها النَّحيل صاعِداً لاهثاً ببدانته فأعِنْهُ في خَطْوِه ، ولسوف يَزيدُ ذلك من سُرْعَةِ ارتقائك .

* * *

لن تستطيع أن تقضي في شأن إنسان فوق ما تَعْرِفُ عنه ، وما أقلَّ مَعْرِفَتَك !

* * *

لست أحبُّ أن أستَمِعَ إلى قاهرٍ يَعِظُ مَنْ قَهَرَهم.

* * *

الرَّجُلُ الحرُّ حقّاً هو من يتحَمَّل في صَبْرٍ نير العبد المقيَّد .

* * *

لألف عام خَلَتْ قال لي جاري : « إنّي بَرِمٌ [4] بحياتي ؛ فما هي إلّا قِطْعَةٌ من ألَم . » وبالأمس مَرَرْتُ بالمقابر ، ورأيت الحياة تَرْقُصُ فوق قبره .

* * *

ليس التّنازع في الطّبيعة إلّا فوضى تَحِنُّ إلى نظام .

* * *

الوَحْدَةُ عاصِفَة ساكِنَة تَنْزِعُ عَنّا أوراقَنا الجافّة ، وهي مع ذلك تُرسِلُ جذورَنا الحيَّة في أقصى أعماق القلب النّابض من الأرض الحيَّة .

---

(١) رَشَفَ : مصَّه بشفتيه .

(٢) اللّحد : شق يكون في جانب القبر للميت .

(٣) الغِرارة : وعاء من الخيش ونحوه ، يوضع فيه القمح ونحوه .

(٤) بَرِمٌ : سئِمٌ ضَجِر .

* * *

تحدّثت مرّة عن البحر إلى جدول فَخَالني الجدول مبالِغاً مُغْرقاً في الخيال ، وتحدّثتُ مرّة عن الجدول إلى البحر فظنّني البحر عَيّاباً أبغي التّشهير .

* * *

ما أضيقَه من خَيال ذاك الذي يُعْلي قَدْرَ نَشاط النّمل المحموم على شَدْوِ [1] الجَنادب ! [2]

* * *

قد تكونُ أسمى الفضائل في عالَمنا أدْناها في عالَم آخر .

* * *

يمضي العَميق إلى الغَوْر ، والمرْتَفعُ إلى الذّروة ، كلاهما في خَطٍّ مُسْتَقيم ، بينما لا يملك غيرُ الفسيح أن يتحرّك في دوائِرَ .

* * *

لولا مفهومُنا للأوزان لخَشَعْنا راهِبين أمام اليَراعَة [3] ، شأننا أمام الشّمس .

* * *

عالِمٌ بلا خَيال قَصّابٌ يَحْمِلُ سَكاكين كَليلَة [4] ، ومَوازينَ مُتآكِلَة . لكن ما الحيلةُ ونحن في أمسِّ الحاجَة إليه ، ولسنا جميعاً نَباتيين ؟

* * *

أنا عندهم مجنون ؛ لأنني لا أرْضى أن أبيعهم أيامي بِذَهَبٍ ، بل المجانين هم ؛ لأني أراهم يَخالون أيامي تُقوّم بثَمَنٍ .

* * *

كشَفوا لنا عن أغنى ما يملكون من ذَهَبٍ وفِضّة وعاج وأبَنوس ، فكَشَفْنا لهم عن قلوبنا وأرواحنا . وهم مع هذا يَعُدّون أنفسَهم أصحابَ الدّار ، ويَعُدّوننا الضّيوف .

* * *

إني لأوثِرُ أن أكون الأدنى بين ذوي الأحلام الطّامعين في تحقيقها ، على أن أكون الأعلى بين من لا حُلْمَ لهم ولا طَمَع .

* * *

أوْلى النّاس بالرِّثاء من يُحيل أحلامَه إلى ذَهَبٍ وفِضّة .

* * *

إذا كان لِزاماً عليك حقّاً أن تكون صريحاً فكُنْ صرَيحاً في رِفْقٍ أو فالزم الصّمت ؛ لأنّ في جيرَتنا رجلاً يُسْلِمُ الرّوح .

* * *

رُبَّ جِنازَةٍ عند بني الإنسان تكون عُرْساً بين الملائكة .

* * *

قد تَهْلِكُ الحقيقةُ المَنْسيّة وتُخَلِّف في وصيّتها آلافاً مُؤَلّفة من الوقائع والحقائق ، تُشارِكُ في جِنازَتها وفي بناء مَقْبرة لها .

* * *

في الحقّ أننا إنما نتحَدّث إلى أنفسنا ، غير أننا نَرْفَعُ صوتَنا أحياناً ؛ حتى يَسْمَعَنا الآخرون .

* * *

الأمر الواضح هو الذي لا يُرى أبداً ، إلى أن يُفْصِحَ عنه بَعْضُنا في يُسْرٍ .

* * *

---

(١) الشّدو : الغناء . (٢) الجَنادب : نوع من الجراد .

(٣) اليَراعَة : الحُباحب ، وهي حشرة ضئيلة تضيء في الظلام .

(٤) كَليلَة : ضعيفة لا تقطع .

عندما تُغَنّي يُصْغي (١) إليكَ الجائعُ ببَطْنِه .

* * *

ليس الموتُ بأدنى إلى المُسِنِّ منه إلى الوَليد ، وكذلك الحياة .

* * *

لو لم يكن طريق المَجرَّة في دَخيلَتي ما كان لي أن أراها وأعْرِفَها .

* * *

لن يصدِّقوا أني فَلَكِيٌّ حتى أكون طبيباً من الأطباء .

* * *

رُبَّما عرَّف البحرُ المَحارَةَ بأنها لؤلؤة ، ورُبَّما كان تَعريفُ الفَحْم عند الزَّمان : الألماس .(٢)

* * *

الشُّهْرَةُ ظِلٌّ للشَّهْوَةِ قائِمٌ في النّور .

* * *

الجِذْرُ زَهْرَةٌ تأبى الشُّهْرَةَ .

* * *

ليس بعدَ الجمال دينٌ أو عِلْمٌ .

* * *

كُلُّ عظيمٍ عَرَفْتُه انطَوَتْ بِنْيَتُه على هَنَةٍ صغيرة ، وكانت هذه الهَنَة الصَّغيرة هي التي حَمَتْه من القُعود ، أو الخَبَل ، أو الانتحار .

* * *

العظيمُ حقًّا هو الذي لا يَبْغي أن يَسودَ أحداً ، ولا يُحِبُّ أن أحداً يَسوده .

* * *

ما أحِبُّ أن أصَدِّقَ أن الإنسان تافِهٌ وسط الكائنات ، لا لشيء إلّا لأنه يقتل المجرمين والأنبياء .

* * *

التّسامُحُ مَحبَّة أصابها داءُ التّعالي .

* * *

لَسوف تَستحيلُ الدّيدانُ جِيَفاً (٣) ، ولكن أ ليس غريباً أن تَسْتَسْلِمَ الفِيَلَةُ أنفسُها لهذا المصير ؟

* * *

ربَّما كان الخِلافُ أقْصرَ طريق بين ذِهْنَيْن .

* * *

أنا اللَّهَبُ ، وأنا الهَشيم اليابِس ، وإنّ بعضي لَيأكُلُ بعضي الآخر .

* * *

نحن جميعاً نَنْشُدُ ذِرْوَةَ الجبل المقدَّس . ولكن أ لن يكون طريقُنا أقصر لو اتَّخذنا الماضي خريطةً ، لا دليلاً ؟

* * *

تخرج الحِكْمَةُ عن الحكمةِ إذا تعالَت عن أن تبكي ، وتَعاظَمَتْ عن أن تضحك ، وشُغِلَتْ بِحُبِّ ذاتها عن النَّظر إلى غيرها .

* * *

لو أنني مَلأتُ نفسي بكل ما تَعْرِفُه أنت ، فأيُّ مكانٍ يبقى لكُلِّ ما لا تَعْرِفُه ؟

* * *

(١) يُصْغي : يحسن الاستماع .

(٢) الألماس : حجر شفاف شديد اللمعان ، ذو ألوان . وهو أعظم الأحجار النفيسة قيمة ، وأشد الأجسام صلابة ، يؤثر في جميعها ، ولا يؤثر فيه جسم .

(٣) جِيَف : جمع جيفة ، وهي جثة الميت إذا أنتنت .

تعلّمت الصَّمْتَ من الثَّرثار ، والتّسامح عن المتَعصِّب ، والرِّقَّة عن القاسي . ومن الغريب أنّي على ذلك جاحِدٌ بحَقِّ هؤلاء المعَلّمين .

* * *

المُفرِطُ في التّعبُّد خَطيبٌ بالغُ الصَّمَمِ .

* * *

صَمْتُ الحَسود بالغُ الجَلَبَةِ .[1]

* * *

عندما تُدْرِكُ غايَةَ ما يَجِبُ أن تَعْلَمَ ، ستَبْلُغُ بدايةَ ما يَجِبُ أن تُحِسَّ به .

* * *

الغُلُوُّ حَقيقَةٌ فَقَدَتْ صَلابَتَها .

* * *

إذا كنتَ لا ترى غير ما يَكْشفُ عنه الضَّوء ، ولا تسمع غير ما يُعْلِنُه الصَّوْتُ ، فأنت في الحقِّ لا تُبْصِرُ ولا تَسْمَعُ .

* * *

الواقعُ حَقٌّ مُجَرَّدٌ ، لا هو بالمذكَّر ولا هو بالمؤنَّث.

* * *

لا تستطيع أن تَجْمَعَ بين الضَّحِكِ والغِلْظَة في آنٍ واحِدٍ .

* * *

أقْربُ النّاس إلى قلبي مَلِكٌ لا مُلْكَ له ، وفقير لا يَعْرِفُ كيف يَسْأَلُ .

* * *

رُبَّ إخفاقٍ حَيٍّ أنبلُ من نَجاح مُتَبَجِّحٍ .

* * *

(١) الجَلَبَة : الصياح والصخب .

اِحفِر أنّى شِئْتَ في الأرض فسوف تلقى كَنْزاً ، وما عليك إلّا أن تَحْفِرَ بإيمان الفَلّاح .

* * *

قال ثَعْلَبٌ يجري في إثْرِه عشرون فارساً ، وقَطيعٌ يَبْلُغُ العِشْرين من كلاب الصَّيْد : « إنهم لا شَكَّ إلى قتلي ساعون ، ولكن يا لَضَعْفِهم وغَبائهم ! أ ترى عشرين ثعلباً تمتطي عشرين جَحْشاً ، ويَصْحَبُها عشرون ذئباً تَحْفِلُ [2] بأن تُطارِدَ رجلاً واحداً تبغي قَتْلَه ؟ »

* * *

العَقْلُ مِنّا هو الذي يُذْعِنُ للشَّرائع التي وضعناها. أبداً لا تَخْضَعُ الرّوح فينا .

* * *

رَحّالَةٌ أنا وملّاحٌ ، ومع مَطْلَعِ كل يوم يَنْكَشِفُ لي في روحي إقليمٌ جديد .

* * *

اعترضت امرأةٌ قائِلَةً : « من المؤكَّد أنها كانت حرباً عادلة ؛ فقد سقط فيها ابني . »

* * *

قلت للحياة : « بودّي لو سمعتُ الموتَ يتكَلَّم . » ورفعت الحياةُ صوتَها شيئاً ما وقالت : « إنك لَتَسْمَعُه الآن . »

* * *

إذا ما جَلَوْت كلَّ أسرار الحياة نَزَعْت إلى الموت؛ إذ هو كذلك أَحَد أسرارها .

* * *

المولدُ والموتُ هما أسمى تعبير عن الشجاعة .

* * *

(١) تَحْفِلُ : تهتم .

يا صاحبي ، إني وإياك سنَظَلُّ غَريبَيْن عن الحياة ، ولن يَنْفَكَّ أحدُنا غريباً عن الآخر ، وغريباً كلٌّ مِنّا عن نفسه ، حتى يأتي يومٌ تقول فيه وأسْمَع ، وقد جعلتُ صوتَك صوتي أنا ، وعندما أقف أمامك إخال نفسي واقفاً أمام مِرآة .

* * *

يقولون لي : « إذا أنت عَرَفْتَ نفسَك عَرَفْتَ النّاسَ كُلَّهم .»

وأقول : « لن أعرِفَ نفسي حتى أسعى إلى الناس جميعاً .»

* * *

الإنسانُ رجلان : أحدهما مُسْتَيْقِظٌ في الظّلام ، والآخَرُ نائِمٌ في النّور .

* * *

النّاسِكُ هو من يَعْزِفُ [1] عن دنيا الجُزيْئات ؛ علّه يَأنَسُ بالدُّنيا كَلِّيَّةً ودون انقطاع .

* * *

بين العالِم والشّاعر حَقْلٌ ناضِرٌ ، إنِ اجتازه العالِمُ أصبح حكيماً ، وإنْ عَبَرَه الشّاعِرُ صار نبيّاً .

* * *

بالأمس رأيت جَمْعًا من الفلاسِفَة في السّوق ، يحملون رءوسهم في سِلالٍ [2] ، ويصيحون عالياً : « حِكْمَةً .. حِكْمَةً للبيع !»

يا لَبؤس الفلاسفة ! حَتْمٌ عليهم أن يبيعوا رءوسهم كي يُغَذّوا قلوبهم .

* * *

قال فيلسوفٌ لِكَنّاس في الطّريق : « إني أرثي لك ؛ عَمَلُك شاقٌ وقَذِر .»

وقال الكَنّاس : « شكراً لك ، يا سَيّدي . هات خبِّرني : ما عَمَلُكَ ؟»

أجاب الفيلسوف : « إني أفْحَصُ عقْلَ الإنسان : أفعاله ورَغَباته .»

عندها تولّى الكَنّاس بمِكْنَسَتِه ، وهو يقول باسماً: « إني لأرثي لك أنت الآخر .»

* * *

إن مَنْ يُصْغي إلى الحقِّ ليس دون مَنْ يَنْطق بالحَقِّ .

* * *

ما يَقْدر امرؤ أن يضع حدًّا فاصلاً بين الضّرورات والكَماليّات . الملائكة وحدهم يَقْدرون ، والملائكة حُكماء كاسِفو البال . من يدري فلَعَلَّ الملائِكَةَ هم أفكارنا المطهَّرة تَخْفُقُ في الفضاء ؟

* * *

إن الأميرَ الحَقَّ يَجِدُ عَرْشَهُ في قلوب الدّراويش .

* * *

الجودُ هو أن تَهبَ ما فوق قُدْرَتِك ، والكِبْرياء أن تأخُذَ دون حاجَتِك .

* * *

إنّك في الحقِّ غيرُ مَدينٍ لإنسان ما . أنت مَدينٌ بكلِّ ما تَمْلِكُ للنّاس أجمعين .

* * *

كلُّ مَنْ سَلَفَ من الخَلْق يَحْيَوْن معنا الآن . هيهاتَ أن يَرْضى أحدُنا أن يُسيء الضِّيافَةَ .

* * *

من طال شوقُه طال عُمْرُه .

* * *

---

(١) يَعْزِفُ : ينصرف ويزهد .

(٢) السّلال : أوعية تُحمل فيها الفاكهة ونحوها ، تصنع من شقاق القصب ونحوه .

يقولون لي : « عُصفورٌ في اليد يَعْدِلُ عشرةً على الشَّجَرَة .» غير أني أقول : « عُصفورٌ وريشةٌ على الشَّجرة أجْدى من عشرة عصافير في اليد . وإنَّ سَعْيَكَ في إثْرِ تلك « الرِّيشة » بالذَّات هو الحياة جُنِّحَتْ أقدامُها ، بل هو الحياةُ نَفْسُها .»

* * *

ليس في الدُّنيا غير عُنْصُرَيْن : الجمال والحق : الجمال في قلوب المحبِّين ، والحق في سواعد العاملين في الأرض حَرْثًا .

* * *

الجمال الفائِقُ يَأْسِرني ، بيد أن هُنالِكَ جمالاً أبهى ، يُطْلِقُ سَراحي حتى من إساره .[١]

* * *

الجمال أوسع إشراقًا في مُهْجَة مَنْ يَشْتاقُه منه في مُقْلَةِ مَنْ يراه .

* * *

إني لأَعْجَبُ بالرَّجل يَكْشِفُ لي عن خاطره ، وإني لأُكْبِرُ الذي يَحْسِرُ [٢] القِناعَ عن أحلامه : ولكن ما بالي أَسْتَحْيي وأحسُّ بعضَ الخَجَل بين يدَيْ مَنْ يَخْدمني ؟

* * *

ذلك كان يومًا يَفْخَرُ فيه الموهوبون بخدمتهم الأمراء . وهم اليوم يروْن الشَّرف في خِدْمَة الدَّهْماء .[٣]

* * *

يعلم الملائِكَةُ أن كثيرًا من الواقعيِّين يأكلون خُبْزَهم من عَرَقِ جَبين الحالِمين .

* * *

كثيرًا ما يكون الذَّكاء قِناعًا ، إذا مَلَكْتَ أن تَهْتِكَهُ وجدت إمّا عبقرية مُسْتَثارَة ، أو مَهارَة مُشَعْوِذَة.

* * *

يَصِفني الفَطِنُ بالفِطْنَة والبليد بالبلادة ، وإني لأظُنُّ كِلَيْهما على حقٍّ .

* * *

لا يَحْدِسُ أسرارَ قلوبنا إلّا مَنْ كان في قلوبهم أسْرار .

* * *

مَنْ أراد أن يُشارِكَك مَسَرّاتك دون آلامك ، فسيَفْقِدُ مِفْتاحًا لباب من أبواب الجنة السَّبعة .

* * *

أجل : هناك نيرڤانا :[٤]

هي في مَساقِ غَنَمِكَ إلى المَرْعى المُعْشِب ، وفي إسلامِك وَليدك للنَّوم ، وفي تسطيرك آخر بيت مِنْ قصيدتك .

* * *

نختارُ أفراحَنا وهمومَنا قبل أن نَبْلُوَها [٥] بأمَدٍ طويل .

* * *

ما الأسى غيرُ جِدارٍ قامَ بين جَنَّتَيْن .

* * *

ما إن يَكْبر فَرَحُك أو شَجَنُك [٦] حتى تُمسي الدُّنيا صغيرة في عينيك .

* * *

---

(١) الإسار : القَيْد . (٢) يَحْسِرُ : يكشف .
(٣) الدَّهْماء : عامة الناس .

(٤) نيرڤانا : كلمة سَنْسكْريتيَّة تفيد لغةً : إخماد النار أو الخروج من دائرة الذات :
– في العقيدة البوذية : حال الغبطة لدي القديس الكامل ، وهي الهدف الأسمى للمتعبِّد البوذيّ .
– عند البراهمة : نهاية التقمُّص عن طريق التلاشي في الروح الكلية .
(٥) نَبْلُوَها : نختبرها . (٦) الشَّجَنُ : الحزْن .

الرَّغْبَةُ نِصْفُ الحياة ، وقِلَّةُ المبالاة نِصْفُ الموت .

* * *

أمرُّ ما في أحزان اليوم ذِكْرى سَعادَةِ الأمس .

* * *

يقولون لي : « حَتْمٌ عليك أن تختار بين مَتاعِ هذه الدُّنيا وسَلامِ الآخرة . »

وأقول لهم : « لقد اخترتُهما معاً : مَتاعَ الدُّنيا ، وسَلامَ الآخِرَة ؛ لأني أعلم في قرارَة نفسي أن الشّاعر الأعلى لم يكتب غير قصيدة واحدة ، تامَّة الوَزْن ، وسَليمة الإيقاع أيضاً . »

* * *

الإيمان واحَةٌ في القَلْبِ ليس لقافِلَة الفِكْر أن تَبْلُغَها أبداً .

* * *

عندما تَبْلُغُ ذُرْوَتَك سوف تُحِسُّ الرَّغْبَة لا لشيء إلّا للرَّغْبة ، وسوف تُحِسُّ الجوعَ إلى الجوع ، وسوف تُحِسُّ الظَّمأ لِظمأ أشَدّ .

* * *

إذا كشفت عن سِرِّك للرِّيح ، فلا تَلومَنَّ الرِّيحَ إذا هي كَشَفَتْ عنه للأشجار .

* * *

أزهارُ الرَّبيع هي أحلامُ الشّتاء ، تَحكيها الملائِكَةُ على موائد الصَّبوح .[1]

* * *

قال الظَّرِبَان [2] للياسَمين المائيّ : « انظر كيف أعْدو سريعاً ، على حين لا تستطيعُ أنت أن تمشي ، بَلْهَ [3] أن تَزْحَفَ . »

(١) الصَّبوح : ما يؤكل أو يُشرب في الصباح .

(٢) الظَّربان : حيوان من اللواحم ، صغير الجثة ، مجتمع الرأس ، أصلم الأذنين ، طويل الخطم ، قصير القوائم ، منتن الرائحة.

(٣) بَلْهَ : بَلْ .

فقال الياسَمين للظَّرِبان : « يا أيُّها العَدّاء الرَّفيعُ القَدْرِ ، بالله أسْرِع في عَدْوِك ! »

* * *

السَّلاحِفُ أعْلَمُ بالطَّريق من الأرانب .

* * *

مِنْ عَجَبٍ أنَّ أصْلَبَ الدُّروعِ في المَخْلوقات التي يُعْوِزُها العمودُ الفِقَريّ .

* * *

أكثرُ النّاس كلاماً أقَلُّهم ذَكاءً ، وليس ثمَّة فارِقٌ كبيرٌ بين خَطيب ودَلال .

* * *

كُنْ شاكراً لأنك لا تعيش على صيتِ أب يَخْبو ولا بثروة عَمٍّ تتبدّد ؛ بل اشكر بخاصة أنْ لن يكون ثمَّة إنسانٌ له أن يعيش على صيتٍ لك يَذْهَب أو ثَرْوَةٍ تَغيضُ .[4]

* * *

لا يَسْتَغيثُ بي المَشْعُوذ إلّا حين يَعْيا عن التقاط كُرته .

* * *

يَمْتَدِحُني الحسود وهو لا يدري .

* * *

طالما كنتَ حُلْماً من أحلام أمك في منامها ، ثم استيقظَتْ لِتَلِدَك .

* * *

أصلُ البَشَر يَكْمُنُ في شوق أمك .

* * *

تمنّى أبي ، وأمي تمنَّت : أن يكون لهما وليدٌ

(٤) تَغيضُ : تنقص وتذهب .

فَوَلَداني ، ثم تاقَتْ نفسي أن يكون لي أمٌّ وأبٌ فَوَلَدْتُ اللَّيلَ والبَحْرَ .

* * *

أبناؤنا : بَعْضُهم تبريرٌ لوجودنا ، وبعضهم ليسوا إلّا حَسَراتنا .

* * *

إذا حَلَّ اللَّيْلُ وكنتَ أنتَ مِثْله ظُلْمَةً ، فارقُدْ وكن مُظْلِماً عن اختيار .

وإذا انبَلَجَ الصُّبْحُ وكنتَ لا تزالُ مُظْلِماً فانهض ، وأعْلِنِ النّهار مُريداً أنك لا تزالُ على إظلامك ؛ فمن الحُمْق أن تُخادِعَ اللَّيْلَ والنّهار ، ولو فعلتَ لَسَخِرَ كِلاهما منك .

* * *

إن الجبلَ الذي يَلفُّه الضَّبابُ ليس تَلّاً ، وشَجَرَةَ البلّوط التي غَمَرَها المطرُ ليست صَفْصافَةً باكِيَة .

* * *

انظر : هاك لوناً من الخُلْفِ [١] : إن العميقَ والمرتَفع بعضهما أقرب إلى بعض مِمّا يَتَوَسَّطهما .

* * *

إذا وقفتُ أمامَك مِرْآةً صافِيَة حَمْلَقْتَ فيَّ ، ورأيتَ صورتَك ، ثم قلتَ : « أُحِبُّكَ » . وفي الحق أنك تُحِبُّ صورتَك فيَّ .

* * *

إذا استمتعتَ بمحبتك لِجارك ، تبدّلت المحبةُ فلا تعود فَضيلَةً .

* * *

في مَواتٍ [٢] دائمٍ حبٌّ لا يَفيضُ دوماً .

* * *

لن تقوى على أن تَمْلِكَ الشّبابَ والمعْرِفَةَ به معاً؛ إذ الشّباب في شُغْل شاغل بحياته عن المعْرِفَة ، والمعْرِفَةُ في شُغْل شاغل عن الحياة بالبَحْثِ عن نفسها .

* * *

لقد تَجْلِسُ إلى نافِذَتك تُراقِبُ المارّةَ ، فترى راهِبَةً تمشي عن يمينك وعاهِراً تمشي عن يَسارك ، وقد تقول في براءة : « ما أشْرَفَ هذه ، وما أوضع الأخرى ! »

ولو أنك أغْمَضْتَ عينيك وأنْصَتَّ هُنَيْهَةً لَسَمِعْتَ صوتاً يَهْمِسُ في الأثير : « إحداهما تَسْعى إليّ بعبادتها ، والأخرى بشَقائها . وفي روح كِلَتَيْهِما مَهْجَعٌ لروحي . »

* * *

مرّةً كل مائة عام ، في بستان بين تِلال لبنان ، يلقى عيسى النّاصريّ عيسى النّصارَى ويتحادثان طويلاً . وفي كل مرّة يمضي عيسى النّاصريّ وهو يقول لعيسى النصارى : « يا صديقي ، إني لأخْشى ألا نَتّفِقَ أبداً أبداً . »

* * *

عسى الله أن يُطْعِمَ المتْخَمين ! [٣]

* * *

لكلِّ عظيمٍ قَلْبان : قلب يَقْطُر ، وقلب يَتَوَثَّبُ .

* * *

إذا عَنَّ [٤] لرجل أن يَكْذبَ كذبة لا تسيء إليك ولا إلى غيرك ، فلم لا تُناجي نفسك قائلاً : « إنّ بيت الحقائق عنده لأصْغَرُ من أن يتّسع لِخَياله ؛ فكان عليه أن يتركَه إلى فضاء أوسع . »

* * *

---

(١) الخُلْف : الاختلاف . (٢) المَوات : ما لا حياة فيه .

(٣) المُتْخَمون : الذين أصابتهم التُّخَمة ، وهي داء يصيب الإنسان من امتلاء المعدة . (٤) عَنَّ : عَرَض .

خَلْفَ كُلِّ بابٍ موصَدٍ سِرٌّ قد خُتِمَ بسبعة أختام.

* * *

ما الانتظارُ إلّا حوافِرِ الزّمان .

* * *

أ لا يكون الهمُّ نافِذَةً جديدة في الجِدار الشرقيِّ مِنْ بيتك ؟

* * *

قد تَنْسى من شاركك الضَّحِكَ ، ولكنك لا تنسى أبداً من شاطَرَكَ البُكاءَ .

* * *

لا بدَّ أن يكون ثَمَّة شيء غريبُ القَداسَةِ في المِلْح ؛ إنه في دموعنا ، وفي البحر .

* * *

يومَ يُحِسُّ الله ظَمَأَهُ الرَّفيقَ سوف يُشرِبُنا جميعاً : قطرة النَّدى وعَبْرَة [1] العين .

* * *

ما أنت إلّا شَظِيَّة من ذاتك الكُبْرى : فَم يطلب الخُبْزَ ، ويد ضالّة تَحْمِلُ الكأسَ إلى فَمٍ شَفَّه الظَّمأ .

* * *

إذا سَمَوْت ذِراعاً فَحَسْبُ على التَّعَصُّب لجِنْسِك وبلدك وذاتك كنتَ حقًّا صورةً من ربِّك .

* * *

لو كنتُ مكانك ما أنحَيْتُ باللّائِمَة على البحر حين يَنْحَسِرُ في جَزْرِه .

إنّ سفينتنا لثابِتَة ، وإن رُبّانها الأعلى لَقَديرٌ . ما في الأمر شيء سوى أن مَعِدَتَك مُضْطَرِبَة .

* * *

إن ما نَصْبو إليه ويفوتنا لأعزُّ علينا مما قد بَلَغْنا .

* * *

لو قُدِّر لك أن تجلس فوق سَحابة ما رأيت الحدَّ الفاصِلَ بين بلد وآخر ، ولا الصَّخْر الفاصل بين مزرعة ومزرعة ؛ غير أنه مِنْ أسَفٍ أنك لا تستطيع الجلوسَ فوق سَحابَة .

* * *

منذ قرون سبعة هبَّت سَبْعُ حمامات من وادٍ سَحيق ، تُحلِّق إلى قمة الجبل وقد كساها الثَّلْجُ النّاصع . وقال رَجُلٌ من الرِّجال السَّبعة الذين كانوا يشاهدونها وهي تطير : « إني أرى بُقْعَةً سَوْداءَ على جَناح الحمامة السّابعة .»

واليوم في ذلك الوادي يروي النّاسُ خَبَرَ حمامات سبع سودٍ ، قد طارت إلى قِمَّة الجبل التي كَساها الثَّلْجُ .

* * *

في الخريف جمعتُ همومي ودَفَنْتُها في بُسْتاني، ولما عاد أبريل ، وجاء الربيع لِيَزُفَّ إلى الأرض أيْنَعَتْ في حديقتي أزهارٌ فاتِنَة لا مثيل لها بين الأزهار . وخفَّ إليَّ جيراني ليروها ، وقالوا لي جميعاً : « حين يَرْجِعُ الخريفُ وَقْتَ البَذْرِ هلّا تعطينا من بُذور تلك الأزهار ؛ فتنوِّر في بساتيننا ؟»

* * *

إنه شقاءٌ حقًّا أن أمُدَّ يدي فارِغَةً إلى النّاس ثم لا أنال شيئاً ، ولكنه القُنوط إذا مَدَدْتُ يدي مَلأى فلم أجِدْ مَنْ ينال منها .

* * *

مَشوقٌ أنا إلى الأبديَّة ؛ هناك سوف ألْقَى قصائدي التي لم أكتبها ، وصوراً لي لم أرسمها .

* * *

الفَنُّ خُطْوَةٌ من خُطى الطّبيعة إلى اللّانهائيَّة .

---

(١) عَبْرَة : دمعة .

* * *

العَمَلُ الفَنّيُّ ضَبابٌ نُحِتَ صورةً .

* * *

حتى الأيدي التي تَصْنَعُ من الشَّوْكِ تيجاناً خيرٌ من الأيدي البليدة .

* * *

إن أشدَّ دموعِنا قُدْسيَّةً هيهات أن تَعْرِفَ الطَّريقَ إلى مآقينا .[1]

* * *

ما مِنْ إنسان إلّا هو سَليل كُلِّ مَلِكٍ وكُلِّ عَبْدٍ عاشَ من قَبْلُ .

* * *

لو أن الجَدَّ الأعلى لعيسى عَرَفَ ما هو مُخبّأ فيه ، أ فتراه كان لا يقف خاشعاً أمام نفسه ؟

* * *

ترى أ كان حُبُّ أمّ يهوذا لابنها دون حُبِّ أمّ عيسى لولدها ؟

* * *

هناك معجزات ثلاثة لأخينا عيسى لمّا [2] تُسَجَّل في « الكتاب » :

أولاها : أنه كان إنساناً مِثْلك ومِثْلي .

وثانيتها : أنه كان فيه روح الدُّعابَة .

وثالِثَتها : أنه عَرَفَ أنه الغالب ، وإن غُلِبَ .

* * *

أيها المصْلوب ، لقد صُلِبْتَ على قلبي ، والمسامير التي اخترقت يديك تَخْتَرِقُ جُدْرانَ قلبي .

وغداً عندما يمرُّ غريبٌ بتَلِّ الجُلْجُثَة [3] الكامن في قلبي ، لن يعرف أن اثنين ها هنا قد سال دَمُهُما ، بل سيرى فيهما دماً واحداً .

* * *

لعَلّك سَمِعْتَ عن الجبل المقدّس . إنه أعلى جَبَل في دُنْيانا ، وإذا قُدِّر لك أن تَبْلُغَ قِمّتَهُ فلسوف تكون لك رَغْبَةٌ واحِدَة ، هي أن تَهْبطَ لتكون بين الذين يَسْكُنون أعْمَقَ الأودِيَة ؛ من أجل هذا سَمّوه بالتّحديد الجبل المقدس .

* * *

كُلُّ فِكْرَة قيّدها لساني باللّفظ ، حَتّمَ عليَّ أن أحَرِّرَها بالعَمَل .

---

(١) المآقي : مجاري الدمع في العين .

(٢) من الحروف التي تجزم فعلاً واحداً ، وتفيد النّفي والقلب والاستغراق . ونفيها يستغرق جميع أجزاء الزمان الماضي حتى يتصل بالحال . والمعنى هنا : لم تُسَجَّلْ بعد .

(٣) الجلجثة : المكان الذي تم فيه صلب السيد المسيح .

الأرواحُ المتمرِّدة

إلى الرّوحِ التي عانَقَتْ روحي .. إلى القَلْبِ
الّذي سَكَبَ أسرارَه في قلبي .. إلى اليَدِ التي أوْقَدَتْ
شُعْلَةَ عواطِفي أرْفَعُ هذا الكِتابَ .

جبران

وردة الهاني

١

ما أتعس الرَّجُل الذي يُحِبُّ صَبيّة من بين الصَّبايا ويتّخذها رَفيقةً لحياته ، ويهرق على قدميها عَرَقَ جَبينه ودَمَ قلبه ، ويضع بين كفَّيها ثمار أتعابه وغَلَّة اجتهاده ، ثم ينتبه فجأة فيجد قلبها الذي حاول ابتياعه [١] بمُجاهَدة الأيام وَسَهَر الليالي قد أُعْطِيَ مَجّاناً لرجل آخر ؛ ليتمتَّع بمكنوناته ويسعد بسرائر محبّته !

وما أتعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشّبيبة فتجد ذاتها في منزل رجل يَغْمُرها بأمواله وعطاياه ، ويُسَرْبِلُها [٢] بالتّكريم والمؤانَسة ، لكنه لا يَقْدِر أن يُلامس قلبها بشُعْلَة الحب المحْيِيَة ، ولا يستطيع أن يُشبع روحها من الخمرة السّماوية التي يسكبها الله من عيني الرَّجل في قلب المرأة ! [٣]

عرفت رشيد بك نعمان منذ حداثتي ، وهو رجل لبناني الأصل ، بيروتي المولِد والدّار ، متحدِّر من أسرة قديمة غنيَّة ، موصوفة بالمحافظَة على ذِكْر الأمجاد الغابرة . فكان مولَعاً بسَرْد الحوادث التي تُبَيِّن نَبالة آبائه وجدوده ، مُتَّبِعاً بمعيشته عقائدهم وتقاليدهم ، منصرفاً إلى تقليدهم في العادات والأزياء الغربية المَرَفْرِفَة كأسراب الطُّيور في فضاء الشَّرق .

وكان رشيد بك طيِّب القلب ، كريم الأخلاق ، لكنه كالكثيرين من سُكّان سوريا ، لا ينظر إلى ما وراء الأشياء ، بل إلى الظّاهر منها . ولا يُصْغي إلى نَغْمَة نفسه ، بل يَشْغَلُ عواطفه باستماع الأصوات التي يُحْدِثُها محيطه . ويُلْهي أمياله [٤] ببَهْرَجة المرئيّات التي تعمي البَصيرة عن أسرار الحياة ، وتحول النَّفْس عن إدراك خفايا الكِيان [٥] إلى ملاحظة الملَذّات الوَقْتِيَّة . وكان من أولئك الرجال الذين يتسرَّعون بإظهار محبتهم أو مَقْتهم للنّاس وللأشياء ، ثم يندمون على تَسَرُّعهم بعد فوات الوقت ، عندما تصير النَّدامة مَجْلَبَة للسُّخرية والاستهزاء ، بدلاً من العَفْو والغُفْران .

هذه هي الصِّفات والأخلاق التي جعلت رشيد بك نعمان يقترن بالسَّيِّدة وردة الهاني ، قبل أن تضم نفسَها نفسُه في ظل المحبَّة الحقيقية التي تجعل الحياة الزَّوجية نعيماً .

غِبْتُ عن بيروت بضعة أعوام ، ولما رجعت إليها ذهبت لزيارة رشيد فوجدته ضعيف الجسد ، مكمد اللون [٦] ، تتمايل على سحنته المنقَبِضَة أشباح الأحزان ، وتنبعث من عينيه الحزينتين نظرات موجعَة تتكلَّم بالسَّكينة عن انسحاق قلبه وظُلْمة صدره . وبُعَيْدَ أن بحثت في محيطه ولم أجد أسباب نحوله وانقباضه سألته قائلاً :

« ما أصابك أيها الرجل ، وأين تلك البَشاشة التي كانت تنبعث كالشُّعاع من وجهك ؟ وأين ذهب ذاك السُّرور الذي كان ملاصقاً شبيبتك ؟ هل فَصَل الموت بينك وبين صديق عزيز ، أم سَلَبَتك الليالي السَّوداء مالاً جَمَعْتَه في الأيام البيضاء ؟ قل لي بحَقِّ الصَّداقة ما هذه الكآبة المعانِقَة نفسك ، وهذا النُّحول المالِك جسدك ؟»

فنظر إليَّ نظرة متأسِّف ، أرَتْه الذِّكرى رسوم أيام جميلة ثم حَجَبَتْها . وبصوت تتموَّج في مقاطعه معاني اليأس والقنوط قال :

« إذا فقد المرء صديقاً عزيزاً والتفت حوله يجد الأصدقاء الكثيرين فيتصبَّر ويتعزَّى ، وإذا خسر الانسان مالاً وفكَّر قليلاً ، رأى النشاط الذي أتى بالمال سيأتي بمثله فينسى ويسلو . ولكن إذا أضاع الرَّجل راحَة قلبه فأين يجدها ، وبِمَ يستعيض عنها ؟ يمدُّ الموت يده ويصفعك بشدة فتتوجَّع ، ولكن لا يمرّ يوم وليلة حتى تشعر بملامس أصابع الحياة فتبتسم وتفرح . يجيئك الدهر على حين غفلة ، ويحدِّق بك بأعين مستديرة مخيفة ، ويقبض على عنقك بأظفار مُحَدَّدة ، ويطرحك بقساوة على

---

(١) ابتياعُه : شراؤه واكتسابه . (٢) يُسَرْبِلُها : يقصد يغمرها ويغطيها . (٣) في الأصل : الإمرأة .

(٤) أمياله : ميوله ونوازعه . (٥) الكِيان : الكَوْن .

(٦) مكمد اللون : متغير اللون .

التُّراب ، ويدوسك بأقدامه الحديديّة ويذهب ضاحكاً ، ثم لا يلبث أن يعود إليك نادماً مستغفراً فينتشلك بأكُفّه الحريريّة ويغني لك نشيد الأمل فيطربك .

« مصائبُ كثيرة ، ومتاعب أليمة تأتيك مع خيالات الليل تضمحلّ أمامك بمجيء الصباح ، وأنت شاعر بعزيمتك ، مُتَمَسِّك بآمالك . ولكن إذا كان نصيبك من الوجود طائراً تحبه ، وتطعمه حبّات قلبك ، وتسقيه نور حدقتيك [١] ، وتجعل ضلوعك له قفصاً ومهجتك عُشًّا . وبينما أنت تنظر إلى طائرك وتغمر ريشه بشعاع نفسك ، إذا [٢] به قد فرّ من بين يديك ، وطار حتى حلق فوق السحاب ، ثم هبط نحو قفص آخر ، وما من سبيل إلى رجوعه ؛ فماذا تفعل إذ ذاك أيها الرجل ؟ قل لي ماذا تفعل ، وأين تجد الصَّبر والسُّلوان ، وكيف تُحيي الآمال والأماني ؟»

لفظ رشيد بك الكلمات الأخيرة بصوت مخنوق متوجع ، و وقف على قدميه [٣] مرتجفاً كقصبة في مهب الريح ، ومد يديه إلى الأمام كأنه يريد أن يقبض بأصابعه المعوَجّة على شيء ليمزّقه إرْبًا إرْبًا ، وقد تصاعد الدم إلى وجهه وصبغ بشرته المتجعّدة بلون قاتم . وكبرت عيناه وجمدت أجفانه ، وحدّق [٤] دقيقة كأنه رأى أمامه عفريتاً قد انبثق من العدم وجاء ليميته ، ثم نظر إليّ وقد تغيّرت ملامحه بسرعة ، وتحول الغضب والحنق في جسده المهزول إلى التوجُّع والألم ، وقال باكياً :

« هي المرأة ؛ المرأة التي أنقذتها من عبوديّة الفقر، وفتحت أمامها خزائني ، وجعلتها محسودة بين النساء على الملابس الجميلة ، والحُلى الثمينة ، والمرْكَبات الفخمة ، والخيول المطهّمة .[٥] المرأة التي أحبها قلبي وسكب على قدميها عواطفه ، ومالت إليها نفسي فغمرتها بالمواهب والعَطايا . المرأة التي كنت لها صديقاً ودوداً ، ورفيقاً مخلصاً ، وزوجاً أميناً قد خانتني وغادرتني ، وذهبت إلى بيت رجل آخر لتعيش معه في ظلال الفقر ، وتشاركه بأكل الخبز المعجون بالعار ، وشُرْب الماء الممزوج بالذُّل والعَيْب .

« المرأة التي أحببتها ؛ الطائر الجميل الذي أطعمته حبّات قلبي ، وسقيته نور حدقتيّ ، وجعلت ضلوعي له قفصاً ومهجتي عُشًّا ، قد فرّ من بين يديّ وطار إلى قفص آخر محبوك من قضبان العَوْسج [٦] ؛ ليأكل فيه الحَسَك [٧] والديدان ، ويشرب من جوانبه السُّمّ والعَلْقَم . الملاك الطّاهر الذي أسكنته فردوس محبّتي وانعطافي ، قد انقلب شيطاناً مخيفاً ، وهبط إلى الظلمة ؛ ليتعذّب بآثامه ويعذّبني بجريمته .»

وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفّيه ، كأنه يريد أن يحمي نفسه من نفسه ، ثم تنهّد قائلاً :

« هذا كل ما أقدر أن أقوله ؛ فلا تسألني أكثر من ذلك ، ولا تجعل لمصيبتي صوتاً صارخاً ، بل دعها مصيبة خرساء ؛ لعلها تنمو بالسكينة فتميتني وتريحني .»

فقمت من مكاني والدموع تُراود أجفاني ، والشّفقة تسحق قلبي ، ثم ودعته ساكتاً ؛ لأنني لم أجد في الكلام معنى يُعَزّي قلبه الجريح ، ولا في الحكمة شُعْلَة تنير نفسه المظلمة .

٢

بعد أيام التقيت لأول مرّة بالسيدة وردة الهاني ، في بيت حقير محاط بالزهور والأشجار . وكانت قد سمعت لفظ اسمي في منزل رشيد بك نعمان ، ذلك الرجل الذي داست قلبه وتركته ميتاً بين حوافر الحياة . ولمّا رأيتُ عينيها المنيرتين ، وسمعت نَغْمَة صوتها الرّخيمة ، قلت في ذاتي :

« أ تقدر هذه المرأة أن تكون شريرة ؟ وهل بإمكان هذا الوجه الشفّاف أن يستر نفساً شنيعة

---

(١) في الأصل : أحداقك . (٢) في الأصل : إذ به .
(٣) في الأصل : أقدامه . (٤) في الأصل : وأحدق .
(٥) المطهّمة : تامة الحسن .
(٦) العَوْسج : جنس شجيرات من فصيلة الباذنجانيات ، أغصانه شائكة وأزهاره مختلفة الألوان .
(٧) الحَسَك : نبات شائك .

وقلباً مجرماً ؟ أ هذه هي الزوجة الخائنة ؟ أ هذه هي المرأة التي جنيتُ عليها مرّات عديدة بتصويرها لفكري كثعبان مخيف مختبئ في جسم طائر بديع الشكل ؟»

ولكني رجعت وهمستُ في سرّي قائلاً :

« إذن أي شيء جعل ذلك الرجل تعساً إذا لم يكن هذا الوجه الجميل ؟ أ وَ لم نسمع ونَرَ أن المحاسن الظاهرة كانت سبباً لمصائب خفيّة هائلة ، وأحزان عميقة أليمة ؟ أ وَ ليس القمر الذي يسكب في قرائح الشعراء شعاعاً هو القمر الذي يهيّج سكينة البحار بالمدّ والجزْر ؟»

جلستُ وجلست السيدة وردة ، وكأنها قد سمعتني مفكراً [١] ؛ فلم تُرِدْ أن يطول الصراع بين حيرتي وظنوني ، فأسندت رأسها الجميل بيدها البيضاء ، وبصوت يحاكي نغْمة النّاي رقّة قالت :

« لم ألتقِ بِك قبل الآن أيها الرجل ؛ ولكني سمعت صدى أفكارك وأحلامك من أفواه الناس ، فعرفتك شفوقاً على المرأة المظلومة ، رؤوفاً بضعفها ، خبيراً بعواطفها وميولها . من أجل ذلك أريد أن أبسط لك قلبي ، وأفتح أمامك صدري ؛ لترى مُخبّآته ، وتخبر الناس — إن شئت — بأن وردة الهاني لم تكن قطُّ امرأة خائنة شريرة .

« كنت في الثامنة عشرة من عمري ، عندما قادني القدر إلى رشيد بك نعمان ، وكان هو إذ ذاك قريباً من الأربعين ، فشُغف بي ومال إليّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس ، ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين خدامه الكثيرين ، فألبسني الحرير ، وزيّن رأسي وعنقي ومعصميّ بالجواهر والحجارة الكريمة . وكان يعرضني كتحفة غريبة في منازل أصدقائه ومعارفه ، ويبتسم ابتسامة الفوز والانتصار عندما يرى عيون أترابه ناظرة إليّ بإعجاب واستحسان، ويرفع رأسه تيهاً وافتخاراً إذ يسمع نساء أصحابه يتكلّمن عنّي بالإطراء والمودّة . ولكنه لم يكن يسمع قول السائل : « أ هذه زوجة رشيد بك أم هي صبيّة تبنّاها ؟» وقول الآخر : « لو تزوّج رشيد بك في زمن الشباب لكان بكره أكبر سناً من وردة الهاني .»

« جرى كل ذلك قبل أن تستيقظ حياتي من سُبات الحداثة العميق ، وقبل أن توقد الآلهة شعلة المحبّة في قلبي ، وقبل أن تنبت بذور العواطف والأميال في صدري . نعم جرى كل ذلك عندما كنت أحسب منتهى السعادة في ثوب جميل يزيّن قامتي ، ومَرْكَبَة فخمة تجرني ، ورياش ثمينة تحيط بي . ولكن عندما استيقظت — عندما استيقظت ، وفتح النور أجفاني ، وشعرت بألسنة النار المقدّسة تلسع أضلعي وتحرقها ، وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسي فتوجعها — عندما استيقظت ورأيت أجنحتي تتحرّك يميناً وشمالاً ، وتريد النهوض بي إلى سماء المحبّة ، ثم ترتجف وترتخي عجزاً بجانب سلاسل الشريعة التي قيّدت جسدي قبل أن أعرف كُنْه تلك القيود ومُفاد [٢] تلك الشريعة — عندما استيقظت وشعرت بهذه الأشياء ، عرفت أن [٣] سعادة المرأة ليست [٤] بمجد الرجل وسُؤْدَده ، ولا بكرمه وحِلْمه ، بل بالحبّ الذي يضمّ روحها إلى روحه ، ويكسب عواطفها في كبده ، ويجعلها ويجعله عضواً واحداً من جسم الحياة وكلمة واحدة على شفتي الله .

« عندما بانت هذه الحقيقة الجارحة لبصيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لصّ سارق يأكل خبزه ثم يستتر بظلام الليل ، وعرفت أن [٥] كل يوم أصرفه بقُرْبه هو كذبة هائلة يخطُّها الرّياء بأحرف ناريّة ظاهرة على جبهتي أمام الأرض والسماء ؛ لأنني لم أقْدِر أن أهبَه محبّة قلبي لِقاءَ كرمه ، ولا أن أمنحه انعطاف نفسي ثمناً لإخلاصه وصلاحه . وقد حاولتُ ، وباطلاً حاولتُ ، أن أتعلّم محبّته فلم أتعلّم ؛ لأن المحبة هي قوة تَبْتَدِع قلوبنا ، وقلوبنا لا تقدر أن تبتدعها . ثم صلّيت وتضرّعت ، وباطلاً تضرّعت وصلّيت ، في سكينة الليالي أمام السماء ؛

(١) في الأصل : مفتكراً.

(٢) المفاد : المضمون والفحوى . (٣) في الأصل : بأن .

(٤) في الأصل : ليس . (٥) في الأصل : بأن .

لتولَّد في أعماقي عاطفة روحية تقرِّبني من الرجل الذي اختارته رفيقاً لي فلم تفعل السماء ؛ لأن المحبة تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله لا بطلب من البشر . وهكذا بقيت عامين كاملين في منزل ذلك الرجل أحسد عصافير الحقل على حريتها ، وبناتُ جنسي يحسدنني على سجني ، وكالثَّكْلى الفاقدة وحيدها كنت أندب قلبي الذي وُلد بالمعرفة واعتلَّ بالشريعة ، وكان يموت في كل يوم جوعاً وعطشاً .

« ففي يوم من تلك الأيام السوداء ، نظرت من وراء الظلمة فرأيت شعاعاً لطيفاً ينسكب من عيني فتى يسير وحده على سبل الحياة ، ويعيش منفرداً بين أوراقه وكتبه في هذا البيت الحقير ، فأغمضت عيني كيلا أرى ذلك الشعاع وقلت لنفسي : « نصيبك يا نفسُ ظلمة القبر ؛ فلا تطمعي بالنور .» ثم أصغيت فسمعت نَغْمَةَ عُلْوية تهز جوارحي بعذوبتها ، وتمتلك كُلِّيَّتي بطهرها ، فأغفلت أذني وقلت : « نصيبك يا نفسُ صراخ الهاوية فلا تطمعي بالأغاني .» أغمضت أجفاني كيلا أرى ، وأغلقت أذنيَّ كيلا أسمع ، لكن عينيَّ ظلَّتا تريان ذلك الشعاع وهما منطبقتان ، وأذنيّ تسمعان تلك النَّغْمة وهما مغلقتان ، فخفت لأول وَهْلة خوف فقير وجد جوهرة بقرب قصر الأمير ، فلم يجسُر [١] أن يلتقطها لخوفه ، ولم يقدر أن يتركها لِفاقَته [٢] . وبكيت بكاء ظامئ رأى الينبوع العذب محاطاً بكواسر الغاب فارتمى على الأرض مترقباً جازعاً .»

وسكتت السيدة وردة دقيقة ، وقد أغمضت عينيها الكبيرتين ، كأنَّ ذلك الماضي قد انتصب أمامها ، فلم تجسر أن تحدِّق بي وجهاً لوجه ، ثم عادت وقالت :

« هؤلاء البشر الذين يجيئون من الأبدية ويعودون إليها قبل أن يذوقوا طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم أن يدركوا كُنْه أوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبُّه بإرادة السماء ، ورجل تلتصق به بشريعة الأرض . هي مأساة أليمة مكتوبة بدماء الأنثى ودموعها ، يقرأها الرجل ضاحكاً لأنه لا يفهمها ، وإنْ فهمها انقلب ضحكه فجوراً وقساوة ، وأنزل على رأس المرأة من غضبه ناراً وكِبْريتاً ، وملأ أذنيها لعناً وتجديفاً .

« هي رواية موجِعَة تمثِّلها الليالي السوداء بين ضلوع كل امرأة ، تجد جسدها مقيَّداً بمضجع رجل عرفته زوجاً قبل أن تعرف ما هي الزِّيجة .[٣] وترى روحها مُرَفْرِفَة حول آخر تحبُّه ، بكل ما في الروح من المحبَّة ، وبكل ما في المحبَّة من الطُّهر والجَمال . هو نزاع مخيف قد ابتدأ منذ ظهور الضعف في المرأة والقوة في الرجل ، ولا ينتهي حتى تنقضي أيام عبودية الضعف للقوة . هي حرب هائلة بين شرائع النّاس الفاسدة وعواطف القلب المقدَّسة ، قد طُرِحْتُ بالأمس في ساحتها ، وكدتُ أموت جزَعاً ، وأذوب دموعاً لكنني وقفت ونزعت عنِّي جَبانَة [٤] بنات جنسي ، وحللت جناحيَّ من رُبُط [٥] الضّعف والاستسلام ، وطِرْت في فضاء الحب والحرية ، وأنا سعيدة الآن بقُرْب الرجل الذي خرج وخرجتُ شعلة واحدة من يد الله قُبَيْل ابتداء الدهور ، ولا توجد قوة في هذا العالم تستطيع أن تسلبني سعادتي ؛ لأنها منبثقة من عِناق روحين يضمُّهما التّفاهم ويُظلِّلهما الحب .»

ونظرت إليَّ السيدة وردة نظرة معنوية ، كأنها تريد أن تخترق صدري بعينيها ؛ لترى تأثير كلامها في عواطفي ، وتسمع صدى صوتها من بين ضلوعي ، لكنني بقيت صامتاً كيلا أوقفها عن الكلام . فقالت وقد قارن صوتها بين مرارة الذِّكرى وحلاوة الخلاص والحرية :

« يقول لك الناس إن وردة الهاني امرأة خائنة جحود [٦] ، قد اتبعتْ شهوة قلبها ، وهجرت الرجل الذي رفعها إليه ، وجعلها سيدة في منزله . ويقولون لك هي زانية عاهرة ، قد أتلفت بمقابضها القذرة

(١) يجسُر : يقدر ويقدم . (٢) لِفاقَته : لِفَقْرِه .

(٣) الزِّيجة : الزواج . (٤) جَبانَة : جبن .
(٥) رُبُط : جمع رباط . (٦) في الأصل : جحودة .

إكليل الزّواج المقدّس الذي ضَفَرَتْه الدّيانة ، واتخذت عِوَضاً عنه إكليلاً وَسِخاً محبوكاً من أشواك الجحيم . وألقت عن جسدها ثوب الفضيلة ، وارتدت لباس [١] الإثم والعار . ويقولون لك أكثر من ذلك ؛ لأن أشباح جدودهم ما زالت حيّة في أجسادهم ، فهم مثل كهوف الأودية الخالية ، يُرجعون صدى أصوات ، ولا يفهمون معناها . هم لا يعرفون شريعة الله في مخلوقاته ، ولا يفقهون مُفادَ الدين الحقيقي، ولا يعلمون متى يكون الإنسان خاطئاً أو بارًّا ، بل ينظرون بأعينهم الضئيلة إلى ظواهر الأعمال ، ولا يرون أسرارها ؛ فيقضون بالجهل ويُدينون بالعَماوَة [٢] ، ويستوي أمامهم المجرم والبريء ، والصالح والشرّير ؛ فويل لمن يقضي ، و ويل لمن يدين !

« أنا كنت زانية وخائنة في منزل رشيد نعمان ؛ لأنه جعلني رفيقة مضجعه بحُكم العادات والتقاليد ، قبل أن تُصيّرني السماء قرينة له بشريعة الروح والعواطف . وكنت دَنِسَة ودنيئة أمام نفسي وأمام الله عندما كنت أشبع جوفي من خيراته ليُشْبِع أمياله من جسدي . أما الآن فصرت طاهرة نقية ؛ لأن ناموس الحب قد حرّرني ، وصرت شريفة وأمينة ؛ لأنني أبطلت بيع جسدي بالخبز وأيامي بالملابس . نعم كنت زانية ومجرمة عندما كان الناس يحسبونني زوجة فاضلة ، واليوم صرت طاهرة وشريفة وهم يحسبونني عاهرة دنسة ؛ لأنهم يحكمون على النفوس من مآتي الأجساد ، ويقيسون الروح بمقاييس المادة .»

والتفتت السيدة وردة نحو النافذة ، وأشارت بيمينها نحو المدينة ، ورفعت صوتها عن ذي قَبْل ، وقالت بلهجة الاحتقار والاشمئزاز ، كأنها رأت بين الأزقّة ، وعلى السطوح ، وفي الأَرْوِقَة أشباح المفاسد وخيالات الانحطاط :

« انظر إلى هذه المنازل الجميلة والقصور الفخمة العالية ، حيث يسكن الأغنياء والأقوياء من البشر ، فبين جدرانها المكْسُوّة بالحرير المنسوج تقطن الخيانة بجانب الرياء ، وتحت سقوفها المطليّة بالذهب المذوّب يُقيم الكذب بقُرْب التّصنُّع . انظر وتأمل جيداً بهذه البنايات التي تمثّل لك المجد والسُّؤْدد والسعادة ، فهي ليست سوى مغاور [٣] يختبئ فيها الذُّلّ والشقاء والتعاسة . هي قبور مُكَلّسَة [٤] يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كُحْل العيون واحمرار الشّفاه ، وتتحجب في زواياها أنانيَة الرجل وحيوانيته بلمعان الفضّة والذّهب . هي قصور تتشامخ جدرانها تيهاً وافتخاراً نحو العلاء ، ولو كانت تشعر بأنفاس المكاره والغش السائلة عليها لتشقّقت وتبعثرت وهبطت إلى الحضيض . هي منازل ينظر إليها القَروي الفقير بعينين دامعتين [٥] ، ولو علم بأنه لا يوجد في قلوب سكانها ذَرّة من تلك المحبة العَذْبة التي تملأ صدر رفيقته لابتسم مُسْتَهْزئاً ، وعاد إلى حقله مُشْفِقاً .»

وأمسكت السيدة وردة بيدي وقادتني إلى جانب النافذة التي كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصور ، وقالت :

« تعالَ فأريك خفايا هؤلاء الناس الذين لم أرضَ أن أكون مثلهم . انظر إلى ذلك القصر ذي الأعمدة الرخامية ، والجوانح النُّحاسية ، والنوافذ البلّورية ، ففيه يسكن رجل غنيّ ، ورث ماله عن والده البخيل واكتسب أخلاقه من جوانب الأزِقّة المفْعَمَة بالمفاسد . وقد تزوّج منذ عامين بامرأة لم يعرف عنها شيئاً سوى أن لوالدها شرفاً موروثاً ومنزلة رفيعة بين نبلاء البلاد . ولم ينقض شهر العسل حتى ملّها متضجرًا وعاد إلى مُسامَرَة بنات الهوى ، وتركها في هذا القصر مثلما يترك السِّكّير جرّة خمر فارغة ، فبكت وتوجّعت لأوّل وَهْلَة ، ثم تصبّرت وسَلَتْ [٦] سُلُوّ من عرف خطأه ، وعلمت أن دموعها هي أثمن من أن تُهْرَق [٧] على خسارة رجل مثل زوجها . وهي الآن مشغولة عن كل شيء بعشق فتى جميل الوجه ، حلو الحديث ، تسكب في راحتيه عواطف قلبها ، وتملأ جيوبه من ذهب بَعْلها الذي يغضّ الطّرْف عنها لأنها تغضّ

---

(١) في الأصل : بلباس . (٢) العَماوَة : الضلال .

(٣) مغاور : جمع مغارة . (٤) مُكَلّسَة : مطلية بالكلس ، أي الجير . (٥) في الأصل : بأعين دامعة .

(٦) سَلَتْ : نسيت . (٧) تُهْرَق : تُسكَب وتُصَبّ .

الطّرْف عنه .

« ثم انظر إلى ذلك البيت المحاط بالحديقة الغنّاء ؛ فهو مسكن رجل ينتمي إلى أسرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة ، وقد انخفض مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف أبنائها إلى التّواني والكسل . وقد اقترن هذا الرجل منذ أعوام بفتاة قبيحة الصورة لكنها غنية جدًّا ، وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي وجودها واتخذ له خليلة حسناء ، وغادرها تنهش أصابعها ندماً وتذوب شوقاً وحنيناً . وهي الآن تصرف الساعات بتجعيد شعرها ، وتكحيل عينيها ، وتلوين وجهها بالمساحيق والعقاقير ، وتزيين قامتها بالأطالس والحرير ؛ لعلّها تحظى بنظرة من أحد زائريها ، لكنها لا تحصل إلّا على نظرات شبحها في المرآة . ثم انظر إلى ذلك المنزل الكبير المزيّن بالنقوش والتماثيل ، فهو منزل امرأة جميلة الوجه ، خبيثة النفس ، قد مات زوجها الأول فاستأثرت بأمواله وأملاكه ، ثم اختارت من بين الرجال رجلاً ضعيف الجسم والإرادة ، واتخذته بَعْلاً لتحتمي باسمه من ألسنة الناس ، وتدافع بوجوده عن مُنكراتها . وهي الآن بين مريديها كالنّحْلة ، تمتص من الزهور ما كان حلواً ولذيذاً .

« وانظر إلى تلك الدار ذات الأروقة الوسيعة والقناطر البديعة ، فهي مسكن رجل مادّي الأميال ، كثير المشاغل والمطامع ، وله زوجة كل ما في جسدها جميل وحسن ، وكل ما في روحها حلو ولطيف ، وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق الجسد ، مثلما تتآلف في الشِّعْر نَغْمَة الوزن برقّة المعاني . فهي قد كُوِّنت لتعيش بالحبّ وتموت به ، لكنها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ، و وضع عنقها تحت نير الزّيجة الفاسدة . وهي الآن سقيمة الجسم ، تذوب كالشّمع بحرارة عواطفها المقيّدة ، وتضمحلّ على مهل كالرائحة الزّكيّة أمام العاصفة ، وتفنى حبًّا بشيء جميل تشعر به ولا تراه. وتصبو حنيناً إلى معانقة الموت لتتخلص من حياتها الجامدة وتتحرّر من عبودية رجل يصرف الأيام بجمع الدنانير والليالي بِعَدِّها ، ويصرّ أسنانه مُجَدِّفاً [١] على الساعة التي تزوّج فيها بامرأة عاقر ، لا تلد له ابناً ليحيي اسمه ويرث ماله وخيراته . ثم انظر إلى ذلك البيت المنفرد بين البساتين ، فهو مسكن شاعر خيالي ، سامي الأفكار ، روحي المذهب ، له زوجة غليظة العقل ، خشنة الطّباع ، تسخر بأشعاره لأنها لا تفهمها ، وتستهزئ بأعماله لأنها غريبة . وهو الآن مشغول عنها بمحبة امرأة أخرى متزوّجة ، تتوقّد ذكاءً ، وتسيل رقّة ، وتولّد في قلبه النور بانعطافها ، وتوحي إليه الأقوال الخالدة بابتساماتها ونظراتها .»

وسكتت السيدة وردة هُنَيْهة وقد جلست على مقعد بجانب النافذة ، كأن نفسها قد تعبت من التجوُّل في مخادع تلك المنازل الخفيّة ، ثم عادت تقول بهدوء :

« هذه هي القصور التي لم أرض أن أكون من سكانها . هذه هي القبور التي لم أُرِدْ أن أدفن حيّة طَيَّ لحودها . هؤلاء هم الناس الذين تخلّصت من عوائدهم ، وخلعت عني نيرَ جامعتهم . هؤلاء هم المتزوّجون الذين يقترنون بالأجساد ويتنافرون بالروح ، ولا شفيع بهم [٢] أمام الله سوى جهلهم ناموس الله . أنا لا أدينهم الآن ، بل أشفق عليهم ، ولا أكرههم ، بل أكره استسلامهم عفواً إلى الرياء والكذب والخباثة . ولم أكشف أمامك خفايا قلوبهم وأسرار معيشتهم لأنني أحب الاغتياب والنميمة ؛ بل فعلت ذلك لأريك حقيقة قوم كنت بالأمس مثلهم فنجوت ، وأبيّن لك معيشة بشر يقولون عني كل كلمة شريرة ؛ لأنني خسرت صداقتهم لأربح نفسي، وخرجت عن سبل خداعهم المظلمة وحوّلت عينيّ نحو النور حيث الإخلاص والحق والعدل .

« وقد نفوني الآن من جامعتهم وأنا راضية ؛ لأن البشر لا ينفون إلّا من تمرّدت روحه الكبيرة على الظّلم والجور . ومن لا يؤثر النّفْيَ على الاستعباد لا يكون حرًّا بما في الحرية من الحق والواجب . أنا

(١) جَدَّفَ : كَفَرَ بالنعمة .

(٢) الأولى أن يتعدى بحرف الجر اللام .

كنت بالأمس مثل مائدة شهية ، وكان رشيد بك يقترب مني عندما يشعر بحاجة إلى الطعام ، أمّا نفسانا فتظلان بعيديتين كخادمين ذليلين ، ولما رأيت المعرفة كرهتُ الاستخدام . وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيباً فلم أقدر ؛ لأن روحي أبت أن أصرف العمر كله راكعة أمام صنم مخيف أقامته الأجيال المظلمة وَدَعَتْه الشَّريعة ؛ فكسرت قيودي ، لكنني لم ألقها عني حتى سمعت الحب منادياً ، ورأيت النفس متأهبة للمسير .

« فخرجت من منزل رشيد نعمان خروج الأسير من سجنه ، تاركة خلفي الحلي والحُلَل ، والخدم والمرْكَبات ، وجئت بيت حبيبي الخالي من الرِّياش ، المملوء من الروح ، وأنا عالمة بأنني لم أفعل غير الحق والواجب ؛ لأن مشيئة السماء ليست بأن أقطع جناحي بيدي ، وارتمي على الرَّماد حاجبة رأسي بساعدي ، ساكبة حُشاشَتي [1] من أجفاني ، قائلة هذا نصيبي من الحياة . إن السَّماء لا تريد أن أصرف العمر صارخة متوجِّعة في الليالي ، قائلة متى يجيء الفجر ، وعندما يجيء الفجر أقول متى ينقضي هذا النَّهار . إن السَّماء لا تريد أن يكون الإنسان تعساً ؛ لأنها وضعت في أعماقه الميل إلى السَّعادة ، لأنه بسعادة الإنسان يتمَجَّد الله .

« هذه هي حكايتي أيها الرجل ، وهذا احتجاجي أمام السماء والأرض ، وأنا أردِّده وأترنَّم به ، والناس يغلقون آذانهم ولا يسمعون ؛ لأنهم يخشون ثورة أرواحهم ، ويخافون أن تتزعزع أسس جامعتهم وتهبط على رؤوسهم .

« هذه هي العقبة التي سرت عليها حتى بلغت قمة سعادتي ، ولو جاء الموت واختطفني الآن لوقفت روحي أمام العرش الأعلى بلا خوف ولا وَجَل ، بل بفرح وأمل ، وانحلت لفائف ضميري أمام الدَّيَّان الأعظم ، وبانت نقيَّة كالثلج ؛ لأنني لم أفعل غير مشيئة النفس التي فصَلها الله عن ذاته ، ولم أتبع غير نداء القلب وصدى أغاني الملائكة .

« هذه هي روايتي التي يحسبها سكان بيروت لعنة في فم الحياة ، وعِلَّة في جسم الهيئة الاجتماعية . ولكنهم سوف يندمون عندما تُنبِّه الأيام محبة المحبة في قلوبهم المظلمة ، مثلما تستنبت الشمسُ الزهور من بطن الأرض المملوء من بقايا الأموات فيقف إذ ذاك عابر الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السلام قائلاً : « ههنا رقدت وردة الهاني التي حرَّرت عواطفها من عبودية الشرائع البشرية الفاسدة لتحيا بناموس المحبة الشريفة ، وحوَّلت وجهها نحو الشمس كيلا ترى ظل جسدها بين الجماجم والأشواك . » »

ولم تنته السيدة وردة من كلامها حتى فُتح الباب ودخل علينا فتى نحيل القوام ، جميل الوجه ، تنسكب من عينيه أشعة سحرية ، وتسيل على شفتيه ابتسامة لطيفة . فوقفت السيدة وردة وأمسكت بذراعه بانعطاف كُلّي ، وقدّمته إليَّ ، بعد أن لفظت اسمي مُذَيَّلاً بكلمة لطيفة ، واسمه مشفوعاً بنظرة معنوية ، فعرفت أنه [2] ذلك الشاب الذي أنكرت العالم وخالفت الشرائع والتقاليد من أجله .

ثم جلسنا جميعاً صامتين لانشغال كل منا بمعرفة رأي الآخر فيه ، حتى إذا مرَّت دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس إلى الملأ الأعلى ، نظرت إليهما وقد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم أرَه قط ، وعرفت بلحظة معنى حكاية السيدة وردة ، وأدركت سِرَّ احتجاجها على الهيئة الاجتماعية التي تضطهد الأفراد المتمردين على شرائعها ، قبل أن تستفحص دواعي تمرُّدهم . رأيت روحاً واحدة سماوية متمثلة أمامي بجسدين يُجَمِّلهما الشباب ويُسَرْبِلُهما الاتحاد ، وقد وقف بينهما إله الحبّ باسطاً جناحيه ليحميهما من لَوْم الناس وتعنيفهم . وجدت التفاهم الكُلّيّ منبعثاً من وجهين شفّافَيْن ، ينيرهما الإخلاص ، ويحيط بهما الطُّهْر . وجدت لأول مرّة في حياتي طيف السعادة منتصباً بين رجل وامرأة يَرْذُلهما الدين وتنبذهما الشريعة .

---

(١) الحُشاشَة : بقية الروح .

(٢) في الأصل : بأنه .

وبعد هنيهة وقفت ، و ودّعتهما مظهراً ، بغير الكلام ، تأثيرات نفسي . وخرجت من ذلك المنزل الحقير الذي جعلته العواطف هيكلاً للحبّ والوفاق ، وسرت بين تلك القصور والمنازل التي أظهرت لي خفاياها السيدة وردة ، مفكراً بحديثها وبكل ما ينطوي تحته من المبادئ والنتائج ، لكنني لم أبلغ أطراف ذلك الحي حتى تذكرت رشيد بك نعمان ، فتمثّلَتْ لبصيرتي لوعةُ قنوطه وشقائه فقلت في ذاتي :

« هو تعس مظلوم ، ولكن هل تسمعه السماء إذا وقف أمامها متظلّماً شاكياً وردة الهاني ؟ هل جنت عليه تلك المرأة عندما تركته واتّبعت حرية نفسها ، أم هو الذي جنى عليها عندما أخضع جسدها بالزواج قبل أن يستميل روحها بالمحبة ؟ فمن هو الظالم من الاثنين ، ومن هو المظلوم ؟ ومن هو المجرم ، ومن هو البريء يا تُرى ؟»

ثم عدت قائلاً لذاتي مستفتياً أخبار الأيام ، مُسْتَقْصياً حوادثها : « كثيراً ما أباح الغرور للنساء أن يتركن رجالهن الفقراء ويتعلقن بالرجال الأغنياء ؛ لأن شغف المرأة ببهْرَجَة الملابس ونعومة العيش يعمي بصيرتها ويقودها إلى العار والانحطاط ؛ فهل كانت وردة الهاني مغرورة وطامعة عندما خرجت من قصر رجل غنيّ مُفْعَم بالحلي والحُلَل ، والرِّياش والخَدَم ، وذهبت إلى كوخ رجل فقير ، لا يوجد فيه سوى صفّ من الكتب القديمة ؟ وكثيراً ما يميت الجهل شرف المرأة ويحيي شهواتها ، فتترك بعلها مللاً وتضجراً ، وتطلب ملذّات جسدها بقرب رجل آخر أكثر منها انحطاطاً وأقلّ شرفاً ؛ فهل كانت وردة الهاني جاهلة راغبة بالملذات الجسدية عندما أعلنت استقلالها على رؤوس الأشهاد ، وانضمت إلى فتى روحيّ الأميال ، وقد كان بإمكانها أن تشبع حواسها سرًّا في منزل زوجها من هيام الفتيان الذين يستميتون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها ؟ وردة الهاني كانت امرأة تعسة فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها ، وهذه هي الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الإنسانية وتنفيها الشريعة .»

همست تلك الكلمات في مسامع الأثير ثم قلت مستدركاً : « ولكن أ يَسوغ للمرأة أن تشتري سعادتها بتعاسة بعلها ؟»

فأجابتني نفسي قائلة : « وهل يجوز للرجل أن يستعبد عواطف زوجته ليبقى سعيداً ؟»

وظللت سائراً وصوت السيدة وردة يتموّج في مسامعي حتى بلغت أطراف المدينة والشمس قد مالت إلى الغروب ، وابتدأت الحقول والبساتين تتّشح بنقاب السكينة والراحة ، والطيور تنشد صلاة المساء . فوقفت متأمّلاً ثم تنهّدت قائلاً :

« أمام عرش الحرية تفرح هذه الأشجار بمداعبة النسيم ، وأمام هيبتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر . على مسامع الحرية تتناجى هذه العصافير ، وحول أذيالها ترفرف بقرب السواقي . في فضاء الحرية تسكب هذه الزهور عطر أنفاسها ، وأمام عينيها تبتسم لمجيء الصباح . كل ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته ، ومن طبيعة ناموسه يستمدّ مجد الحرية وأفراحها . أمّا البشر فمحرومون من هذه النعمة ؛ لأنهم وضعوا لأرواحهم الإلهية شريعة عالمية محدودة ، وسَنّوا لأجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً ، وأقاموا لميولهم وعواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً ، وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبراً عميقاً مظلماً . فإذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم ، قالوا هذا متمرِّد شرير خليق بالنفي ، وساقط دنس يستحق الموت .

« ولكن هل يظل الإنسان عبداً لشرائعه الفاسدة إلى انقضاء الدهر ، أم تحرّره الأيام ليحيا بالروح وللروح ؟ أ يبقى الإنسان محدّقاً بالتراب ، أم يحوّل عينيه نحو الشمس كيلا يرى ظلّ جسده بين الأشواك والجماجم ؟»

* * *

صراخ القبور

١

تربّع الأمير على منصّة القضاء فجلس عُقلاء بلاده عن يمينه وشماله ، وعلى وجوههم المتجعّدة تنعكس أوجه الكتب والأسفار . وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رافعين الرّماح ، و وقف الناس أمامه بين متفرّج أتى به حبُّ الاستطلاع ، ومترقّب ينتظر الحكم في جريمة قريبة ، وجميعهم قد أحنوا رقابهم ، وخشعوا ببصائرهم ، وأمسكوا أنفاسهم كأن في عيني الأمير قوة توعز الخوف ، وتوحي الرعب إلى نفوسهم وقلوبهم . حتى إذا ما اكتمل المجلس وأزفت ساعة الدّيْنونة [١] ، رفع الأمير يده ، وصرخ قائلاً :

« أحضروا المجرمين أمامي واحداً واحداً ، وأخبروني بذنوبهم ومعاصيهم . »

ففُتح باب السجن ، وبانت جدرانه المظلمة ، مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر عندما يفتح فكّيْه متثائباً . وتصاعدت من جوانبه قَلْقَلَةُ القيود والسلاسل ، مُتآلِفَة مع أنين الحُبَساء ونحيبهم ، فحوّل الحاضرون أعينهم ، وتطاولت أعناقهم ، كأنهم يريدون مُسابَقَة الشّريعة بنواظرهم ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر .

وبعد هُنَيْهَة خرج من السجن جنديان يقودان فتى مكتوف السّاعِدَيْن ، يتكلّم وجهه العابس وملامحه المنقَبِضَة عن عِزّة في النفس وقوّة في القلب . وأوقفاه وسط المحكمة ، وتراجعا قليلاً إلى الوراء ، فحدّق به الأمير دقيقة ثم سأل قائلاً :

« ما جريمة هذا الرجل المنتصب أمامنا برأس مرفوع ، كأنه في موقف الفخر ، لا في قبضة الدّيْنونَة ؟ »

فأجاب رجل من أعوانه قائلاً : « هو قاتل شِرّير ، قد اعترض بالأمس قائداً من قوّاد الأمير وجَنْدَله [٢] صريعاً ؛ إذ كان ذاهباً بمهمة بين القرى . وقد قُبِض عليه والسيف المغْمَد بدماء القتيل ما زال مشهوراً في يده . »

فتحرّك الأمير غضباً فوق عرشه ، وتطايرت سهام الحَنَق [٣] من عينيه ، وصرخ بأعلى صوته قائلاً : « أرجعوه إلى الظلمة ، وأثقلوا جسده بالقيود ، وعندما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه بحَدّ سيفه ، ثم اطرحوا جثّته في البَرّيّة ؛ لتجرّدها العُقْبان والضّواري ، وتحمل الرِّياح رائحة نَتانتها إلى أنوف أهله ومحبّيه . »

أرجعوا الشابَّ إلى السجن ، والناس يتبعونه بنظرات الأسف والتنهيدات العميقة ؛ لأنه كان فتى في ربيع العمر ، حسن المظاهر ، قويّ البِنْيَة .

وخرج الجنديّان ثانية من السجن يقودان صبية جميلة الوجه ، ضعيفة الجسد ، قد وشّح معانيها اصفرارُ اليأس والقنوط ، وغمرت عينيها العبراتُ ، وألوت عنقها النّدامة والحسرة .

فنظر إليها الأمير قائلاً : « وما فعلت هذه المرأة [٤] المهزولة الواقفة أمامنا وقوف الظل بجانب الحقيقة ؟ »

فأجابه أحد الجنود قائلاً : « هي امرأة عاهرة قد فاجأها بَعْلُها ليلاً فوجدها بين ذراعي خليلها ، فأسلمها للشُّرطة بعد أن فرّ أليفها هارباً . » فَحَدّق [٥] الأمير إليها وهي مُطْرِقة خجلاً ، ثم قال بشدّة وقساوة : « أرجعوها إلى الظُّلمة ومَدّدوها على فراش من الشوك ؛ لعلها تذكر المضْجَع الذي دنّسته بعيبها ، واسقوها الخل ممزوجاً بنقيع العَلْقم ؛ عساها تذكر طعم القُبَل المحرّمة . وعند مجيء الفجر

---

(١) الدّيْنونة : القضاء والحساب .

(٢) جَنْدَله : أسقطه إلى الأرض . (٣) الحَنَقُ : شدة الغيظ .

(٤) في الأصل : الإمرأة . (٥) في الأصل : فأحدق .

جُرّوها عارية إلى خارج المدينة ، وارجموها بالحجارة ، واتركوا جسدها هناك ؛ لكي تتنعَّم بلُحْمانه الذِّئاب ، وتَنْخَر عظامه الدّيدان والحشرات .»

توارت الصَّبيَّة بظلمة السِّجن ، والحاضرون ينظرون إليها بين مُعْجَب بعدل الأمير ، ومتأسِّف على جمال وجهها الكئيب ورقَّة نظراتها المحزنة .

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلاً ضعيفاً ، يسحب ركبتيه المرتعشتين كأنهما خِرقتان من أطراف ثوبه البالي ، ويلتفت جَزَعاً إلى كل ناحية ، ومن نظراته الموجعة تنبعث خيالات البؤس والفقر والتَّعاسة.

فالتفت الأمير نحوه ، وقال بلهجة الاشمئزاز : « وما ذنب هذا القَذِر الواقف كالميت بين الأحياء ؟»

فأجابه أحد الجنود قائلاً : « هو لص سارق قد دخل الدَّير ليلاً فقبض عليه الرُّهْبان الأتقياء ، و وجدوا طَيَّ أثوابه آنية مذابحهم المقدسة .»

فنظر إليه الأمير نظرة النَّسْر الجائع إلى عصفور مكسور الجناحين وصرخ قائلاً : « أنزلوه إلى أعماق الظُّلمة ، وكَبِّلوه بالحديد ، وعند مجيء الفجر جُرّوه إلى شجرة عالية ، واشنقوه بحبل من الكتّان ، واتركوا جسده معلَّقاً بين الأرض والسماء ، فتنثر العناصر أصابعه الأثيمة نثراً ، وتُذْري الرياح أعضاءه نتفاً .»

أرجعوا اللّصَّ إلى السِّجن ، والناس يهمسون بعضهم في آذان بعض قائلين : « كيف تجرّأ هذا الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدَّسة ؟»

ونزل الأمير عن كرسي القضاء ، فاتبعه العقلاء والمتشرِّعون ، وسار الجند خلفه وأمامه ، وتبدَّد شمْلُ المتفرجين ، وخلا ذلك المكان إلّا من عويل المسجونين وزفرات القانطين المتمايلة كالخيالات على الجدران .

جرى كل ذلك ، وأنا واقف هناك وقوف المرآة أمام الأشباح السائرة ، مفكِّراً بالشرائع التي وضعها البشر للبشر ، متأملاً بما يحسبه الناس عدلاً ، متعمِّقاً بأسرار الحياة ، باحثاً عن معنى الكِيان [1] . حتى إذا ما تضَعْضَعَت أفكاري مثلما تتوارى خطوط الشَّفَق بالضَّباب ، خرجتُ من ذاك المكان قائلاً لذاتي :

« الأعشاب تمتص عناصر التُّراب ، والخروف يلتهم الأعشاب ، والذئب يفترس الخروف ، و وحيد القَرْن يقتل الذئب ، والأسد يصيد وحيد القرن ، والموت يفني الأسد ؛ فهل توجد قوة تتغلَّب على الموت ؛ فتجعل سلسلة هذه المظالم عدلاً سَرْمَدِيًّا ؟ أ توجد قوة تحوِّل جميع هذه الأسباب الكريهة إلى نتائج جميلة ؟ أ توجد قوَّة تقبض بكفها على جميع عناصر الحياة وتضمها إلى ذاتها مبتسمة ، مثلما يُرجع البحر جميع السواقي إلى أعماقه مترنماً ؟ أ توجد قوَّة توقف القاتل والمقتول ، والزانية وخليلها ، والسارق والمسروق منه أمام محكمة أسمى وأعلى من محكمة الأمير ؟»

٢

وفي اليوم الثّاني خرجت من المدينة ، وسرت بين الحقول حيث تبيح السَّكينةُ للنَّفس ما تُسِرُّه النَّفس ، ويميت طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولِّدها الشوارع الضيِّقة والمنازل المظلمة . ولما بلغت طرف الوادي التفت فإذا بأجواق [2] كثيرة من العُقْبان والغربان والنسور تتطاير تارة وتهبط طوراً ، وقد ملأت الفضاء بنُعابها وصفيرها وحفيف أجنحتها ؛ فتقدمت قليلاً مستطلعاً ، فرأيت أمامي جثة رجل معلَّقة على شجرة عالية ، وجثة امرأة عارية مطروحة بين الحجارة التي رُجمت بها ، وجثة فتى غارقة بالدِّماء المجْبولة [3] بالتراب ، وقد فُصِل رأسها عنها .

وقفت وهول المشهد يُغَشّي بصيرتي بنقاب كثيف مظلم ، ونظرت فلم أرَ سوى خيال الموت المُريع منتصباً بين الجثث الملطَّخة بالدماء ، وأصغيتُ فلم

---

(١) الكِيان : الكون . (٢) الأجواق : جمع جَوْق ، والمقصود الأسراب والجماعات . (٣) المجْبولة : المخلطة .

أسمع غير عويل العدم ممزوجاً بنُعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر .

ثلاثة من أبناء آدم كانوا بالأمس على أحضان الحياة ، فأصبحوا اليوم في قبضة الموت .

ثلاثة أساءوا بعُرْف البشر إلى النّاموس ؛ فمدّت الشّريعة العمياء يدها وسحقتهم بقساوة .

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لأنهم ضعفاء ، فجعلتهم الشريعة أمواتاً لأنها قوية .

رجل فتك برجل آخر ، فقال النّاس : هذا قاتل ظالم ، وعندما فتك به الأمير ، قال النّاس : هذا أمير عادل .

ورجل حاول أن يسلب الدّير ، فقال النّاس : هذا لِصٌ شرّير ، وعندما سلبه الأمير حياته قالوا : هذا أمير فاضل .

وامرأة خانت بَعْلها ، فقال الناس : هي زانية عاهرة ، ولكن عندما سيرها الأمير عارية ورجمها على رؤوس الأشهاد قالوا : هذا أمير شريف .

سفك الدّماء محرّمٌ ، ولكن من حلّله للأمير ؟

سلبُ الأموال جريمة ، ولكن من جعل سلب الأرواح فضيلة ؟

خيانة النّساء قبيحة ، ولكن من صيّر رجم الأجساد جميلاً ؟

أ نقابل الشرّ بشر أعظم ونقول هذه هي الشريعة، ونقاتل الفساد بفساد أعمّ ونهتف هذا هو الناموس ، ونغالب الجريمة بجريمة أكبر ونصرخ هذا هو العدل ؟

أ ما صرَع الأمير عدوًا في غابر حياته ؟ أ ما سلب مالاً أو عقاراً من أحد تابعيه الضعفاء ؟ أ ما راوَد امرأة جميلة عن نفسها ؟ هل كان معصوماً عن هذه المحرّمات ؛ فجاز له إعدام القاتل ، وشنق السارق ، ورَجْم الزانية ؟

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة ؟ أ ملائكة نزلوا من السماء أم رجال يغتصبون ويسرقون كل ما تصل إليه أيديهم ؟

ومن قطع رأس هذا القاتل ؟ أ أنبياء هبطوا من العَلاء أم جنود يقتلون ويسفكون الدماء أينما حَلّوا ؟

ومن رجَم هذه الزّانية ؟ أ نُسّاك طاهرون أتوا من صوامعهم أم بشر يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل ، مختبئين بستائر الظلام ؟

الشريعة ، وما هي الشريعة ؟ ومن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء ؟ وأي بَشَري رزى قلب الله فعلم مشيئته في البشر ؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين : احرموا الضعفاء نورَ الحياة ، وافنوا الساقطين بحَدّ السيف ، ودوسوا الخَطَأة [1] بأقدام من حديد ؟

وظلّت هذه الأفكار تتزاحم على فكرتي ، وتتساهم [2] عواطفي حتى سمعت وطء أقدام قريبة مني ، فنظرت وإذا بصبيّة قد ظهرت من بين الأشجار ، واقتربت من الجثث الثّلاث مُتَحَذِّرة ، متلفّتة بخوف إلى كل ناحية . حتى إذا ما رأت رأس الفتى المقطوع صرخت جزَعاً وركعت بجانبه ، وطوّقته بزنْدَيها المرتجفين ، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها ، وتُلامس شعره الجعدي بأطراف أصابعها، وتنتحب بصوت عميق جارح خارج من صميم الكبد . ولما نهكها البكاء وغلبتها الحسرات ، أسرعت تحفِر التراب بيديها ، حتى إذا ما حفرت قبراً وسيعاً جرّت إليه الفتى المصروع ، ومدّدته على مهل و وضعت رأسه المضرج بالدماء بين كتفيه ، وبعد أن غمرته بالتراب غرست نصل السيف الذي قطع عنقه على قبره .

وإذْ همّت بالانصراف ، تقدّمتُ نحوها فأجْفَلَت [3] وارتعشت خوفاً ، ثم أطرقت والدّمع السّخين يتساقط كالمطر من مُقْلَتيها ، وقالت متنهدة: « اشكُني إلى الأمير إن شئت ؛ فخير لي أن أموت وألحق بمن خلّصني من قبضة العار ، من أن أترك

---

(١) جمع خاطئ . (٢) تتساهم : تتقاسم وتتنازع .
(٣) أجْفَلَت : نفرت .

جسده طعاماً لقَشاعِم [1] الطّير والوحوش الكواسر .»

فأجبتها قائلاً : « لا تخافي مني أيتها المسكينة ؛ فأنا قد ندبت حظ فتاكِ قبلك ، بل خبريني كيف أنقذك من قبضة العار ؟»

فقالت والغُصَص تُقَطِّع صوتها : « جاء قائدُ الأمير إلى حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجِزْية ، ولما رآني نظر إليّ نظرة استحسان مخيفة ، ثم فرض ضريبة باهظة على حقل والدي الفقير يعجز الغَنِيُّ عن دفعها ، فقبض عليّ ليقتادني قهراً إلى صَرْح الأمير بدلاً من الذهب ، فاسترحمته بدموعي فلم يحفل ، واستحْلَفْتُه بشيخوخة والدي فلم يرحم ، فصرخت مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب ، وهو خطيبي ، وخلّصني من بين يديه القاسيتين ، فاستشاط غضباً ، وهَمّ أن يفتك به فسبقه الشاب ، وامتشق سيفاً قديماً معلّقاً على الحائط وصرَعَه به ، مدافعاً عن حياته وعن عرضي . وَلِكِبَرِ نفسه لم يفرّ هارباً كالقتلة المجرمين ، بل لبث واقفاً بقرب جثة القائد الظّلوم ، حتى جاء الجند وساقوه إلى السجن مُكَبّلاً بالقيود .»

قالت هذا ، ونظرت إليّ نظرة تذيب الفؤاد ، وتثير الشجون ، و وَلّت مسرعة ورنّات صوتها الموجِعَة تُوَلّد بين تموُّجات الأثير اهتزازاً وارتعاشاً .

وبعد هنيهة نظرتُ فرأيت فتى في ربيع العمر يتقدم ساتراً وجهه بأثوابه ، حتى إذا ما بلغ جثة المرأة الزانية وقف بقربها وخلع عباءته وستر بها أعضاءها العارية ، وأخذ يحفر الأرض بخنجر كان معه ثم حملها بهدوءٍ و واراها التراب ، ساكباً مع كل حفنة قطرة من أجفانه . ولما انتهى من عمله جنى بعض الزهور النابتة هناك و وضعها على القبر ، منحني الرأس ، منخفض الطّرْف .

وإذ هَمّ بالذّهاب أوقفته قائلاً : « ما نسبة هذه المرأة الساقطة إليك ، حتى سعيت مُخالفاً إرادة الأمير ومُخاطراً بحياتك ؛ لكي تحمي جسدها المرضرض من طيور السماء الجوارح ؟»

فنظر إليّ وأجفانه المقرّحة من البكاء والسهر تتكلم عن شدّة حزنه ولوعته . وبصوت مخنوق ترافقه التّنهيدات الأليمة قال :

« أنا هو ذلك الرجل التّعِس الذي رُجمت من أجله . أحببتها وأحبتني مُذْ كنّا صغيرين نلعب بين المنازل . نمونا ونما الحب معنا حتى صار سيّداً قويّاً نخدمه بعواطف قلبينا فيستميلنا إليه ، ونَهابُه بسرائر روحينا فيضمنا إلى صدره .

« ففي يوم وقد كنت غائباً عن المدينة زوّجها والدها كُرْهاً من رجل تكرهه ، ولما رجعتُ وسمعت بالخبر تحوّلت أيامي إلى ليل طويل حالك ، وصارت حياتي نزاعاً مُرّاً متواصلاً ، وبقيت أصارع عواطفي ، وأغالب ميول نفسي ، حتى تغلبت عليّ ، وقادتني مثلما يقود البصير ضريراً أعمى . فذهبت إلى حبيبتي سِرّاً ، وأقصى مرامي أن أرى نور عينيها وأسمع نغْمة صوتها ، فوجدتها منفردة تندب حظّها وترثي أيامها ، فجلست والسكينة حديثنا والعَفاف ثالثنا . ولم تمر ساعة حتى دخل زوجها فجأة ، ولما رآني أوعزت إليه نيّاته القذرة فقبض على عنقها الأملس بكفيه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته : « تعالَوا وانظروا الزانية وعشيقها .» فهرول الجيران ثم جاء الجُنْد مستطلعين الخبر ، فأسلمها إلى أيديهم الخشنة ؛ فاقتادوها محلولة الشعر ممزّقة الأثواب . أما أنا فلم يمسني أحد بضرر ؛ لأن الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تعاقب المرأة إذا سقطت ، أما الرجل فتسامحه .»

وعاد الشّابّ نحو المدينة ساتراً وجهه بأثوابه ، ولبثتُ أنا ناظراً متأملاً متنهداً ، وجثة اللص المشنوق ترتجف قليلاً كلما هَزّ الهواء أغصان الشجرة ، كأنها تسترحم بحَراكها أرواح الفضاء لتهبط وتُمَدّدها على صدر الأرض بجانب قتيل المروءة وشهيدة الحب .

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خِرَقاً بالية ، و وقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها

(١) قشاعِم : جمع قَشْعم ، وهو النسر الذكر العظيم .

باكية ، ثم تسلقت الشجرة وقضمت حبل الكتّان بأسنانها فسقط الميت على الأرض سقوط الثوب البليل ، فنزلت المرأة وحفرت قبراً بجانب القبرين و وضعته فيه . وبعد أن غمرته بالتراب أخذت قطعتين من الخشب وصنعت منهما صليباً وغرسته فوق رأسه . ولما تحولت نحو الوجهة التي جاءت منها أوقفتُها قائلاً :

« ما غرَّك أيتها المرأة [1] فجئت تدفنين لصّاً سارقاً ؟»

فنظرت إليَّ بعينين غارقتين مكحولتين بأشباح الكآبة والشقاء وقالت :

« هو زوجي الصّالح ، ورفيقي الحنون ، و والد أطفالي . خمسة أطفال يتضوّرون جوعاً ، أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيع لم يُفْطم . لم يكن زوجي لصّاً ، بل كان زارعاً يفلح أرض الدير ويستغلها ، ولا يحصل من الرُّهبان إلّا على رغيف نتقاسمه عند المساء ، ولا تبقى منه لُقْمَةٌ إلى الصّباح .

« مُذْ كان فتى وهو يسقي بعَرَق جَبينه حقول الدَّير ، ويَزرع عزم ساعديه في بساتينه ، ولما ضعف وانتهبَت أعوامُ العمل قواه وراودت الأمراض جسده أبعدوه قائلين : « لم يعد الدَّيرُ محتاجاً إليك ؛ فاذهب الآن ، وعندما يشب أبناؤك ابعثهم إلينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل .» فبكى وأبكاني واسترحمهم باسم يسوع ، واستحلفهم بالملائكة والقِدّيسين فلم يرحموه ، ولم يشفقوا عليه وعليّ ، وعلى صغارنا العُراة الجائعين . فذهب يطلب عملاً في المدينة وعاد مطروداً ؛ لأن سكان تلك القصور لا يستخدمون إلّا الفتيان الأقوياء . ثم جلس على قارِعَة الطريق مُسْتَعْطِياً ، فلم يحسن الناس إليه ، بل كانوا يمرون به قائلين : « الصَّدَقَة لا تجوز على مغلوب التّواني والكسَل .»

« ففي ليلة ، وقد برّحَ العَوَزُ بنا حتى صار أطفالنا يَتَلَوَّون جوعاً على التراب ، والرّضيع بينهم يمصّ ثديي ولا يجد لبناً ، تغيّرت ملامح زوجي ، وذهب مستتراً بالظّلام ، ودخل قَبْواً من أقبية الدّير ، حيث يَخزّن الرُّهبان غلّة الحقول وخمر الكروم ، وحمل زَنْبيلاً [2] من الدّقيق على ظهره وهَمَّ بالرجوع إلينا . لكنه لم يَسِرْ بضع خطوات حتى استيقظ القُسُس من رقادهم ، وقبضوا عليه وأوسَعوه ضرباً وشَتْماً ، وعندما جاء الصباح أسلموه إلى الجُنْد قائلين : « هو لِصّ شرّير ، جاء لكي يسرق آنية الدير الذّهبية .» فاقتاده الجند إلى السجن ، ثم إلى المشنقة ليملأوا أجواف العُقْبان من جسده ؛ لأنه حاول أن يملأ أجواف صغاره الجياع من فضلات الغَلّة التي جناها بأتعابه ، إذ كان خادماً للدير .»

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المتقطع [3] أشباح مُحْزِنَة ، تتصاعد وتتسارع إلى كل ناحية ، كأنها أعمدة من الدُّخان يتلاعب بها الهواء .

وقفتُ بين القبور الثلاثة وقفة مُؤَبَّن أُرْتِجَ [4] عليه وانعقد لسانه لَوْعَةً ؛ فانسكب دمعه متكلّماً عن عواطفه . وحاولت التّفكُّر والتّأمل فعصتني نفسي ؛ لأن النفس كالزّهرة تضمّ أوراقها أمام الظلمة ، ولا تعطي أنفاسها لخيالات الليل .

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ التّظَلُّم انبثاق الضباب من خلايا الأودية ، ويتموّج حول مسامعي ليوحي إليّ الكلام .

وقفت ساكناً ، ولو فهم الناس ما تقوله السّكينَة لكانوا أقرب إلى الآلهة منهم إلى كواسِر الغاب .

وقفت متنهداً ، ولو لامست شعلاتُ تنهيداتي أشجار ذلك الحقل لتحرّكت وتركت أماكنها ، وزحفت كتائِبَ كتائبَ ، وحاربت بقضبانها الأمير جنوده ، وهدمت بجذوعها جدران الدير على رؤوس رهبانه .

وقفت ناظراً ، ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشّفَقَة ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة : قبر فتى دافع بحياته عن شرف عذراء ضعيفة ، وأنقذها

(١) في الأصل : الإمرأة .

(٢) الزّنْبيل : الجراب والوعاء والقفة .

(٣) في الأصل : المنقطع .

(٤) أُرْتِجَ عليه : استغلق عليه الكلام وصعب .

من بين أظفار ذئب كاسر ؛ فقطعوا عُنُقَه جزاء شجاعته ، وقد أغمدت تلك الصبية سيفَه بتراب قبره ؛ ليبقى هناك رمزاً يتكلم أمام وجه الشمس عن مصير الرُّجولة في دولة الحَيْف [١] والغباوة .

وقبر صبية لامسَ الحبُّ نفسها قبل أن تغتصب المطامع جسدها ، فرُجِمَت ؛ لأن قلبها أبى إلّا أن يكون أميناً حتى الموت . وقد وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد ؛ لتتكلّم بذبولها وفنائها البطيء عن مصير النفوس التي يقدّسها الحبُّ بين قوم أعمتهم المادة وأخرسهم الجهل .

وقبر فقير بائس أوهت ساعديه حقولُ الدّير فطرده الرُّهبان ليستعيضوا عنها بسواعد غيره . فطلب الخُبْزَ لصغاره بالعمل فلم يجده ، ثم رجاه بالتّسوُّل فلم يَنَلْه ، وعندما دفعه اليأس إلى استرجاع قليل من الغَلّة التي جمعها بأتعابه وعَرَق جبينه قبضوا عليه وفتكوا به . وقد وضعت أرملته صليباً على قبره لِيَسْتَشْهِدَ في سكينة الليل نجومَ السماء على ظلم رهبان يُحَوِّلون تعاليم الناصري إلى سيوف يقطعون بها الرِّقاب ، ويمزِّقون بحدودها السَّنِينَة [٢] أجساد المساكين والضعفاء .

وتوارت الشّمس إذ ذاك وراء الشّفَق ، كأنها ملّت متاعب البشر وكرهت ظلمهم . وابتدأ المساء يحوك [٣] من خيوط الظّلِّ والسُّكون نقاباً دقيقاً ليلقيه على جسد الطبيعة ، فرفعت عيني إلى العلاء ، وبسطت يدي نحو القبور وما عليها من الرموز ، وصرخت بأعلى صوتي :

« هذا هو سيفُك أيتها الشّجاعة ، فقد أُغْمِدَ بالتراب ، وهذه هي زهورك أيها الحب ، فقد لفحَتْها النّيران ، وهذا هو صليبك يا يسوع الناصِرِيّ ، فقد غمرته ظلمةُ اللّيل . »

* * *

(١) الحَيْف : الظلم والجور . (٢) السَّنِينَة : المسنونة الحادّة .

(٣) في الأصل : يحيك .

مضجع العروس *

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنئون الفارحون ، وتتقدّمهما الشُّموع والمصابيح ، ويسير حولهما الفتيان المترنّمون بالأهازيج ، والصّبايا المنشدات أغاني السرور .

بلغ الموكبُ منزلَ العريس المزدان بالرِّياش الثمينة والأواني المتلمِّعة والرَّياحين العَطِرَة ، فاعتلى العروسان مقعداً مرتفعاً ، وجلس المدعوّون على الطّنافس الحريرية والكراسي المُخْمَلِيَّة ، حتى غصَّت تلك القاعة الوسيعة بأشكال الناس . وسعى الخُدّام بآنية الشراب فتصاعدت رنّات الكؤوس متآلِفَةً مع هُتاف الغبْطَة ، ثم جاء الموسيقيون وجلسوا يُسْكِرون النفوس بأنفسهم السِّحرية ، ويبطنون الصُّدور بألحانهم المنسوجة مع همس أوتار العود ، وتنهيدات الناس ، وحفيف الدُّفوف .

ثم قامت الصّبايا يرقصن ويتمايلن بقامات تُلاحق مقاطع اللّحن ، مثلما تُتابع الأغصان اللّيِّنة مجاري هبوب النسيم ، وتنثني طيّات أثوابهن الناعمة ، كأنها سحب بيضاء يداعبها شعاع القمر . فشَخَصَت إليهن الأبصار ، وسجدت لهن الرؤوس ، وعانقتهن أرواح الفتيان ، وتفطّرت لجمالهن مَرائِرُ الشيوخ . ثم مال الجميع يستزيدون من الشّراب ، ويغمرون أميالهم بالخمور ؛ فنَمَت الحركة ، وعلت الأصوات ، وسادت الحرية ، وتوارت الرَّزانة ، وتضعضعت [٤] الأدمغة ، وتلَهَّبت النفوس ، واضطربت القلوب ، وأصبح ذلك المنزل بكل ما فيه كقيثارة مُقَطَّعة الأوتار في يد جِنِّيَّة غير منظورة ، تضرب عليها بعنف ، وتولّد منها أنغاماً جامعة بين التناسق والالتباس .

فهنا فتى يبوح بسرائر حبه لفتاة أولاها الجمال

* هذه حادثة جرت في شمال لبنان في النصف الأخير من الجيل التاسع عشر ، وقد أخبرتني بها سيدة فاضلة من تلك النواحي تنتسب إلى أحد أشخاص الحكاية . (جبران خليل جبران)

(٤) تضعضعت : تعبت وكلّت .

تيهاً ودلالاً ، وهناك شاب يستعد لمحادثة حسناء مُسْتَحْضِراً إلى حافظته أعذب الألفاظ وأرق المعاني ، وهنالك كهل يَجْرَعُ الكأس وراء الكأس ، ويطلب بلَجاجَة من المنشدين إعادة أغنية ذكَّرته بأيام صَبابته . في هذه القُرْنَة [١] امرأة تُغامِزُ بأطراف أجفانها رجلاً ينظر بمودة إلى سواها . وفي تلك الزاوية سيدة قد بيَّض الشيب مَفْرِقَها تنظر مبتسمة نحو الصبايا لتنتقي منهن عروسة لوحيدها . وبجانب تلك النافذة زوجة قد اتخذت سكر حليلها فرصة فاقتربت من خليلها . وجميعهم غارقون في بحر من الخمر والغزل ، مستسلمون إلى تيار الغبطة والسرور ، متناسون حوادث الأمس ، منصرفون عن مآتي الغد ، منعكفون على استثمار دقائق الحاضر .

كان يجري كل ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين كئيبتين إلى هذا المشهد ، مثلما ينظر الأسير اليائس إلى جدران سجنه السوداء . وتتلفت بين الآونة والأخرى نحو زاوية من زوايا تلك القاعة ، حيث جلس فتى في العشرين من عمره منفرداً عن الناس المغتبطين انفراد الطائر الجريح عن سِرْبِه ، مُكَبِّلاً [٢] زنْدَيْه على صدره ، كأنه يحول بهما بين قلبه والفرار ، مُحَدِّقاً بشيء غير منظور في فضاء تلك القاعة ، كأن ذاته المعنوية قد انفصلت عن ذاته الحسِّيَّة ، وسبحت في الخلاء متبعة أشباح الدُّجى .

انتصف الليل ، وتعاظَمت غبطة الجماعة حتى صارت ثورة ، واختمرت أدمغتهم حتى تلجلجت ألسنتهم ، فقام العريس من مكانه وهو كهل خشن المظاهر وقد تغلب السكر على حواسه وطاف يتكلف اللطف والرقة بين الناس .

في تلك الدقيقة أومأت العروس إلى صبية أن تقترب منها ، فاقتربت وجلست بجانبها ، وبعد أن تلفتت العروس إلى كل ناحية تلفُّتَ جازع يريد أن يفشي سِرًّا خفيًّا هائلاً لَزَّت [٣] إلى الصَّبية ، وهمست في أذنها هذه الكلمات بصوت مرتعش :

« أستحلفك يا رفيقتي بالعواطف التي ضمَّت نفسينا مُنْذُ كنا صغيرتين . أستحلفك بكل ما هو عزيز لديك في هذه الحياة . أستحلفك بمُخَبَّآت صدرك . أستحلفك بالحب الذي يلامس أرواحنا ويجعلها شعاعاً . أستحلفك بأفراح قلبك وأوجاع قلبي أن تذهبي الآن إلى سليم ، وتطلبي إليه أن ينزل خِفْيَة إلى الحديقة ، وينتظرني هناك بين أشجار الصَّفْصاف . تضرَّعي عني يا سوسان حتى يجيب طلبي . ذكِّريه بالأيام الغابِرَة ، توسَّلي إليه باسم الحب . قولي له هي تَعِسَة عمياء . قولي له هي مائِتَة ، تريد أن تفتح قلبها أمامك قبل أن يكتنفها الظلام . قولي له هي هالِكَة شقيَّة ، تريد أن ترى نور عينيك قبل أن تخطفها نار الجحيم ، قولي له هي خاطئة ، تريد أن تعترف بذنوبها وتلتمس عفوك . أسرعي إليه ، وابتهلي عني أمامه ، ولا تخافي مراقبة هؤلاء الخنازير ؛ لأن الخمور قد سدَّت آذانهم وأعمت بصائرهم .»

فقامت سوسان من جانب العروس ، وجلست بقرب سليم الكئيب المنفرد وحده ، وأخذت تستعطفه هامسة في أذنه كلمات رفيقتها ، ودلائل الودّ والإخلاص بادية على ملامحها ، وهو منحني الرأس يسمع ولا يجيب ببنت شَفَة . حتى إذا ما انتهت من كلامها نظر إليها نظرة ظامئ يرى الكأس في قُبَّة الفلك ، وبصوت منخفض تخاله آتياً من أعماق الأرض أجابها قائلاً :

« سأنتظرها في الحديقة بين أشجار الصَّفْصاف .»

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج إلى الحديقة .

ولم تمض بضع دقائق حتى قامت العروس واتَّبعته ، مُخْتَلِسَة خطواتها بين رجال فتنتهم ابنة الكروم ، ونساء شغلت [٤] قلوبهن صَبابَةُ الفتيان . ولما بلغت الحديقة المُوَشَّاة بأثواب الليل أسرعت ملتفتة إلى الوراء . ومثل غزال جازع هارب إلى

(١) القرنة من البيت ونحوه : الزاوية . (٢) مُكَبِّلاً : عاقداً .
(٣) لَزَّت : اقتربت منها ولصقت بها .

(٤) في الأصل : أشغلت .

كناسه [١] من الذئاب الخاطفة تقدّمت نحو أشجار الصَّفْصاف حيث وقف ذلك الفتى ، ولما رأت نفسها بجانبه ترامت عليه ، وطوّقت عنقه بزنديها ، وحدقت إلى عينيه ، ثم قالت والألفاظ تتسارع من شفتيها بسرعة الدموع من أجفانها :

« اسمعني يا حبيبي ، اسمعني جيداً . ها قد ندمت على جَهالتي وتسرُّعي . قد ندمت يا سليم حتى سحقت النّدامةُ كبدي . أنا أحبك ولا أحب سواك ، وسوف أحبُّك إلى منتهى العُمْر . قد أخبروني بأنك سَلَوْتني وهجرتني ، وتعلّقت بهوى غيري . أخبروني بكل ذلك يا سليم ، وسمّموا قلبي بألسنتهم ، ومزّقوا صدري بأظافرهم ، وملأوا نفسي بكذبهم . قد أخبرتني نجيبة بأنك سلوتني ، وكرهتني ، وانشغفت بحبها . قد ظلمتني تلك الخبيثة ، واحتالت على عواطفي لكي أرضى بنسيبها عريساً ؛ فرضيته ، يا سليم ، ولا عريسَ لي سواك .

« والآن ، والآن قد رُفِعَ الغِشاء عن عيني فجئت إليك . قد خرجت من هذا المنزل ولن أعود إليه . قد جئت لكي أضمك بذراعي ، ولا توجد قوة في هذا العالم تُرجعني إلى ذراعي الرجل الذي زُفِفْتُ إليه كَرْهاً ويأساً . قد تركت العريس الذي اختاره لي الكذب بَعْلاً ، وتركت الوالد الذي أقامه القدر وليًّا ، وتركت الزهور التي ضَفَرها الكاهن إكليلاً ، وتركت الشرائع التي حَبَكتها التقاليد قيوداً . قد تركت كل شيء في هذا المنزل المملوء بالسُّكْر والخَلاعة ، وأتيت لأتبعك إلى أرض بعيدة ، إلى أقاصي العالم ، إلى مكامِن الجِنّ ، إلى قبضة الموت .

« تعال نسرع يا سليم من هذا المكان ، متستّرين بوشاح الليل . هلم نسير إلى الساحل ، ونركب سفينة تحملنا إلى بلاد بعيدة مجهولة . تعال نمشي الآن فلا يجيء الفجر إلّا ونحن في مأمن من أيدي العدو . انظر ، انظر هذه الحلي الذهبية ، وهذه القلائد والخواتم الثمينة ، وهذه الجواهر النفيسة ، فهي تكفل مستقبلنا ، وتكفي لنعيش بأثمانها كالأمراء . لماذا لا تتكلّم يا سليم ؟ لماذا لا تنظر إليّ ؟ لماذا لا تُقَبّلني ؟ أ سامع أنت صراخ قلبي وعويل نفسي ؟ أ لا تصدق أني [٢] هجرت عريسي وأبي وأمي ، وجئت بأثواب العُرْس لكي أهرب معك ؟ تكلّم أو هَلُمّ نسرع ؛ فهذه الدقائق أثمن من حبّات الألماس ، وأغلى من تيجان الملوك .»

كانت العروس تتكلّم وفي صوتها نَغْمَة أعذب من همس الحياة ، وأمَرّ من عويل الموت ، وألطف من حفيف الأجنحة ، وأعمق من أنين الأمواج ؛ نغمة تتموّج نبضاتها بين اليأس والأمل ، واللّذّة والألم ، والفرح والشقاء ، وكل ما في صدر المرأة [٣] من الميول والعواطف .

أما الشّاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحب والشّرف : ذلك الحب الذي يجعل الوَعْرَ سَهْلاً ، والظّلام نوراً . وذلك الشّرف الذي يقف أمام النفس ، ويثنيها عن رغباتها ومنازعها . ذلك الحب الذي يُنزله الله على القلب ، وذلك الشرف الذي تَسْكبه تقاليد البشر في الدّماغ .

وبعد أحيان خرساء هائلة ، شبيهة بالأجيال المظلمة التي تتمايل فيها الأمم بين النهوض والاضمحلال ، رفع الشاب رأسه وقد تغلّب شرفُ نفسه على ميلها ، وحوّل عينيه عن الصبية الخائفة المترَقِّبة ، وقال بهدوء :

« ارجعي أيتها المرأة [٤] إلى ذراعي عريسك ؛ فقد قُضِيَ الأمرُ ، ومَحَت اليقظة ما صوّرته الأحلامُ . أسرعي إلى أحضان المسرّات قبل أن تراك أعين الرقباء ؛ فيقول الناس قد خانت عريسها في ليلة العُرْس ، مثلما خانت حبيبها أيام البعاد .»

فارتعشت العروس لهذه الكلمات ، وتململت كزهرة ذابلة أمام الريح ، ثم قالت متوجّعة :

« لا أعود إلى هذا المنزل وبي رَمَقٌ من الحياة . قد خرجت منه إلى الأبد . قد تركته وكل من فيه ،

(١) الكِناس : بيت الظبي .

(٢) في الأصل : بأني .

(٣) في الأصل : الإمرأة .

(٤) في الأصل : الإمرأة .

مثلما يترك الأسير أرض المنفى ؛ فلا تبعدني عنك ولا تقل إنني [1] خائنة ؛ لأن يد الحب التي مزجت روحي بروحك هي أقوى من يد الكاهن التي أسلمت جسدي إلى مشيئة العريس . ها قد طوّقت ذراعيّ حول عنقك فلا تحلهما القوّات ، وقرّبت نفسي إلى نفسك فلا يفرقهما الموت .»

فقال الشاب محاولاً الخلاص من ذراعيها ، متكلّفاً إظهار المقْت والاشمئزاز :

« ابتعدي عني أيتها المرأة [2] فقد سلوتك ، نعم سَلَوْتك وكرهتك ، وتعلّقت بهوى غيرك ، فلم يقل الناس غير الصحيح . هل سمعت ماذا أقول ؟ قد سَلَوْتُكِ حتى نسيت وجودك ، وكَرِهتُكِ حتى أَبَتْ نفسي مرآك ؛ فابتعدي عني ودعيني أذهب في سبيلي ، وعودي إلى عريسك ، وكوني له زوجة أمينة .»

فقالت الصبية متفجّعة : « لا ، لا أُصَدِّقُ كلامك ؛ فأنت تحبني ، وقد قرأت معنى الحب في عينيك ، وشعرت بملامسه عندما لمست جسدك . أنت تحبني ، وتحبني ، وتحبني مثلما أحبك ، فأنا لا أترك هذا المكان إلّا بجانبك ، ولن أدخل هذا المنزل وفي نفسي بقية من الإرادة . قد جئت لكي أتبعك إلى آخر الأرض ، فسر أمامي ، وارفع يدك ، واهْرِق دمي .»

فقال الشاب وقد رفع صوته عن ذي قَبْل : « اتركيني أيتها المرأة وإلّا صرخت بأعلى صوتي، وجمعت في هذه الحديقة أولئك الناس المدعوين إلى أفراح عُرْسك ، وأريتهم عارك ، وجعلتك مُضْغَة مُرَّة في أحناكهم ، ومثلاً قبيحاً على ألسنتهم ، وأوقفت نجيبة التي أحبها قلبي تسخر بك ، وتبتسم فارحة بانتصارها ، مستهزئة بانغلابك .»

قال هذا وأمسك بذراعها ليبعدها عنه ، فتغيرت ملامحها ، وأبرقت عيناها ، وتحوّلت بكُلّيّتها من الاستعطاف والرجاء والتّوَجُّع إلى الغضب والقساوة ، وصارت كلَبْوة فقدت أشبالها ، أو كبحر أثارت أعماقه الزوابع ، ثم صرخت :

« من هي التي تتمتّع بحبك بعدي ، وأي قلب يسكر بقُبَل شفتيك غير قلبي ؟»

لفظت هذه الكلمات وانشتلت من بين أثوابها خِنْجَرًا سَنِيناً ، وأغمدته بصدره بسرعة البرق ، فهوى وسقط على الأرض كغصن قصفته العاصفة ، فانحنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دماً ، ففتح عينيه المغمورتين بظلِ الموت ، وارتعشت شفتاه ، وخرجت هذه الكلمات مع أنفاسه الضعيفة :

« اقتربي الآن يا حبيبتي . اقتربي يا ليلى ولا تتركيني . الحياة أضعف من الموت ، والموت أضعف من الحب . اسمعي ، اسمعي قهقهة الفارحين بعُرْسك . اسمعي رنين كؤوسهم يا حبيبتي . لقد أنقذتني يا ليلى من قساوة هذه القهقهة ومرارة تلك الكؤوس ؛ فدعيني أُقَبِّل اليد التي كسرت قيودي . قبّلي شفتيّ ، قبّلي شفتيّ اللتين تكلّفتا الكذب وأخفتا أسرار قلبي . أغمضي أجفاني الذابلة بأصابعك المغموسة بدمي ، وعندما تطير روحي في الفضاء ضعي الخنجر في يميني ، وقولي لهم قد انتحر يأساً وحسداً . قد أحببتك يا ليلى ، ولم أحب سواك ، ولكنني رأيت تضحية قلبي وسعادتي وحياتي أفضل من الهرب بك في ليلة عرسك . قبّليني يا حبيبة نفسي قبل أن يرى الناس جثتي ... قبّليني ، قبّليني يا ليلى .»

و وضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه وفاضت روحه .

فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل ، وصرخت بصوت هائل :

« تعالوا ، تعالوا أيها الناس ؛ فهنا العُرْس وهنا العريس . هلّموا لنريكم مضجعنا الناعم . استيقظوا

---

(١) في الأصل : بأنني . (٢) في الأصل : الإمرأة .

أيها النّيام ، وانتبهوا أيها السّكارى ، وأسرعوا لنريكم أسرار الحب والموت والحياة .»

تموّج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل ، حاملاً كلماتها إلى آذان المحتفلين المغتبطين ، فارتعشت أرواحهم ، وأصغوا هُنَيْهَةً ، كأن الصحو قد باغَتَ نشوتهم ، ثم تراكضوا مسرعين من أبواب المنزل ومخارجه ، وساروا متلفّتين يميناً وشمالاً ، حتى إذا ما رأوا جثة المصروع والعروس الجاثية بقربها تراجعوا مذعورين إلى الوراء ، ولا أحد منهم يَجْسُر على استقصاء الخبر ، كأن منظر الدّماء المنبَعِثَة من صدر القتيل ولمعان الخنْجر في يد العروس قد عقد ألسنتهم ، وأجمد الحياة في أجسادهم .

فالتفتت العروس إليهم ، وقد اتّشحت ملامحها بهيبة محزنَة ، وصرخت قائلة :

« اقتربوا أيها الجبناء ولا تخافوا خيال الموت ؛ فهو عظيم لا يدنو من صَغارَتكم [١] . اقتربوا ولا ترتجفوا جزعاً من هذا الخنجر ؛ فهو آلة مقدسة لا تُلامس أجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة . انظروا هذا الفتى الجميل المتَسَرْبِل بحُلَّة العُرْس – هو حبيبي ، وقد قتلته لأنه حبيبي . هو عريسي وأنا عروسته ، وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق بعناقنا في هذا العالم ، الذي جعلتموه ضيّقاً بتقاليدكم ، ومُظلِماً بجهالتكم ، وفاسداً بلهاثكم ؛ ففضّلنا الذهاب إلى ما وراء الغيوم .

« اقتربوا أيها الضعفاء الخائفون ، وانظروا لعلّكم ترون وجه الله منعكساً على وجهينا ، وتسمعون صوته العذب منبثقاً من قلبينا . أين هي تلك المرأة الخبيثة الحسود [٢] التي وشت إليّ بحبيبي ، وقالت إنه [٣] شُغِفَ بها وسَلاني ، وتعلّق بحبها لينساني ؟ قد توّهمت تلك الشريرة أنها [٤] ظفرت عندما رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس نسيبها . أين نجيبة المحتالة ؟ أين تلك الأفعى الجهَنّمِيَّة ؟ دعوها تقترب الآن ، وترى أنها [٥] قد جمعتكم لتفرحوا بعُرْس حبيبي ، وليس بعرس الرجل الذي اختارته لي.

« أنتم لا تفهمون كلامي ؛ لأن اللُّجّة لا تعي أغاني الكواكب ، لكنكم سوف تخبرون أبناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عُرْسها . سوف تذكرونني وتلعَنونني بشفاهكم الأثيمة ، أما حَفَدَتكم فسوف يباركونني ؛ لأن الغد سيكون للحق والرّوح .

« وأنت أيها الرجل الغبي الذي استخدم الحيلة والمال والخيانة ليُصَيِّرني له زوجة ، أنت رمز هذه الأمة التَّعِسَة التي تبحث عن النور في الظُّلمة ، وتترقّب خروج الماء من الصخرة ، وظهور الورد من القُطْرُب[٦] . أنت رمز هذه البلاد المستَسْلِمَة لغباوتها استسلام الأعمى إلى قائده الأعمى . أنت ممثّل الرجولة الكاذبة التي تقطع الأعناق والمعاصم توصُّلاً إلى العقود والأساور . أنا أغتفر لك صَغارتك ؛ لأن النفس الفارحة بذهابها من هذا العالم تغتفر جميع زلات هذا العالم .»

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء ، ونظير ظامئ يُقَرّب حافّة الكأس إلى شفتيه أغمدته بعزم في صدرها ، وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عُنُقَها حَدُّ المِنْجَل . فتململت النساء وصرخن صراخ الخوف والألم ، وأغْمي على بعضهن ، وتصاعد ضجيج الرِّجال من كل ناحية ، واقتربوا من المصروعَيْن بوَجَل وهَيْبَة .

فنظرت إليهم العروس المنازِعَة وقالت ونَجيعُ [٧] الدّماء ينهل بغزارة من صدرها البلّوري :

« لا تقتربوا أيها العاذلون ، ولا تفصلوا بين جسدينا ، وإن حاولتم فالروح الحائمة فوق رؤوسكم

(١) صَغارَتكم : حقارتكم ضد العظم .
(٢) في الأصل : الحسودة . (٣) في الأصل : بأنه .
(٤) في الأصل : بأنها .
(٥) في الأصل : بأنها .
(٦) القُطْرُب : نبات شائك يحمل حَبًّا يلتصق بمن يمرّ به .
(٧) النجيع من الدم : ما كان مائلا إلى السواد .

تقبض على أعناقكم وتخنقكم بعنف وقساوة . دعوا هذه الأرض الجائعة تلوكُ جسدينا لُقْمة واحدة ، دعوها تخفينا وتحمينا في صدرها ، مثلما تحمي البذور من ثلوج الشتاء حتى يجيء الربيع .»

ولزّت العروس إلى حبيبها ، وألقت شفتيها على شفتيه الباردتين ، وخرجت هذه الكلمات المتقطِّعة مع أنفاسها الأخيرة :

« انظر يا حبيبي ، انظر يا عريسَ نفسي كيف وقف الحُسّاد حول مضجعنا . انظر عيونهم المحدِّقة بنا ، واسمع صرير أسنانهم وتكسر [1] ضلوعهم . قد انتظرتني طويلاً يا سليم فها أنذا . قد كسَّرْتُ القيود وفككت السلاسل ؛ فلنسْرِعَنَّ نحو الشّمس ؛ فقد طال وقوفنا في الظِّل . ها قد امَّحت الرسوم وانحجبت الأشياء ، فلم أعد أرى سواك يا حبيبي . ها شفتاي فاقتبل أنفاسي الأخيرة . هلم نذهب يا سليم ؛ فقد رفع الحب أجنحته وسبح أمامنا نحو دائرة النور .»

وألقت العروس صدرها على صدر حبيبها ، فامتزجت دماؤها بدمائه ، وأحنت رأسها على عنقه وظلت عيناها محدِّقتين بعينيه .

ولبث الناس صامتين هنيهة ، وقد اصفرّت وجوههم ، وتراخت رُكَبُهم ، كأن هيبة الموت قد سلبتهم القوّة والحَراك . فتقدم إذ ذاك الكاهن ، الذي ضَفَّر بتعاليمه أكاليل ذلك العُرْس ، وأشار بيمينه نحو القتيلَيْن ، ونظر نحو القوم المذهولين وخاطبهم بصوت خشن قائلاً :

« ملعونة هي الأيدي التي تُمَدُّ إلى هذين الجسدين الملطَّخَيْن بدماء الجريمة والعار . وملعونة هي الأعين التي تذرف دموع الحزن على هالِكَيْن قد حملت الأبالسة روحيهما إلى الجحيم . لتبقَ جُثَّةُ ابن سادوم [2] وجثة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب الدَّنِس المجبول بدمائهما ، حتى تتقاسم لُحْمانَهما الكلاب وتذري عظامهما الرِّياح . اذهبوا إلى مساكنكمَ أيها الناس ، واهربوا من الرائحة المنْتِنَة المتصاعدة من داخل قلبين جَبَلتهما الخطيئة وسحقتهما الرذيلة . تفرّقوا أيها الواقفون بقُرب هاتين الجيفَتيْن ، وانصرفوا مسرعين قبل أن تلسعكم ألسنة النار الجَهَنَّمِيَّة ، ومن يبق منكم ههنا يكن محروماً ومرذولاً ؛ فلا يدخل الهيكل الذي يركع فيه المؤمنون ، ولا يشترك بالصلاة التي يُقَدِّمها المسيحيون .»

فتقدَّمت سوسان ، تلك الصَّبيَّة التي بعثتها العروس رسولاً إلى حبيبها ، و وقفت أمام الكاهن ، ونظرت إليه بعينين مُغْرَوْرِقَتَيْن بالدموع وقالت بشجاعة :

« أنا أبقى هنا أيها الكافر الأعمى ، وأنا أحرسهما حتى يجيء الفجر ، وأنا أحفرو لهما قبراً تحت هذه الأغصان المتدلِّية . فإن منعتم عني مِحْفَراً [3] مزّقت صدر الأرض بأصابعي ، وإن ربطتم ساعدي حَفَرْتُه بأسناني . أسرعوا من هذا المكان المملوء برائحة البخور واللبان ؛ فالخنازير تأبى استنشاق العطور الزَّكِيَّة ، واللصوص الخاطفة تهابُ ربَّ البيت وتخشى قدوم الصباح . أسرعوا إلى مضاجعكم المظلمة ؛ لأن أغاني الملائكة المتموِّجة فوق شهيدي الحب لا تدخل آذانكم المسدودة بالتراب .»

وتفرَّق الناس من أمام وجه الكاهن العبوس ، ولبثت تلك الصبيَّة واقفة بقرب الجثتين الهامدتين ، كأنها أم رَقوب تحرس طفليها في سكينة الليل .

ولما توارَى الجمْعُ ، وخلا ذلك المكان ، استسلمت للبكاء والنَّحيب .

* * *

(١) في الأصل : وتكسير .

(٢) سادوم : مدينة قديمة في فلسطين على شاطئ البحر الميت ذكر الكتاب المقدس أن الله أمطرها مع مدينة عامورة ناراً ؛ قصاصاً على خطايا أهلها .

(٣) المِحْفَر : آلة الحفر .

خليل الكافر

١

كان الشيخ عباس بين سكان تلك القرية المنْزَوية في شمال لبنان كالأمير بين الرَّعيَّة . وكان منزله القائم بين أكواخهم الحقيرة يُشابه الجبّار الواقف بين الأقزام . وكانت معيشته ممتازة عن معيشتهم بميزة السَّعَة عن العَوَز ، وأخلاقه مختلفة عن أخلاقهم باختلاف القوَّة عن الضَّعْف .

إن تكلّم الشيخ عباس بين أولئك الفلاحين أحنَوا رؤوسهم إيجاباً ، كأن القوى العقلية قد انتدبته ممثّلاً لها ، واتخذت لسانه تُرْجماناً عنها . وإن غضب ارتجفوا جزعاً وتبددوا من أمام وجهه ، مثلما تتراكض أوراق الخريف أمام الأرياح . وإن صَفَع خَدَّ رجل منهم ظلّ ذلك الرجل جامداً صامتاً ، كأن الضربة قد أتت من السماء ؛ فمن الكفر أن يتجاسر ويرفع عينيه ليرى من أنزلها . وإن تبسّم لرجل آخر ، قال الجميع : ما أسعده فتى ، رضي عنه الشيخ عباس !

ولم يكن استسلام أولئك المساكين إلى الشيخ عباس وخوفهم قساوَته صادرَيْن عن ضعفهم وقوته فقط ، بل كانا ناجمَين عن فقرهم واحتياجهم إليه ؛ لأن الحقول التي كانوا يحرثونها ، والأكواخ التي يسكنونها كانت ملكه ، وقد ورثها عن أبيه وجَدّه ، مثلما ورثوا الفقر والتَّعاسة عن آبائهم وجدودهم .

فكانوا يُفْلِحون الأرض ، ويزرعونها ، ويحصدونها تحت مراقبته ، ولا يحصلون لِقاءَ أتعابهم وجهادهم إلّا على جزء من الغَلّة لا يكاد يُنْقذهم من أظافر الجوع . قد كان أكثرهم يحتاج إلى الخُبْز قبل انقضاء أيام الشتاء الطويلة ، فيذهب إليه الواحد بعد الآخر ، ويتضرّع أمامه باكياً مستعطِفاً ؛ لكي يقرضه ديناراً أو مِكْيالاً من الحِنْطَة ، فكان الشيخ عباس يجيب سُؤْلَهم مسروراً ؛ لعلمه بأنه سيستوفي الدينار دينارين ، ومِكْيال الحِنْطة مِكْيالَيْن ، عندما تجيء أيام البيادر والموسم .

وهكذا كان يبقى هؤلاء التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس ، مُكَبَّلين بحاجتهم إليه ، خائفين غضبه ، طالبين رضاه .

٢

قدم الشِّتاء بثلوجه وعواصفه ، وخلت الحقول والأودية ، إلّا من الغِرْبان النّاعِبَة ، والأشجار العارية ، فلزم سكان تلك القرية أكواخهم بعد أن أشبعوا أهراء [١] الشيخ عباس من الغَلّة ، وملأوا آنيته من عصير الكروم ، وأصبحوا ولا عمل لهم ، يُفْنون الحياة بجانب المواقد ، متذكِّرين مآتي الأجيال الغابرة ، مردِّدين على مسامع بعضهم حكايات الأيام والليالي .

انقضى كانون الأول [٢] ، وقضى العامُ العجوز متنهِّداً أنفاسه الأخيرة في الفضاء الرمادي ، وجاءت الليلة التي يتوّج فيها الدَّهرُ رأس عام الطفل ويجلسه على عرش الوجود .

توارى النور الضئيل ، وغمرت الظلمة البِطاح والأودية ، وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة ، والعواصف تُصَفِّر وتتسارع مُلَعْلِعَة من أعالي الجبال نحو المنخفضات ، حاملة الثلوج لتخزنها في الوهاد ، فترتعش لِهَوْلها الأشجار ، وتتململ أمامها الأرض ، فمزجت الأرياح بين ما تساقَطَ من الثلج في ذلك النهار والساقط منه في تلك الليلة . حتى أصبحت الحقول والطلول والممرات كصفحة واحدة بيضاء ، يكتب عليها الموت سطوراً مبهَمَة ثم يمحوها ، وفصَل الضباب بين القرى المنثورة على كتفي الوادي ، وتوارت الأنوار الضئيلة التي كانت تُشَعْشع في نوافذ البيوت والأكواخ الحقيرة .

وقبض الرُّعْب [٣] على نفوس الفلاحين ، وانزوت البهائم بقرب المعالف ، واختبأت الكلاب في القراني ، ولم يبق سوى الريح تخطب وتضجّ

---

(١) جمع هُري ، وهو بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام البرّ ونحوه . (٢) كانون الأول : ديسمبر .

(٣) في الأصل : قبضت الرعبة .

على مسامع الكهوف والمغاور [١] ، فيتصاعد صوتها الرهيب من أعماق الوادي تارة ، وطوراً ينقضُّ من أعالي قمم الجبال . فكأن الطبيعة قد غضبت لموت العام العجوز ، فقامت تأخذ بثأره من الحياة المختبئة في الأكواخ ، وتحاربها بالبرد القارس والزَّمْهَرير الشديد .

ففي هذه الليلة الهائلة ، وتحت هذا الجو الثائر ، كان فتى في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعِدَة بتدرُّج من دير قَزَحيا [٢] إلى قرية الشيخ عباس ، وقد أيبس البردُ مفاصِلَه ، وانتزع الجوع والخوف قواه ، وأخفت الثلوج ثوبه الأسود ، كأنها تريد أن تُكَفِّنه قبل أن تميته . فكان يخطو إلى الأمام والأرياح تصده وترجعه إلى الوراء ، كأنها أبت أن تراه في منازل الأحياء ، وتتشبث الطريقُ الوَعِرَة بقدميه فيسقط ثم ينهض ، ثم يصرخ بأعلى صوته مستغيثاً ، ثم يُخْرِسُه البرد فيقف صامتاً مرتجفاً ، فكأنه العناصر المتحارِبَة كالأمل الضعيف بين اليأس الشديد والحزن العميق ، أو كعصفور مكسور الجناحين سقط في النهر فحمله التيّار الغضوب إلى الأعماق .

وظل الشاب سائراً والموت يتبعه حتى خارَت قُواه، وانحطت عزيمته ، وتجمَّدت الدِّماء في عروقه ، فارتمى على الثلوج ، وصرخ صوتاً هائلاً هو بقية الحياة في جسده ؛ صوتُ خائف قد رأى خيال الموت وجهاً لوجه ؛ صوتُ مُنازع قانِط أتلفته الظُّلمة ، وقبضت عليه العاصفة لترمي به إلى الهاوية ؛ صوت مَحَبَّة الكِيان [٣] في فضاء العدم .

٣

في الجهة الشمالية من تلك القرية كوخ صغير منفرد بين الحقول ، تسكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم ، غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سِنِيها . هذه المرأة هي أرملة سمعان الرامي الذي وُجد قتيلاً في البرية منذ خمسة أعوام ، ولم يُعْرف قاتله بَعْدُ .

كانت راحيل مثل جميع الأرامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء ؛ فكانت تخرج أيام الحصاد وتلتقط السنابل المتروكة في الحقل . وفي أيام الخريف كانت تجمع فضلات الأثمار المنسِيَّة في البساتين ، وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخيط الأثواب لقاء دُرَيْهمات قليلة أو مكيال من الذرة ، وكانت جميع أعمالها مقرونة بالثَّبات والصَّبر والاعتناء . أما ابنتها مريم فكانت صبية جميلة هادئة ، تشاطر والدتها الأتعاب ، وتُساهمها أعمال البيت .

ففي تلك الليلة المخيفَة التي وصفناها كانت راحيل وابنتها جالستين بقرب موقد قد تغلب البرد على حرارته ، واكتنف الرَّماد جَمْره ، وفوق رأسيهما سِراج ضعيف يبعث أشعته الصَّفراء الضئيلة إلى قلب الظُّلمة ، مثلما تبعث الصلاة أشباح التَّعْزية إلى كبد الفقير الحزين .

انتصف الليل والمرأتان جالستان تسمعان وَلْوَلة الأرياح خارجاً ، ومن وقت إلى آخر كانت الصَّبيَّة تقف وتفتح الكُوَّة الصغيرة ، وتنظر نحو الفضاء المظلِم ، ثم تعود إلى مكانها مضطربة مُرْتَعِبَة من غضب العناصر .

في تلك الدقيقة تحرَّكت الصَّبيَّة فجأة كأنها استيقظت من سُبات نوم عميق ، والتفتت بوَجَل نحو أمها ، وقالت بسرعة :

« هل سمعت ، يا أماه ؟ هل سمعت صوت صارخٍ مُسْتَغيث ؟»

فرفعت الوالدة رأسها وأصغت هنيهة ، ثم أجابت:

« لا ، لم أسمع سوى عويل الأرياح ، يا ابنتي .»

فقالت الصَّبيَّة : « أنا قد سمعت صوتاً أعمق من هزيم [٤] الرِّيح ، وأمرّ من عويل العاصفة ؟»

قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة ، وفتحت

(١) في الأصل : المغاير . (٢) هو أغنى وأشهر دير في لبنان ، ويسكنه عشرات من الرهبان المعروفين بالبلديين . وقزحيا لفظة سريانية معناها : فردوس الحياة . (٣) الكِيان : الكون .

(٤) هزيم : صوت .

الكُوَّة ، وأصغت دقيقة ثم قالت : « قد سمعت الصراخ ثانية ، يا أماه .»

فأجابت الأم ، وقد أسرعت مُرتاعَة نحو النافذة :

« وأنا قد سمعت أيضاً . تعالي نفتح الباب وننظر . أوصدي النّافذة كيلا تطفئ الريحُ السّراج .»

قالت هذا والتفّت برداء طويل ، وفتحت الباب وخرجت بقدم ثابتة ، وبقيت مريم واقفة في الباب والهواء يتلاعب بجدائل شعرها .

مشت راحيل بضع خطوات فالِحَة [1] الثّلج بقدميها ، ثم وقفت ونادت : « من الصارخ ؟ أين المستغيث ؟»

فلم يجبها أحد ، ثم ردّدت كلماتها هذه ثانية وثالثة ؛ وإذْ لم تسمع غير صراخ الزّوبعة تقدّمت إلى الأمام بشجاعة متلفّتة إلى كل ناحية ، حاجبة وجهها من تموّجات الريح العنيفة . ولم تسر رَمْيَةَ سَهْم حتى رأت أثر أقدام غارقة في الثلج قد أوشكت الأرياح أن تمحوها ، فاتبعتها بسرعة جازع مُتَرَقّب . وبعد هنيهة نظرت فرأت أمامها جسداً مطروحاً على الثلج كرُقْعة سوداء على ثوب ناصع البياض ، فتقدّمت وذَرّت [2] الثلج عنه ، وأسندت رأسه على ركبتيها ، و وضعت يدها على صدره ، وإذ شعرت بنبضات قلبه المتهاونَة التفتت نحو الكوخ وصرخت قائلة :

« هَلُمّي يا مريم ، هَلُمّي إلى معونتي ؛ فقد وجدته .»

فخرجت مريم من البيت متّبعة أثر أقدام والدتها ، مرتعشة من البرد والخوف ، حتى إذا ما بلغت المكان ورأت الشاب الملقى بلا حَراك على الثلج تأوّهت وصرخت بلهفة وتوجّع ، فقالت الأم وقد وضعت يديها تحت إبطَيْه :

« هو حَيّ فلا تخافي ، بل امسكي بأطراف أثوابه ، وتعالي نحمله إلى البيت .»

حملت المرأتان الفتى والأرياح الشديدة تصدهما، والثلوج تتمسك بأقدامهما ، حتى إذا ما بلغتا به الكوخ ألقتاه بجانب الموقد ، وأخذت الأم تفرُك أعضاءه المتَجَلّدة ، والابنة تجفّف بأطراف ثوبها شعره البليل وأصابعه الباردة . فلم تمرّ بضع دقائق حتى عادت إليه الحياة ، فتحرّك قليلاً وارتعشت أجفانه ، وتنهّد تنهيدة عميقة بعثت الأمل بنجاته في قلبي المرأتين الشفوقين .[3] فقالت مريم بعد أن حلّت سيور حذائه المهشّم وخلعت عباءته البَليلة :

« انظري يا أماه ، انظري ملابسه فهي شبيهة بأثواب الرهبان .»

« فالتفتت راحيل ، وقد وضعت في الموقد غمراً من القضبان اليابسة ، وقالت مُستَغْرِبَة :

« إن الرهبان لا يخرجون من الدير في مثل هذه الليلة المخيفة ، فأي شيء يا تُرى جعل هذا المسكين يخاطر بحياته ؟»

فقالت الصَّبِيّة مستدركة : « ولكن هو أمْرَد ، يا أماه ، وللرُّهبان لحًى كثيفة.»

فنظرت إليه الوالدة وقد انسكبت الرأفة الوالِدِيّة من عينيها ، وقالت مُتَنَهّدَة :

« جَفّفي قدميه جيّداً ، يا ابنتي ، راهباً كان أم مجرماً .»

وفتحت راحيل الخزانة الخشبية وأخرجت منها جَرّة صغيرة مملوءة خمراً ، وسكبت منها في إناء من الفَخّار ثم قالت لابنتها :

« أسندي رأسه يا مريم لنُجَرّعه قليلاً من الخمر ؛ لينتعش وتعود الحرارة إلى جسده .»

قرّبت راحيل حافة الطّاس إلى شفتي الشاب وجرّعته قليلاً ، ففتح عينيه الكبيرتين ونظر إلى مُنْقِذَتَيْه لأول مرّة نظرة لطيفة مُحْزِنَة ، قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة الجميل ؛ نظرة من شعر بملامس الحياة بعد أن كان بين مخالب الموت ؛ نظرة الأمل بعد اليأس ، ثم ألوى عنقه وخرجت هذه الكلمات من بين شفتيه المرْتَعِشَتَيْن : « ليبارككما الله .»

---

[1] فالِحَة : شاقّة .

[2] ذَرّت : نثرت وأبعدت .

[3] في الأصل : الشفوقتين .

فقالت راحيل وقد وضعت يدها على كتفه :

« لا تُزْعج نفسك بالكلام يا أخي ، بل ابقَ صامتاً حتى تعود إليك القوّة . »

وقالت مريم : « اتكئ يا أخي على هذا المسند ، واقترب قليلاً من الموقد . »

فاتّكأ الشاب مُتَنَهِّداً ، وبعد دقيقة ملأت راحيل الطّاس خمراً وسقته ثانية ، ثم التفتت نحو ابنتها وقالت : « ضعي جُبّته بقُرْب النار لتجف . »

ففعلت مريم ، ثم جلست تنظر إليه بحُنُوٍّ وشفقة، كأنها تريد أن تبثّ بنظراتها الحرارة والقوّة في جسده النّحيل .

وأحضرت راحيل إذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة مملوءة دِبْساً [1] وطبقاً عليه بعض الثّمار المجَفَّفة ، وجلست بجانبه تطعمه بيدها لُقَماً صغيرة ، مثلما تفعل الأم وطفلها . حتى إذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء من النشاط استوى جالساً على البِساط ، فانعكست أشعة النار الوردية على وجهه المصْفَر ، وتلمّعت عيناه الحزينتان ثم قال هازاً رأسه بهدوء :

« الرحمة والقساوة تتصارعان في القلب البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة المظلمة ، ولكن سوف تتغلب الرحمة على القساوة لأنها إلهية، وسوف تمرُّ مخاوف هذه الليلة بمجيء النهار . »

وسكت الشاب دقيقة ، ثم زاد بصوت منخفض يكاد لا يُسْمَع :

« يَدٌ بشرية دفعتني إلى الهَوان ، ويَدٌ بشرية خلّصتني ؛ فما أشد قساوة الإنسان وما أكثر رأفته ! »

فقالت راحيل بصوت تمتزج بمقاطعِه عاطفةُ الأمومة بعذوبة الطمأنينة :

« كيف تجرّأت يا أخي وتركت الدير في هذه الليلة التي تخافها الذئاب ؛ فتنزوي [2] بالكهوف ، وتهابها العُقْبان فتختبئ بين الصخور ؟ »

فأغمض الشاب عينيه كأنه يريد أن يعيد بأجفانه الدموع إلى أعماق قلبه ثم قال :

« للثعالب أوْجرَة [3] ، ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الانسان فليس له أن يُسْنِد رأسه . »

فقالت راحيل : « هكذا قال يسوع الناصري عن نفسه عندما طلب إليه أحد الكَتَبَة أن يتبعه إلى حيث يذهب . »

فأجاب الشاب : « وهكذا يقول كلُّ من يريد أن يتّبع الروح والحق في هذا الجيل المملوء بالكذب والرّياء والفساد . »

فسكتت راحيل مُفكِّرَة بمعنى كلماته ، ثم قالت بشيء من التردُّد :

« ولكن في الدير غُرَف عديدة رحبة ، وخزائنُ طافحَة بالذهب والفضة ، وأقبية مملوءة بالغَلّة والخمور ، وزرائبُ غاصّة بالعجول والكُبوش المسَمَّنة ؛ فأي أمر جعلك تترك جميع هذه الأشياء وتخرج في مثل هذه اللّيْلة ؟ »

فقال الشاب متنهداً : « قد تركت جميع هذه الأشياء وخرجت كُرْهاً من الدّير . »

فقالت راحيل : « إن الراهب في الدير نظير الجندي في ساحة الحرب ، يزجُره رئيسه فينحني صامتاً ويأمره فيطيع مسرعاً . وقد سمعت بأن الرجل لا يصير راهباً إلّا إذا نزع عنه الإرادة والفكر والميل وكل ما يختص بالنفس ، ولكن الرئيس الصالح لا يطلب من مرءوسيه فوق طاقتهم ؛ فكيف يطلب منك رئيسُ دير قزحيا أن تسلم حياتك إلى العواصف والثلوج ؟ »

فأجاب الشاب : « إن الرجل لا يصير راهباً في عُرْف رئيسه إلّا إذا كان مثل آلة عمياء خرساء ، فاقدة الحِسّ والقوّة . أما أنا فقد خرجت من الدير لأنني لست آله عمياء بل إنساناً [4] يرى ويسمع . »

فحدقت [5] به راحيل ومريم ، كأنهما قد رأتا في وجهه سرًا خفيًا يريد كتمانه ، وبعد هُنَيْهَة قالت

(١) الدِّبْس : عسل التمر . (٢) في الأصل : وتنزوي .

(٣) أوْجِرَة : المفرد وجار ، وهو الجحر .

(٤) في الأصل : إنسان . (٥) في الأصل : فأحدقت .

الوالدة مستغربة :

« أ يخرج الإنسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي تعمي العيون وتصم الآذان ؟»

فتنهد الشاب وأحنى رأسه على صدره ، وقال بصوت عميق :

« خرجت مطروداً من الدير .»

فقالت راحيل بدهشة : « مطروداً ؟»

وردّدت مريم هذه الكلمة متأوّهة .

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على إظهاره الحقيقة للمرأتين ، وخاف أن تتحوّل رأفتهما به [1] إلى استياء واستهجان ، ولكنه نظر فرأى في عينيهما أشعة الشَّفَقَة متموّجة مع محبّة الاستطلاع ، فقال بصوت مخنوق :

« نعم خرجت مطروداً من الدير ؛ لأنني لم أستطع أن أحفر قبري بيدي ؛ لأن قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب والرّياء ؛ لأن نفسي أبت أن تتنعّم بأموال الفقراء والمساكين ؛ لأن روحي قد امتنعت عن التّلذُّذ بخيرات الشعب المستَسْلِم إلى الغباوة . خرجت مطروداً لأن جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرّحبة التي بناها سكان الأكواخ ؛ لأن خوفي لم يعد يقبل الخبز المعجون بدموع اليتيم والأرملة ؛ لأن لساني لم يعد يتحرّك بالصلاة التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين والبسطاء . خرجت مطروداً كالأبرص القَذِر ؛ لأنني ردّدت على مسامع القُسس والرُّهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قُسُساً ورُهْباناً .»

وسكت الشاب وظلّت راحيل ومريم ناظرتين إليه، مستَغْرِبَتَيْن كلامَه ، مُحَدِّقَتَيْن بوجهه الجميل الحزين، مُتَلَفِّتَتَيْن بين الآونة والأخرى إلى بعضهما ، كأنهما تتساءلان بالسّكينة عن الأسباب الغريبة التي جاءت به إليهما ، حتى إذا ما نَمَتْ محبّة الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت إليه بانعطاف وسألته قائلة :

« أين أبوك وأمك ، يا أخي ؟ هل هما حيّان ؟»

فأجاب الشاب والغُصَصُ الموجِعَة تُقَطِّع ألفاظه :

« ليس لي أبٌ ، ولا أم ، ولا أخت ، ولا مسقط رأس .»

فتنهّدت راحيل متأثّرة ، وحوّلت مريم وجهها نحو الحائط لتخفي دمعة مُحْرِقَة استقطرتها الشّفقة من أجفانها . فنظر إليهما الشاب نظرة المغلوب إلى مُنْجِده ، وقد انتعشت نفسه برقّة عواطفهما مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور ، عندما يسكب الصّباح قطرات النّدى في قلبها ، ثم رفع رأسه وقال:

« مات أبي وأمي قبل أن أبلغ السابعة من عمري ، فأخذني كاهن القرية التي وُلِدْتُ فيها إلى دير قزحيا ، فسُرّ الرُّهْبان بي وجعلوني راعياً للبقر . ولما بلغت الخامسة عشرة ألبسوني هذا الثوب الأسود الخشِن ، وأوقفوني أمام المذبح قائلين : « أُقسم بالله وقدّيسيه بأنك قد نذرت الفقر والطّاعة والعِفّة .» فردّدتُ كلامهم قبل أن أفهم مُفاد كلامهم ، وقبل أن أدرك معاني الفقر والطّاعة والعَفاف ، وقبل أن أرى السبيل الضّيّقة التي سيّروني عليها . كان اسمي خليلاً فصار الرهبان منذ ذلك الحين يدعونني الأخ مبارك ، ولكنهم لم يعاملوني قَطّ كأخ لهم .

« كانوا يتنعّمون باللحوم والمآكل الشّهية ، ويطعمونني الخبز اليابس والبقول المجفّفة ، ويتلذّذون بالخمور والمشارب الطّيّبة ، ويسقونني الماء ممزوجاً بالدموع ، ويضطجعون [2] على الأسِرَّة النّاعمة ، وينيمونني على فراش حَجَري في غرفة مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير . فكنت أقول في نفسي : « متى أصير راهباً يا تُرى ؛ فأشارك هؤلاء السعداء بغبطتهم ، وأصبح خليقاً بملذاتهم ومسرّاتهم ، فلا تُقَطِّع قلبي رائحةُ الطعام ، ولا تعذّب كبدي ألوانُ الخمور ، ولا ترتعش روحي لصوت الرئيس ؟»

« ولكن باطلاً كنت أتمنى وأحلم ؛ لأنني بقيت أرعى البقر في البَرّيّة ، وأنقل الحجارة الثقيلة على ظهري ، وأحفر التراب بساعدي . بقيت أفعل كل ذلك لبقاء الخبز الدنيء ، والمأوى الضّيّق ؛ لأنني لم

(١) في الأصل : عليه .

(٢) في الأصل : يتضجعون .

أكن أعلم أنه [1] يوجد مكان غير الدير يمكن أن أعيش فيه ؛ لأنهم علّموني الكفر بكل شيء إلّا معيشتهم ، وسمّموا نفسي بنقيع اليأس والاستسلام ، حتى ظننت أن [2] هذا العالم هو بحر أحزان وشقاء ، وأن الدّير هو ميناء الخلاص .»

واستوى خليل جالساً ، وانبسطت ملامحه المنْقَبِضَة ، ونظر كأنه رأى شيئاً جميلاً مُنْتَصِباً أمامه في ذلك الكوخ . أما راحيل ومريم فلبثتا صامِتَتَيْن مُحَدِّقَتَيْن به ، وبعد هنيهة عاد فقال :

« إن السماء التي شاءت فأخذت والديَّ ونفتني يتيماً إلى الدير ، لم تشأ أن أصرف العمر كله كالأعمى السّائر في المعابِر الخَطِرَة ، ولم ترضَ بأن أكون عبداً تَعِساً مُتَصاغِراً إلى نهاية الحياة ، ففتّحت عينيَّ وأذنيَّ ، وأرتني النور مشعشعاً ، وأسمعتني الحقيقة متكلّمة .»

فهزّت راحيل رأسها إذ ذاك وقالت :

« أ يوجد نور غير النور الذي تسكبه الشمس على جميع الناس ؟ وهل بإمكان البشر أن يعرفوا الحقيقة ؟»

فأجاب خليل قائلاً : « النور الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الإنسان ، ويبيّن سرائر النفس للنفس ، ويجعلها فارِحَة بالحياة ، مُتَرَنِّمة باسم الروح. أما الحقيقة فهي كالنجوم لا تبدو إلّا من وراء ظلمة الليل ؛ الحقيقة هي مثل جميع الأشياء الجميلة في هذا العالم لا تظهر مفاعيلها المسْتَحَبّة إلّا لمن شعر بتأثيرات البُطْل [3] القاسية ؛ الحقيقة هي تلك العاطفة الخفية التي تُعَلّمنا أن نفرح بأيامنا ، وتجعلنا نتمنى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس .»

فقالت راحيل : « كُثارٌ هُم الذين يعيشون حسب العاطفة الخفيّة الكائنة في قلوبهم ، وكثار هم الذين يعتقدون بأن هذه العاطفة هي ظِلُّ النّاموس الذي سَنّه الله للإنسان ، ولكنهم لا يفرحون قَطُّ بأيامهم ، بل يظلون تُعساء حتى الموت .»

فأجابها خليل قائلاً : « باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الإنسان تَعِساً في حياته ، وكَذّابة هي العواطف التي تقوده إلى اليأس والحزن والشقاء؛ لأن واجب الإنسان أن يكون سعيداً على الأرض ، وأن يَعْلَم سُبُلَ السعادة ويَكْرِزَ [4] باسمها أينما كان . ومن لا يشاهد ملكوت السموات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية ؛ لأننا لم نجئ هذا العالم كالمنفيّين المرذولين ، بل جئنا كالأطفال الأغبياء ؛ لكي نتعلّم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا .

« هذه هي الحقيقة التي عرفتها عندما قرأت تعاليم يسوع الناصري ، وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وأبانَ لي الدير ومن فيه كَهُوَّة مظلمة ، تنبعث من أعماقها الأشباح المخيفة لتميتني . هذا هو السِّر الخفي الذي أعلَنَتْه البَرِّيّة الجميلة لنفسي عندما كنت أجلس جائعاً باكياً متأوّهاً في ظل الأشجار .

« ففي يوم ، وقد سكِرَتْ نفسي من هذه الخمرة السّماوية ، تشجّعت و وقفت بين الرُّهبان ، إذ كانوا جالسين في حديقة الدّير مثلما تَرْبِض [5] البهائم المتْخومة ، وأخذت أُبَيِّنُ لهم أفكاري وأتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تُبَيِّنُ ضلالهم وكفرهم. قلت لهم : « لماذا نصرف الأيام في هذه الخلوة متمتّعين بخيرات الفقراء والمساكين ، مُسْتَطْيبين الخبز المعجون بعَرَق جبينهم ودموع أجفانهم ، مُتلذّذين بغَلّة الأرض المسلوبة منهم ؟ لماذا نعيش في ظلال التّواني والكسَل ، مبتعدين عن الشعب المحتاج إلى المعرفة ، حارِمينَ البلاد قوى نفوسنا وعَزْم سواعدنا ؟ إن يسوع الناصري قد بعثكم كالخِراف بين الذئاب ، فأي تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف ؟ لماذا تبتعدون عن البشر وقد خلقكم الله بشراً ؟ إذا كنتم أفضل من الناس السّائرين في موكب الحياة عليكم أن تذهبوا إليهم وتعلّموهم ، وإن كانوا أفضل منكم امتزجوا بهم وتعلّموا .

(١) في الأصل : بأنه . (٢) في الأصل : بأن .
(٣) البُطْل : الباطل .
(٤) يكْرِز : يعظ وينادي . (٥) تَرْبِض : تقيم .

« « كيف تنذرون الفقر وتعيشون كالأمراء ، وتنذرون الطاعة وتتمرّدون على الإنجيل ، وتنذرون العفّة وقلوبكم مُفْعَمَة بالشهوات ؟ أنتم تتظاهرون بقتل أجسادكم ، ولكنكم لا تقتلون غير نفوسكم ؛ وتتظاهرون بالترفّع عن العالميات ، وأنتم أكثر الناس طمعاً ؛ وتتظاهرون بالتنسُّك والتقشُّف وأنتم كالبهائم المشغولة عن المعرفة بطيب المرْعَى . تعالوا نعيد أراضي الدير الوسيعة إلى سكان هذه القرى المحتاجين ، ونرجع إلى جيوبهم الأموال التي أخذناها . تعالوا نتفرّق إلى كل ناحية مثلما تتفرّق أسراب الطيور ، فنخدم الشعب الضعيف الذي جعلنا أقوياء ، ونصلح البلاد التي نعيش بخيراتها ، ونعلّم هذه الأمة التّعِسَة أن تبتسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية ؛ لأن المتاعب التي نجدها بين الناس هي أجَلّ وأجمل من الراحة التي نستسلم إليها في هذا المكان . والرأفة التي نلامس بها قلب القريب هي أسمى من الفضيلة المختبئة في قَرانِيّ الدّير ، وكلمة التّعْزِيَة التي نقولها على مسامع الضعيف والمجرم والسّاقطة هي أشرف من الصّلاة الطويلة التي نُرَدِّدها في الهيْكَل .» »

وسكت خليل دقيقة مسترجعاً أنفاسه ، ثم رفع عينيه نحو راحيل ومريم وقال بصوت هادئ :

« كنت أتكلم بهذه الأشياء وما يشابهها أمام الرُّهبان ، وهم سامعون ودلائل الاستغراب بادية على وجوههم ، كأنهم لم يصدقوا أن [١] فتى مثلي يقف بينهم ويتكلم متجاسراً بمثل هذا الكلام ، حتى إذا ما انتهيت اقترب أحدهم وقال صارفاً أسنانه : « أ تتجرأ أيها الضعيف وتتلفّظ أمامنا بمثل هذا الكلام ؟» واقترب آخر وقال ضاحكاً مستهزئاً : « هل تعلمت هذه الحكمة من البقر والخنازير التي رافقتها كل أيام حياتك ؟» وجاء آخر وقال متوعّداً : « سوف ترى ما يحلُّ بك أيها الخبيث الكافر .» ثم تفرّقوا عني إلى كل ناحية مثلما يبتعد الأصحاء عن الأبرص .

(١) في الأصل : بأن .

« وذهب بعضهم وشكوني إلى الرئيس ، فاستدعاني عند غروب الشمس ، وبعد أن وبّخني بقساوة على مسمع من الرُّهبان المبتَهجين أمر بجَلْدي فجُلِدْت بسياط من المَرَس [٢] ، ثم حكَم بسجني شهراً كاملاً ، فاقتادني الرُّهبان مقهقهين [٣] فرِحين إلى غرفة رطبة مظلمة .

« انقضى الشهر وأنا مطروح في ذلك القبر ، لا أرى النور ، ولا أشعر بغير دبيب الحشرات ، ولا ألمس سوى التُّراب ، ولا أعرف نهاية الليل من بدء النهار ، ولا أسمع سوى وطء أقدام أحد الرُّهبان عندما يجيء ويضع بقربي كِسْرَة من الخبز اليابس العَطِن وطاساً من الماء الممزوج بالخَلّ . ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرُّهبان نحول جسدي واصفرار وجهي، توهموا أن ميول نفسي قد ماتت في داخلي ، وأنهم بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي أحياها الله في قلبي .

« مرت الأيام إثر الليالي وأنا أُجهِد النّفْسَ مفكرًا في ساعات انفرادي بما [٤] يجعل أولئك الرهبان يرون النور ويسمعون نَغْمَة الحياة . ولكن باطلاً كنت أفكر وأفكر ؛ لأن الغشاء الكثيف الذي حاكَتْه الأجيال الطويلة على بصائرهم لا تمزّقه الأيام القليلة ؛ والطِّينة التي طَلَت بها الغباوة آذانهم قد تحجّرت ، فلا تزيلها ملامس الأصابع الناعمة .»

وبعد سكينة مملوءة بالتّنهُّدات ، رفعت مريم رأسها والتفتت نحو والدتها كأنها تستأذنها بالكلام ، ثم نظرت بكآبة نحو خليل وسألته قائلة :

« هل عُدْتَ وتكلّمتَ ثانية أمام الرُّهبان فطردوك من الدّيْر في هذه الليلة المخيفة ، التي تُعَلِّم الإنسان أن يكون رؤوفاً ورفيقاً [٥] حتى بأعدائه ؟»

فقال الشاب : « في هذا المساء عندما تعاظَم هولُ العاصفة وابتدأت العناصر تتحارب في الفضاء ، جلست منفرداً عن الرُّهبان المستَدْفئين حول النار ، والمشغولين بسرد الحوادث والحكايات المضحكة ،

(٢) المَرَس : الحبال الدقيقة . (٣) في الأصل : متقهقهين .
(٤) يقصد فيما يجعل . (٥) في الأصل : ورقوقا .

وفتحت الإنجيل متأمِّلاً بتلك الأقوال التي تستميل النفس وتُنْسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر . ولما رآني الرُّهبان بعيداً عنهم اتخذوا انفرادي سبباً للسخرية بي ، فجاء بعضهم و وقفوا بقربي ، وأخذوا يتغامزون ويضحكون ، ويشيرون نحوي مستهزئين ، فلم أحفل بهم ، بل أطبقت الكتاب وبقيت ناظراً من النافذة ؛ فتَمَلْملوا لذاك غيظاً ونظروا إليَّ شَزْراً ؛ لأن سكوتي قد أيبس عواطفهم ، ثم قال أحدهم ساخراً : « ماذا تقرأ أيها المصلح العظيم ؟» فلم أرفع عينيَّ نحو المتكلم ، بل فتحت الإنجيل ، وقرأت منه بصوت عالٍ هذه الآية :

« « وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليَعْتمدوا منه : يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي ، فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ، ولا تبتدئوا تقولون في نفوسكم إن لنا إبراهيم أباً ؛ لأني أقول لكم إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم . والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تعطي ثمراً جيّداً تُقْطَع وتلقى في النار . وسأله الجموع قائلين : فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم : من له ثوبان فَلْيُعْطِ من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا .»

« عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها يوحنا المعمدان ، سكت الرُّهبان دقيقة كأن يداً خفيَّة قد قبضت على أرواحهم ، ولكنهم عادوا وقهقهوا ضاحكين ، ثم قال أحدهم : « قد قرأنا هذا الكلام مرات عديدة ، ولسنا نحتاج لرُعاة البقر أن يردده على مسامعنا .» فقلت : « لو كنتم تقرأون هذه الآيات وتفهمونها ، لما كان سكان هذه القرى المغمورة بالثلوج يتأفَّفون برداً ويتضوَّرون جوعاً ، وأنتم ههنا تتمتَّعون بخيراتهم ، وتشربون عصير كرومهم ، وتأكلون لحوم مواشيهم .»

« لم تخرج هذه الألفاظ من بين شفتيَّ حتى صفعني أحد الرهبان على وجهي ، كأني لم أتكلم بغير الحماقة ، ثم رفسني آخر برِجْله ، وآخر انتزع الكتاب من يدي ، وآخر نادى الرئيس فجاء مسرعاً .

وإذ أخبروه بما جرى تعالت قامته وزوّى ما بين عينيه، وارتجف غضباً ، وصرخ بأعلى صوته : « اقبضوا على هذا الشرّير المتمرِّد ، وجُرّوه بعيداً عن الدير ، ودعوا العناصر الغضوب [1] تعلمه الطاعة . أخرجوه إلى الظُّلمة الباردة لتفعل به الطبيعة مشيئة الله ، ثم اغسلوا أكفَّكم خوفاً من سموم الكفر المتعلقة بأثوابه ، وإن عاد متضرِّعاً متظاهراً بالتَّوبة لا تفتحوا له الأبواب ؛ لأن الأفعى إذا سُجنت في القفص لا تنقلب حمامة ، والعُلّيْقَة إذا غُرست في الكَرْم لا تثمر تيناً .»

« حينئذ قبض الرُّهبان عليَّ وجَرّوني بعنف إلى خارج الدير وعادوا ضاحكين ، وقبل أن يوصدوا الأبواب سمعت أحدهم يقول ساخراً : « كنت بالأمس مَلِكاً وكانت رعيتك البقر والخنازير ، وقد خلعناك اليوم أيها المصلح ؛ لأنك أسأت السياسة ، فاذهب الآن وكن ملكاً على الذئاب الجائعة والغربان المتَطايرة ، وعَلِّمها كيف يجب أن تعيش في كهوفها وأوْجِرَتها .»»

وتنهد خليل تنهيدة عميقة ، ثم حوَّل وجهه ونظر إلى النار المتأججة في الموقد . وبصوت جارح بحلاوته قال :

« هكذا طُردت من الدَّير ، وهكذا سلَّمني الرُّهبان إلى يد الموت ، فسِرْت والضَّباب يحجب الطَّريق عن بصري ، والرياح الشديدة تمزِّق أثوابي ، والثلوج المتراكمة تتمسك بركبتيَّ [2] ، حتى وهنت قواي فسقطت مستغيثاً صارخاً صراخ يائس شعر بأنه لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف والأودية المظلمة . ولكن من وراء الثلوج والأرياح ، من وراء الظُّلمة والغيوم ، من وراء الأثير والكواكب ، ومن وراء كل شيء قوة هي كل معرفة ، وكل رحمة ، قد سَمِعَتْ صراخي وندائي ، فلم تشأ أن أموت قبل أن أتعلَّم ما بقي من سرائر الحياة ، فبعثتكما إليَّ لكي تسترجعاني من أعماق الهاوية والعَدَم .»

وسكت الشاب والمرأتان تنظران إليه بانعطاف

---

(١) في الأصل : الغضوبة . (٢) في الأصل : بركابي .

وإعجاب وشفقة ، كأن نفسيهما قد فهمتا خفايا نفسه واشتركتا معها بالشّعور والمعرفة . وبعد هنيهة مدّت راحيل يدها قسر إرادتها ، ولمست يده بلُطف ، وقالت والدموع تتلمّع في عينيها :

« إن من تختاره السماء نصيراً للحق لا تُفْنيه المظالم ، ولا تميته الثلوج والعواصف . »

وهمست مريم قائلة : « إن العواصف والثلوج تفني الزهور ، ولكنها لا تميت بذورها . »

فقال خليل وقد أنارت التّعزية وجهه المصفرّ ، مثلما تنير أشعة الفجر خطوط الأفق :

« إن كنتما لا تحسبانني [١] متمرداً وكافراً كما يحسبني الرُّهبان يكون الاضطهاد الذي لقيته في الدير رمزاً للشدّة التي تعانيها الأمة قبل بلوغها المعرفة ، وتكون هذه الليلة التي كادت تميتني شبيهة بالثّورات التي تتقدّم الحرية والمساواة ؛ لأن من قلب المرأة الحسّاس تنبثق سعادة البشر ، ومن عواطف نفسها الشريفة تتولّد عواطف نفوسهم . »

قال هذا واتكأ على الوسادة ، فلم تشأ المرأتان [٢] متابعة الحديث لأنهما عرفتا من نظراته أن [٣] النعاس المتولّد من الراحة والاستدفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه . ولم تمر بضع دقائق حتى أغمض خليل أجفانه ونام كالطفل المُستأمِن على ذراعي أمه ، فقامت راحيل بهدوء وتبعتها مريم وجلستا على فراشهما تنظران إليه ، كأن في وجهه الذابل جاذباً يستميل روحيهما ويحيط بقلبيهما . ثم همست الوالدة كأنها تتكلّم مع نفسها وقالت :

« في عينيه المطْبَقَتَيْن قوّة غريبة تتكلّم بالسّكينة ، وتُنبّه أميال النفس . »

وقالت الابنة : « يداه يا أمّاهُ مثل يدي صورة يسوع الموجودة في الكنيسة . »

فهمست الوالدة : « على وجهه الكئيب ظاهِرَةٌ رِقّةُ المرأة وقوّة الرجل . »

وحملت أجنحة الكَرى روحي المرأتين [٤] إلى عالم الأحلام ، وخمدت النار في الموقد وتحوّلت إلى رماد ، ثم جفّ زيت السِّراج فشَحّ نوره ببطء ثم انطفأ . وظلت العاصفة الغضوب تضجّ خارجاً والجو القاتم ينثر رُقَع الثلوج ، والأرياح العنيفة تقذفها يميناً وشمالاً .

٤

مضى أسبوعان على تلك الليلة والفضاء المتلبّد بالغيوم يسكن حيناً ثم يثور متهيّجاً ، غامراً الأودية بالضّباب ، مُكَفّناً الطّلول بالثلوج . وقد هَمّ خليل ثلاث مرات أن يتابع مسيره نحو الساحل ، فكانت راحيل تصده بلطف وانعطاف قائلة :

« لا تُسلم حياتك ثانية إلى العناصر العمياء ، بل ابقَ ههنا يا أخي ؛ فالخبز الذي يشبع اثنين يكفي ثلاثة ، والنار في هذا الموقد تظل متّقدة بعد ذهابك مثلما كانت قبله . نحن فقراء يا أخي ، ولكنّا نحيا أمام وجه الشمس مثل جميع الناس ؛ لأن الله يعطينا خبزنا كَفاف [٥] يومنا . »

أما مريم فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه بتنهُّداتها الهادئة لكي يمتنع عن الذهاب ؛ لأنها منذ دخوله ، بين حي وميّت ، ذلك البيت الحقير ، شعرت بوجود قوة علوية في نفسه تبعث الحياة والشّعاع إلى قلبها ، وتنبّه عواطف جديدة مستحبّة في قدس من أقداس روحها ؛ لأنها شعرت لأول مرّة في حياتها بتلك الحاسة الغريبة التي تجعل قلب الصّبية النقي مثل وردة بيضاء ، تشرب قطرات النّدى وتسكب دقائق العِطْر .

لا يوجد في داخل الإنسان عاطفة أنقى وأعذب من تلك العاطفة الخفيّة التي تستفيق على حين غفلة في قلب الصبية وتملأ خلايا صدرها بالأنغام السّحرية ، وتجعل أيامها شبيهة بأحلام الشعراء ولياليها مثل الأنبياء . ولا يوجد بين أسرار الطبيعة سر

(١) في الأصل : لا تحسباني . (٢) في الأصل : الإمرأتان .
(٣) في الأصل : بأن .

(٤) في الأصل : الإمرأتين .
(٥) مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان .

أقوى وأجمل من ذلك الميل الذي يحوّل سكينة نفس العذراء إلى حَراك مستمر ، يُميت بعزمه ذكرى الأيام الغابرة ، ويحيي بحلاوته الآمال بالأيام الآتية .

والصَّبية اللبنانية تمتاز عن صبايا الأمم بقوّة عواطفها ورقّة إحساسها ؛ لأن التربية البسيطة التي تَحْرِم عاقِلَتَها [١] من النمو ، وتوقف مداركها عن الارتقاء – تحوّل نفسها إلى استفسار ميول نفسها ، وتشغل قلبها باستطلاع خفايا قلبها . الصبية اللبنانية مثل ينبوع يخرج من قلب الأرض بين المنخفضات ، فلا يجد ممرًّا ليسير به نهراً نحو البحر ، فينقلب بحيرة هادئة تنعكس على وجهها أشعة القمر والنجوم .

وشعر خليل بتموُّجات روح مريم حول روحه ، وعرف أن [٢] الشعلة المقدّسة التي أحاطت بقلبه قد لامست قلبها . ففرح لأول وَهْلة فَرَح طفل ضائع وجد أمه ، ولكنه عاد فلام نفسه على تسرُّعها وانشغافها ، ظَنًّا منه بأن هذا التّفاهم الروحي سيَضمحل كالضَّباب عندما تفصله الأيام عن تلك القرية ، فكان يناجي نفسه قائلاً :

« ما هذه الأسرار الخفية التي تتلاعب بنا ونحن غافلون ؟ وما هذه النواميس التي تُسَيِّرنا تارة على سُبُل وَعِرَة فنسير مُنْقادين ، وتوقفنا طوراً أمام وجه الشّمس فنقف فَرِحين ، وتُبلغنا مرة قمة الجبل فنبتسم مُتَهَلِّلين ، وتهبط بنا أخرى إلى أعماق الوادي فنصرخ متوجِّعين ؟ ما هذه الحياة التي تعانقنا يوماً كالحبيب ويوماً تصفعنا [٣] كالعدو ؟ أ لم أكن بالأمس مكروهاً مضطَهَداً بين رهبان الدير ؟ أ وَ لم أقبل العذاب والسخرية من أجل هذه الحقيقة التي أيقظتها السماء في صدري ؟ أ وَ لم أقل للرُّهبان إن [٤] السعادة هي مشيئة الله في الإنسان ؟

« إذاً ما هذا الخوف ، ولماذا أغمض عينيّ وأحوّل وجهي عن النور المنبعث من عيني هذه الصبية ؟ أنا مطرود وهي فقيرة ، ولكن أ بالخبز وحده يحيا الإنسان ؟ أ وَ ليست الحياة ديناً و وفاء ؟ أ و لسنا بين العَوَز واليُسْر كالأشجار بين الشتاء والصيف ؟ ولكن ماذا تقول راحيل إذا علمت أن [٥] روح الفتى المطرود من الدّير وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السّكينة واقتربتا من دائرة النور الأعلى ؟ وماذا تفعل يا تُرى إذا ما دَرَت بأن الشاب الذي خلّصته من مخالب الموت يريد أن يكون رفيقاً لابنتها ؟ وماذا يقول سُكّان هذه القرية البسطاء إذا ما علموا أن [٦] فتى رُبِّيَ في الدير وخرج منه مطروداً ، جاء قريتهم لكي يعيش بقرب صبية جميلة ؟ أ فلا يغلقون آذانهم إذا ما قلت لهم إن [٧] الذي يغادر الدّير ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلمة القفص إلى النور والحرية ؟ وماذا يقول الشيخ عباس العائش بين هؤلاء الفلاحين المساكين كالأمير بين العبيد ، إذا ما سمع حكايتي ؟ وماذا يفعل كاهن القرية إذا ما ردّدوا على مسامعه تلك الأقوال التي سبّبت طردي من الدير ؟»

كان خليل يناجي نفسه وهو جالس بقرب الموقد يتأمّل بألسنة النار الشبيهة بعواطفه . أما مريم فكانت تختلس النّظرات إليه ، وتقرأ أحلامه في ملامح وجهه، وتسمع صدى أفكاره خارجاً من صدره ، وتشعر بخيالات هواجسه متمايلة حول قلبه .

ففي عَشيّة يوم ، وقد وقف خليل بقرب الكُوّة المطلّة نحو الوادي ، حيث الأشجار والصخور الملتَحِفَة بالثّلوج التحاف الأموات بالأكفان ، جاءت مريم و وقفت بجانبه ونظرت من الكُوّة إلى الفضاء ، فالتفت نحوها ، وإذ التقت عيناه بعينيها تنهّد تنهيدة مُحْرِقَة ، ثم حوّل وجهه وأغمض أجفانه ، كأن نفسه قد تركته وسَبَحت ساعية في أعماق اللانهاية ، باحثة عن كلمة تقولها .

وبعد هنيهة تشجّعت مريم وسألته قائلة : « إلى أي مكان تذهب عندما تذوب هذه الثلوج وتنفتح الطُّرقات ؟»

فأجابها وقد فتح عينيه الكبيرتين ، وحدق إلى [٨]

---

(١) عاقِلَتها : عقلها وإدراكها . (٢) في الأصل : بأن .
(٣) في الأصل : تضعفنا . (٤) في الأصل : بأن .
(٥) في الأصل : بأن . (٦) في الأصل : بأن .
(٧) في الأصل : بأن . (٨) في الأصل : وأحدق بالأفق .

الأفق البعيد : « سوف أتبع الطريق إلى حيث لا أعلم .»

فارتعشت روح مريم ثم قالت متنهّدة : « لماذا لا تسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منّا ؟ أ ليست الحياة ههنا أفضل من الغربة البعيدة ؟»

فأجابها وقد اضربت أحشاؤه لرقّة كلماتها ونغْمة صوتها : « إن سكان هذه القرية لا يقبلون المطرود من الدير جاراً لهم ، ولا يسمحون له أن يتنفس الهواء الذي يحييهم ؛ لأنهم يحسبون عدو الرهبان كافراً بالله وقديسيه .»

فتأوّهت مريم ولبثت ساكتة ؛ لأن الحقيقة الجارحة قد أخرستها . حينئذ أسند خليل رأسه بيده وقال :

« إن سكان هذه القرى يا مريم قد تعلّموا من الرُّهبان والكُهّان بغض كل من يفكر [١] لذاته ، فصاروا يقلّدونهم ويبتعدون مثلهم عن جميع الذين يريدون أن يصرفوا حياتهم فاحصين لا تابعين . فإذا بقيت في هذه القرية ، وقلت لسكانها تعالوا ، يا إخوتي ، نعبد ونصلّي حسب مشيئة نفوسنا ، لا مثلما يريد الرهبان والقُسُس ؛ لأن الله لا يريد أن يكون معبوداً من الجاهل الذي يُقلِّد غيره ، يقولون هذا ملحِد يعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كُهّانه . وإن قلت لهم أصغوا يا إخوتي واسمعوا صوت قلوبكم ، واعملوا إرادة الروح الكائنة في أعماقكم ، يقولون هذا شرير يريدنا أن نكفر بالوسائط التي أقامها الله بين السماء والأرض .»

ونظر خليلٌ إذ ذاك إلى عيني مريم ، وبصوت يحاكي رنين الأوتار الفضية قال :

« ولكن في هذه القرية يا مريم قوّة سحرية تمتلكني وتتشبّث بنفسي ؛ قوة علويّة قد أنستني اضطهاد الرهبان وحبّبت إليّ قساوتهم . في هذه القرية لقيت الموت وجهاً لوجه ، وفيها عانقت روحي روح الله . في هذه القرية زهرة نابتة بين الأشواك ، يستميل جمالها نفسي ، ويملأ عطرها كبدي ؛ فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشّراً بالمبادئ التي أبعدتني عن الدير ، أم أبقى بجانبها ، وأحفر لأفكاري وأحلامي قبراً بين الأشواك المحيطة بها ؟ وماذا أفعل يا مريم ؟»

سمعت مريم هذه الكلمات فاهتزّت قامتها ، مثلما ترتعش الزّنبقة أمام نسيم السَّحَر ، وفاضت أشعة قلبها من مُقْلَتَيْها ، فقالت والحياء يغالب لسانها :

« كلانا بين يدي قوة خفيّة عادلة رحوم [٢] ، فلندعها تفعل ما تشاء بنا .»

منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف مريم ، وصارت نفساهما شعلة واحدة متّقدة ، ينبعث منها النور ، ويتضوّع [٣] حولها البخور .

٥

منذ ابتداء الدهر إلى أيامنا هذه ، والفئة المتمَسّكة بالشرف الموروث تتحالف وتتّفق مع الكهان ورؤساء الأديان على الشّعب . هي عِلّة مُزْمِنَة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية ، ولن تزول إلّا بزوال الغباوة من هذا العالم ، عندما يصير عقل كل رجل مَلِكاً ويصبح قلب كل امرأة كاهناً .

اين الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء ، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين . الأمير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين ، والكاهن يمد يده إلى جيبه . الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً ، والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً ، وبين عبوسة النّمر وابتسامة الذّئب يَفْنى القطيع . الحاكم يَدّعي تمثيل الشريعة، والكاهن يَدّعي تمثيل الدين ، وبين الاثنين تَفْنى الأجساد ، وتضمَحِلُّ الأرواح .

وفي لبنان ؛ ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير إلى نور المعرفة ، قد اتّحد الشريف والكاهن

(١) في الأصل : يفتكر .

(٢) في الأصل : رحومة . (٣) في الأصل : تتضوع .

على الفقير الضعيف الذي يحرث الأرض ويستغلها؛ كيما يحمي جسده من سيف الأوّل ، ولعنة الثاني .

ابن الشّرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره ، ويصرخ باللبنانيين قائلاً :

« قد أقامني السلطان وليًّا على أجسادكم .»

والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفاً :

« قد أقامني الله وصيا على أرواحكم .»

أما اللبنانيون فيظلون صامتين ؛ لأن القلوب المغلّفة[1] بالتُّراب لا تنكسر ، لأن الأموات لا يبكون.

فالشيخ عباس الذي كان في تلك القرية وليًّا وحاكماً وأميراً ، كان محبًّا لرهبان الدير ، محافظاً على تعاليمهم وتقاليدهم ؛ لأنهم كانوا يشاركونه بقتل المعرفة وإحياء الطاعة في نفوس حارثي حقوله وكرومه .

ففي ذلك المساء – بينما كان خليل ومريم يقتربان من عرش الحب ، و راحيل تنظر إليهما بانعطاف ، مستطلعة خفايا نفسيهما – ذهب الخوري إلياس كاهن القرية وأخبر الشيخ عباس أن[2] الرهبان الأتقياء قد طردوا من الدير فتى متمرداً شرّيراً ، وأن هذا الملحد الكافر قد جاء القرية منذ أسبوعين ، وهو الآن ساكن في بيت راحيل أرملة سمعان الرامي .

ولم يكتف الخوري إلياس بإبلاغ الشيخ هذا الخبر ، بل زاد قائلاً :

« إن الشيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكاً في هذه القرية ، والتّينة التي يقطعها رب الحقل ويلقيها في النار لا تعطي ثماراً جيّدة وهي في الموقد . فإن كنا نريد أن تبقى هذه القرية سالمة من جراثيم العلل الخبيثة ، علينا أن نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا ، مثلما طرده الرُّهبان من الدّير .»

فسأله الشيخ عباس قائلاً :

« وكيف عرَفت أن[3] هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلّة الخبيثة ؟ أ ليس أفضل أن نُبقيه عندنا ، ونجعله ناطوراً للكروم أو راعياً للبقر ؟ نحن بحاجة ماسّة إلى العمال ، فإذا جلَبت لنا الطريق فتى قويّ السّاعِدَيْن نسترضيه ولا نتركه .»

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بملامس الأفعى ، ثم قال مُمَشّطاً لحيته الكثيفة بأصابعه :

« لو كان هذا الشاب صالحاً للعمل لما طرده الرُّهبان ؛ لأن أراضي الدير وسيعة وقُطْعانه لا تُحصى، وقد أخبرني مُكاري[4] الدير الذي بات عندي ليلة أمس ، أن[5] هذا الشاب كان يردّد على مسامع الرُّهبان آيات الكفر ، مقرونة بألفاظ ثورية تدل على طيشه وخباثته ، فقد تجاسَر مرات عديدة وخطب فيهم قائلاً : « أرجعوا حقول الدير وكرومه وأمواله إلى سكان هذه القرى الفقراء ، وتفرّقوا إلى كل ناحية وذاك خير من الصلاة والعبادة .» وأخبرني المكاري أيضاً بأن قساوة التّوبيخ ، وأوجاع الجَلْد بالسّياط ، وظلمة السجن لم تُعد لهذا الكافر صوابه ، بل كانت تُغذّي الشيطان القابض على نفسه ، مثلما تُكثر أوساخُ المزابل عددَ الحشرات .»

فانتصب الشيخ عباس على قدميه[6] ، ونظير نَمِر يتراجع قليلاً إلى الوراء قُبَيْل الوثوب ، بقي ساكتاً هنَيْهة يَصِرُّ أسنانه وينتفض غيظاً . ثم مشى نحو باب القاعة ، ونادى خُدّامه بصوت عالٍ ، فجاء ثلاثة منهم و وقفوا أمامه مستطلعين أمره ، فخاطبهم قائلاً :

« في بيت راحيل الأرملة شاب مجرم يرتدي أثواب راهب ، فاذهبوا الآن وقودوه إليَّ مكتوفاً ، وإن قاومتكم تلك المرأة[7] اقبضوا عليها وجُرّوها على الثلج بجدائل شعرها ؛ لأن من يساعد الشرير يكون شريراً .»

فأحنى[8] الخُدّام رؤوسهم ، وخرجوا مسرعين ليتمموا مشيئة سيدهم ، وبقي الشيخ عباس والكاهن يتحدثان عما يجب أن يفعلاه بالشاب المطرود و راحيل الأرملة .

(١) في الأصل : المغلغلة . (٢) في الأصل : بأن .
(٣) في الأصل : بأن .

(٤) في الأصل : مكري الدواب . (٥) في الأصل : بأن .
(٦) في الأصل : أقدامه . (٧) في الأصل : الإمرأة .
(٨) في الأصل : فحنى .

٦

توارى النهار ، وقدم الليل ناشراً خيالاته بين تلك الأكواخ المكتنَفَة بالثلوج ، وظهرت النجوم في ذلك الفضاء المظلم البارد ظهور الأمل بالخلود من وراء أوجاع النَّزْع والموت ؛ فأوصد الفلاحون الأبواب والنوافذ وأشعلوا السُّرُج [١] ، وجلسوا يصطلون بقرب المواقد ، غير حافلين بأشباح الليل السائرة حول بيوتهم .

في تلك الساعة ، بينما كانت راحيل وابنتها مريم وخليل جالِسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء ، طُرِق الباب ودخل عليهم خدام الشيخ عباس ، فالتفتت راحيل مذعورة ، وشهقت مريم مُرْتاعَة ، أما خليل فلبث هادئاً ، كأن نفسه الكبيرة قد تنبأت ، وعلمت بمجيء هؤلاء الرجال قبيل مجيئهم .

فاقترب أحد الخدّام ، وألقى يده بعنف على كتف خليل ، وقال بصوت أجش : « أ لست أنت الشاب المطرود من الدير ؟»

فأجابه خليل ببطء : « أنا هو ، فماذا تريدون ؟»

فقال الرجل : « نريد أن نسير بك مكتوفاً إلى منزل الشيخ عباس ، وإن أبديت ممانَعة نجُرُّك على الثلج كالخروف المذبوح .»

فانتصبت راحيل وقد اصفرَّ وجهها ، وتجعدت جبهتها ، وقالت بصوت مرتجف :

« أي ذنب أتاه أمام الشيخ عباس ؟ ولماذا تريدون جرَّه مكتوفاً ؟»

وقالت مريم ونَغْمة الرجاء والاستعطاف تُمازج صوتها :

« هو فرد وأنتم ثلاثة ، فمن الجَبانة أن تتحالفوا على إذلاله وتعذيبه .»

فصرخ الخادم وقد حمي غضبُه :

« أ يوجد في هذه القرية امرأة تعارض مشيئة الشيخ عباس ؟»

قال هذا وانتشل من وسطه حبلاً متيناً ، وهمَّ ليوثق به كتفي خليل ، فوقف الشاب ولم تتغير ملامحه ، بل ظلَّ رأسه مرفوعاً كالبرج أمام الزوبعة ، وسالت على شفتيه ابتسامة مُحزِنَة ، ثم قال :

« أنا أشْفِق عليكم أيها الرجال ؛ لأنكم آلة قوية عمياء في يد مُبْصر ضعيف ، يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم . أنتم عبيد الغَباوة ، والغباوة هي أشد اسوداداً من بَشَرَة الزنوج ، وأكثر استسلاماً للحَيْف [٢] والقساوة . كنت بالأمس مثلكم أيها الرجال ، وغداً تصيرون مثلي ، أما الآن فبيننا هُوَّة عميقة مظلمة ، تمتصُّ ندائي ، وتحجب حقيقتي عنكم ؛ فلا تسمعون ولا تبصرون . ها أنذا فشدوا ساعديَّ ، وافعلوا بي ما شئتم .»

سمع الرجال هذا الكلام ، فجمدت عيونهم ، واقشعرَّت أبدانهم ، وبُهتوا بالشاب هنيهة ، كأن عذوبة صوته قد انتزعت الحركة من أجسادهم ، وأيقظت الميول العلوية الهاجعة في أعماق قلوبهم ، ولكنهم عادوا فانتبهوا ، كأن صدى صوت الشيخ عباس قد تململ في مسامعهم ، وذكَّرهم بالمهمَّة التي بعثهم من أجلها ، فتقدَّموا وأوثقوا ساعدي الشاب ، وخرجوا به ساكتين ، شاعرين بشيء من الألم بين تلافيف ضمائرهم ، فاتَّبعتهم راحيل ومريم . ونظير بنات أورَشَليم عندما اتَّبعن يسوع إلى الجُلْجُلة [٣] سارتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عباس .

٧

إن الأخبار ، كبيرة كانت أم تافهة ، تنتقل بسرعة الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة ؛ لأن بعدهم عن مشاغل الاجتماع المتتابِعَة يجعلهم

---

(١) جمع سراج .

(٢) الحَيْف : الظلم والجور . (٣) تل الجلجثة أو الجلجلة ، هو الموضع الذي صلب فيه السيد المسيح في أورشليم .

ينصرفون [١] بكُلّيّتهم إلى استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود . وفي أيام الشتاء ، عندما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لُحُف [٢] الثلوج ، وتنزوي الحياة خائفة مستدفئة حول المواقد ، يصير القرويون أشد رغبة وأكثر ميلاً إلى استطلاع الأخبار ؛ لكي يملأوا بتأثيراتها أيامهم الفارغة ، ويصرفوا باستفسارها لياليهم الباردة .

وهكذا لم يقبض خُدّام الشيخ عباس على خليل في تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعدوى بين سكان تلك القرية ، وأثارت محبة الاستفهام نفوسهم ، فتركوا أكواخهم وتراكضوا مسرعين من كل ناحية كالجنود المتفرّقين . فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ ، حتى اجتمع في تلك الدار الوسيعة الرجال والنساء والصبيان ، وكلهم يمدون أعناقهم بتشوُّق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدّير ، ومن راحيل الأرملة وابنتها مريم ، اللتين شاركتا الأرواح الشريرة في بَثّ السموم والعِلَل الجَهَنّمية في فضاء قريتهم .

جلس الشيخ عباس على مقعد عالٍ ، وتربّع بجانبه الخوري إلياس ، و وقف الفلاحون والخدّام مُتَرَقّبين مُحَدِّقين بالفتى المكتوف ، الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطَّوْد [٣] بين المنخفضات . أما راحيل ومريم فكانتا واقفتين خلفه والخوف يراود قلبيهما ، ونظرات القوم القاسية تُعَذّب نفسيهما ، ولكن ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأت الحق فاتّبعته ؟ وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صبيّة سمعت نداء الحب فاستيقظت ؟

ونظر الشيخ عباس إذ ذاك نحو الشاب ، وبصوت يشابه ضجيج الأمواج سأله قائلاً : « ما اسمك أيها الرجل ؟»

فأجابه : « اسمي خليل .»

فقال الشيخ : « من هم أهلك وذَووك ، وأين مسقط رأسك ؟»

فالتفت خليل نحو الفلاحين الناظرين إليه بكُرْه واشمئزاز ، وقال : « الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي ، وهذه البلاد الوسيعة هي مسقط رأسي .»

فابتسم الشيخ عباس مستهزئًا ثم قال : « إن الذين تنتسب إليهم يطلبون مُعاقَبتك ، والبلاد التي تَدّعيها وطنك [٤] تأبى أن تكون من سكانها .»

فقال خليل وقد اضطربت أحشاؤه : « إن الشعوب الجاهلة تقبض على أشرف أبنائها وتُسَلّمهم إلى قساوة العُتاة والظالمين ، والبلاد المغمورة بالذل والهوان تضطهد محبّيها ومخلّصيها . ولكن أ يترك الابن الصالح والدته إذا كانت مريضة ، وينكر الأخ الرؤوف أخاه إذا كان تعساً ؟

« إن هؤلاء المساكين الذين أسلموني إليك مكتوفًا اليوم هم الذين أسْلَموك رقابهم بالأمس ، والذين أوقفوني مُهانًا أمامك هم الذين يزرعون حَبّات قلوبهم في حقولك ، ويُهْرِقون دماء أجسادهم على قدميك . وهذه الأرض التي تأبى أن أكون من سكانها هي الأرض التي لا تَفْغَر [٥] فاها وتبتلع الطغاة والطامعين .»

فقهقه الشيخ عباس ضاحكًا ، كأنه يريد أن يغرق بضحكه القبيح روح الشاب ويوقفها عن المسير إلى أرواح السامعين البسطاء ، ثم قال :

« أ و لم تكن راعياً لثيران الدير أيها الشاب الوقح ، فلماذا تركت رعيتك وخرجت مطروداً ؟ هل ظننت أن الشعب يكون أكثر رأفة بالمجاذيب المُلحِدين من الرُّهبان الأتقياء ؟»

فأجابه خليل : « كنت راعيًا ولم أكن جزّارًا . كنت أقود العجول إلى المروج الخضراء والمراعي الخصبة ، ولم أسر بها قط إلى الطلول الجرداء . كنت أوردها الينابيع العَذْبة ، وأبعدها عن المستنقعات الفاسدة . كنت أعيدها في المساء إلى الحظيرة ، ولم أتركها في الوادي فريسة للذئاب

(١) في الأصل : أن ينصرفوا . (٢) جمع لحاف .
(٣) الطَّوْد : الجبل الشامخ .
(٤) في الأصل : وطنا . (٥) تَفْغَر : تفتح .

والضواري الخاطفة .

« هكذا كنتُ أفعل بالبهائم ، ولو فعلتَ أنت مثلي بهذا القطيع المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت تسكن هذا القصر الرّفيع ، وتتركه يَبيدُ جوعاً في الأكواخ المظلمة . ولو كنت ترحم أبناء الله المخلصين مثلما كنت أرحم عجول الدير لما كنت جالساً الآن على هذا المقعد الحريري ، وهم واقفون أمامك وقوف القضبان العارية أمام ريح الشمال .»

فتحرّك الشيخ عباس منزعجاً ، وتلمّعت على جبهته قطرة عَرَق باردة ، وتبدّل ضحكه بالغضب ، ولكنه عاد فامتلك نفسه ؛ كيلا يُظْهر الاهتمام والاكتراث أمام رجاله وتابعيه ، ثم قال مشيراً بيده :

« لم نأت بك مكتوفاً أيها الكافر لنسمع هَذيانك ، بل أحضرناك لكي نحاكمك كمجرم شرير ، فاعلم إذاً أنك [١] واقف الآن أمام سيّد هذه القرية وممثّل إرادة الأمير أمين الشهابي أيّده الله [٢] ، وأمام الخوري إلياس ممثّل الكنيسة المقدّسة التي كفرت بها ؛ فدافع إذاً عن نفسك مما اتُّهِمْتَ به ، أو فاركع مسترحماً نادماً أمامنا وأمام هذا الجمع الساخر بك ، فنغفر لك ونجعلك راعياً للبقر مثلما كنت في الدير .»

فأجاب الشاب بهدوء : « إن المجرم لا يحاكمه المجرمون ، والكافر الشرير لا يدافع عن نفسه أمام الخُطاة .»

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدَحِم في تلك القاعة الوسيعة ، وبصوت جهوري يشابه رنين الأجراس الفضية ناداهم قائلاً :

« أيها الإخوة ، إن الرجل الذي أقامه خضوعكم واستسلامكم سيّداً على حقولكم قد أحضرني مكتوفاً ليُحاكمني أمامكم في هذا القصر المبني فوق بقايا آبائكم وجدودكم . والرجل الذي جعله إيمانكم [٣] كاهناً في كنيستكم قد جاءني ليُدينني ، ويساعد على تعذيبي وإذلالي . أما أنتم فقد تراكضتم مسرعين من كل ناحية لكي تنظروني مُتألّماً ، وتسمعوني مستغيثاً مسترحِماً . قد تركتم جوانب المواقد الدّافئة لتشاهدوا ابنكم وأخاكم مكتوفاً مُهاناً . قد أسرعتم لتَروا الفريسة المتوجّعة بين مخالب الكواسر . قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفاً أمام القضاة . أنا هو المجرم ، أنا هو الكافر الذي طُرِد من الدّير فحملته العاصفة إلى قريتكم . أنا هو ذلك الشرير ، فاسمعوا احتجاجي ، ولا تكونوا مشفقين ، بل كونوا عادلين ؛ لأن الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء ، أما العدل فهو كل ما يطلبه الأبرياء .

« قد اخترتكم قضاتي ؛ لأن إرادة الشعب هي مشيئة الله ، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيّداً ، ثم احكموا عليّ بما توحيه ضمائركم . قد قيل لكم إني [٤] رجل كافر شرير ، ولكنكم لم تعرفوا ما هي جريمتي . وقد رأيتموني مكتوفاً كاللّص القاتل ، ولم تسمعوا بعد بذنوبي ؛ لأن حقيقة الجرائم والذّنوب في هذه البلاد تظلُّ مستترة وراء الضّباب ، أما العِقاب فيظهر للناس ظهور أسياف البرق في ظلمة الليل .

« جريمتي أيها الرجال ، هي إدراكي تعاستكم ، وشعوري بثقل قيودكم . وآثامي أيتها النساء ، هي شفقتي عليكنّ وعلى أطفالكنّ ، الذين يمتصون الحياة من صدوركنّ ممزوجة بلهاث الموت .

« أنا واحد منكم أيها الجمع ، وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الأودية التي تستفرغ قواكم ، وماتوا تحت هذا النّير الذي يلوي أعناقكم . أنا أؤمن بالله الذي يسمع نداء نفوسكم المتوجّعة ، ويرى صدوركم المقروعة ، وأؤمن بالكتاب الذي يجعلني ويجعلكم إخوة متساوين أمام وجه الشمس ، وأؤمن بالتعاليم التي تحررني وتحرركم من عبودية البشر ، وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الأرض ، موطئ أقدام الله .

« كنت في الدير راعياً للبقر ، لكن انفرادي مع

---

(١) في الأصل : بأنك . (٢) الأمير أمين شهاب هو ابن الأمير بشير الكبير وقد حكم الجبل بعد موت أبيه (جبران خليل جبران) . (٣) في الأصل : أيمانكم .

(٤) في الأصل : بأني .

البهائم الخرساء في البَرِّيَّة السّاكنة لم يعمني عن المأساة الأليمة التي تمثلونها كرهاً في الحقول ، ولم يصمّ أذنيّ عن صراخ اليأس المتصاعد من قَرانِيّ الأكواخ . قد نظرت فرأيتني في الدَّير ، ورأيتكم في الحقول كقطيع من النِّعاج سائر وراء ذئب خاطف إلى وكره ، فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثاً ، فهجم الذئب ونهشني بأنيابه المحدَّدة ، ثم احتال عليّ وأبعدني كيلا يثير صراخي روحَ القطيع فيتمرَّد ويتفرَّق مذعوراً إلى كل ناحية ، ويتركه منفرداً جائعاً في ظلام الليل .

« قد احتملت السِّجن والجوع والعطش من أجل الحقيقة الجارحة التي رأيتها مكتوبة بالدِّماء على وجوهكم . وقاسيت العذاب والجَلْد والسُّخرية لأنني جعلت لسكينة تنهيداتكم صوتاً صارخاً متموِّجاً في خلايا الدَّير . ولكنني لم أخف قط ، ولم يضعف قلبي ؛ لأن صراخكم الأليم كان يتبع نفسي ويجدِّد قواي ، ويحبِّب إليَّ الاضطهاد والاحتقار والموت .

« أنتم تسألون نفوسكم الآن قائلين متى[1] صرخنا مُتَظَلِّمين ، وأي فرد مِنا يتجاسر أن يفتح شفتيه ؟ وأنا أقول لكم إن نفوسكم تصرخ مُتَظَلِّمة في كل يوم ، وقلوبكم تستغيث متوَجِّعة في كل ليلة ، ولكنكم لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم ؛ لأن المُنازِع لا يسمع حَشْرَجَة صدره ، أما الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون . والطائر المذبوح يرقص مُتَمَلْمِلاً قَسْرَ إرادته ولا يعلم ، أما الناظرون فيعلمون .

« في أي ساعة من النهار لا تتأوَّه أرواحكم متوجِّعة ؟ أ في الصباح عندما تنهركم[2] محبَّة البقاء ، وتُمزِّق نِقاب الكَرَى عن أجفانكم ، وتقودكم كالعبيد إلى الحقول ؟ أم في الظهيرة عندما تتمنّون الجلوس في ظلّ الأشجار لكي تتَّقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون ؟ أم في المساء عندما تعودون جائعين إلى أكواخكم ، ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكِر ؟ أم في الليل عندما تطرحكم المتاعب على الأسِرَّة الحجرية فتنامون قَلِقين ، ولا يُكَحِّل[3] النُّعاس أجفانكم إلّا وتهبّون متوهِّمين صوت الشيخ يرن في آذانكم ؟ وفي أي فصل من السَّنة لا تندب قلوبكم متحَسِّرة ؟ أ في الربيع عندما ترتدي الطَّبيعة حُلَّة جديدة فتخرجون لمشاهدتها بأطمار[4] بالية مُمزَّقة ؟ أم في الصيف عندما تحصدون الزَّرع ، وتجمعون الأغمار على البيادر ، وتملأون أهراء سيدكم الظلوم بالغَلَّة ، ولا تحصلون لِقاء أتعابكم على غير التِّبن والزُّوان ؟[5] أم في الخريف عندما تجنون الأثمار ، وتعصرون العِنَب ، ولا يكون نصيبكم منها سوى الخَلّ والبلّوط ؟ أم في الشتاء عندما يضطهدكم الفضاء ، ويطردكم البرد والزَّمهرير إلى الأكواخ المُلتَحِفَة بالثّلوج ؛ فتجلسون بجانب المواقد متأفِّفين خائفين غضب الزَّوابع والعواصف ؟

« هذه هي حياتكم أيها الفقراء . هذا هو الليل المخيِّم على أرواحكم أيها التعساء . هذه هي أشباح ذُلّكم وشقائكم أيها المساكين . هذا هو الصراخ الأليم المستمرّ الذي سمعته خارجاً من أعماق صدوركم ؛ فاستيقظتُ وتمرَّدتُ على الرُّهبان وكفرت بمعيشتهم ، و وقفت منفرداً متظَلِّماً باسمكم واسم العدالة المتوجِّعة بأوجاعكم ، فحسبوني كافراً شرِّيراً ، وطردوني من الدَّير ، فجئت لكي أشاطركم التَّعاسة ، وأعيش بقربكم ، وأمزج دموعي بدموعكم ، فأسلمتموني مكتوفاً إلى عدوكم القوي ، الذي يغتصب خيراتكم ، ويحيا غنيًّا بأموالكم ، ويملأ جوفه الوسيع من أثمار أتعابكم .

« أ لا يوجد بينكم شيوخ يعلمون أن الأرض التي تحرثونها وتُحرَمون غلّتها هي لكم ، وقد اغتصبها والد الشيخ عباس من آبائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة على حدّ السَّيف ؟ أ ما سمعتم بأن الرُّهبان قد احتالوا على جدودكم ، وامتلكوا مزارعهم وكرومهم ، عندما كانت آيات الدِّين مخطوطة على

---

(١) في الأصل : أي متى .
(٢) في الأصل : تنتهركم .
(٣) في الأصل يكتحل .
(٤) الطمر : الثوب البالي .
(٥) الزُّوان : عشب ينبت بين أعواد الحنطة غالبا ، وحبه يخالط البر فيكسبه رداءة .

شفتي الكاهن ؟ أ لا تعلمون أن (١) ممثّلي الدّين وأبناء الشرف الموروث يتعاونون على إخضاعكم وإذلالكم واستقطار دماء قلوبكم ؟ أي رجل منكم لم يلوِ عُنُقَه كاهنُ الكنيسة أمام سيّد الحقول ؟ وأي امرأة بينكم لم يزجرها سيد الحقول ويستحثّها لكي تتبع مشيئة كاهن الكنيسة ؟

« قد سمعتم بأن الله قال للإنسان الأوّل : « بِعَرَق جبينك تأكل خبزك .» فلماذا يأكل الشّيخ عباس خبزه مجبولاً بعَرَق جبينكم ، ويشرب خمره ممزوجة (٢) بدموعكم ؟ هل ميّز الله هذا الرجل وجعله سيّداً ، إذ كان في رَحِم أمه ؟ أم غضب عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً إلى هذه الحياة ؛ لكي تجمعوا غلّة الحقول ، ولا تأكلوا غير أشواك الأودية ، وتقيموا القصور الفخمة ، ولا تسكنوا غير الأكواخ المتَداعِيَة ؟

« قد سمعتم بأن يسوع الناصري قد قال لتلاميذه : « مجاناً أخذتم ، مجاناً أعطوا . لا تقتنوا فِضّة ، ولا ذهباً ، ولا نُحاساً في مناطقكم .» إذاً أي تعاليم أباحت للرُّهبان والكُهّان بيع صلواتهم وتعازيمهم بالفضة والذهب ؟ أنتم تصلّون في سَكينة الليالي قائلين : أعطنا يارب خبزنا كفافَ يومنا ، والرب قد وهبكم هذه الأرض لتعطيكم الخبز الكفاف ، فهل وَهَبَ رؤساءَ الأديرة السُّلْطة لانتزاع هذا الخبز من بين أيديكم ؟ أنتم تلعنون يهوذا لأنه باع سيده بالفضة ، فأي شيء يجعلكم تباركون (٣) الذين يبيعونه في كل يوم من حياتهم ؟ إن يهوذا التّعِس قد ندم على خطيئته فشنق نفسه ، أما هؤلاء فيسيرون أمامكم برؤوس مرفوعة ، وأذيال طويلة ناعمة، وقلائد ذهبية ، وخواتم ثمينة .

« أنتم تُعلّمون أبناءكم محبة الناصري ، فكيف تُعَلّمونهم الخضوع أمام مُبْغضيه ومخالفي تعاليمه وشرائعه ؟ قد عرفتم أن (٤) رُسل المسيح قد ماتوا قتلاً ورَجْماً لكي يُحيوا فيكم الروح المقدّسة ، فهل تعرفون أن (٥) الرُّهبان والكهّان يقتلون أرواحكم لكي يَحيوا متمتّعين بخيراتكم ، متلذّذين بِفَرْقَعَة (٦) قيودكم ؟ ماذا يغُرُّكم أيها المساكين في وجود مُفْعَم بالذُّل والهوان ، ويبقيكم راكعين أمام صنم مخيف أقامه الكذب والرّياء على قبور آبائكم ؟ وأي كنز ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه إرْثًا لأبنائكم ؟

« نفوسكم في قبضة الكاهن ، وأجسادكم بين مخالب الحاكم ، وقلوبكم في ظلمة اليأس والأحزان ؛ فأي شيء في الحياة يمكنكم أن تشيروا إليه قائلين : هذا لنا ؟ أ تعرفون أيها المستسلمون الضعفاء ، من هو الكاهن الذي تهابونه وتقيمونه وصيًّا على أقدس أسرار نفوسكم ؟ اسمعوني فأبيّنَ لكم ما تشعرون أنتم به ، وتخافون إظهاره .

« هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدّساً فيجعله شبكة يصطاد بها أموالهم ؛ ومُراءٍ يُقلّده المؤمنون صليباً جميلاً فيمتشقه سيفاً سَنيناً (٧) ويرفعه فوق رؤوسهم ؛ وظالم يُسلّمه الضعفاء أعناقهم فيربطها بالمقَاود (٨) ، ويوثقها باللجُم (٩) ، ويقبض عليها بيد من حديد ، ولا يتركها حتى تنسحق كالفَخّار ، وتتبَدّد كالرّماد .

« هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفًا ، وينام مطمئنًا ، وعند مجيء الظلام يثب على النّعاج ، ويخنقها نَعْجَة إثر نعجة .

« هو نَهِمٌ يحترم موائد الطعام أكثر من مذابح الهيكل ؛ وطامع يتبع الدّينار إلى مغاور الجِنّ ، ويمتصّ دماء العباد مثلما تمتصّ رمال الصّحراء قطرات المطر ؛ وبخيل يحرص على أنفاسه ويَدّخَر ما لا يحتاجه .

« هو محتال يدخل من شقوق الجدران ، ولا يخرج إلّا بسقوط البيت ؛ ولصّ صخريّ القلب ينتزع الدّرْهَم من الأرملة والفلس من اليتيم .

(١) في الأصل : بأن .
(٢) في الأصل : ممزوجًا .
(٣) في الأصل : أن تباركوا .
(٤) في الأصل : بأن .
(٥) في الأصل : بأن .
(٦) في الأصل : بحرتقة ، ولعلها تحريف لكلمة فرقعة أو غيرها من الكلمات الشبيهة .
(٧) السّنين : المسْنون الحادّ .
(٨) جمع مقود ، ما تقاد به الدابة من حبل ونحوه .
(٩) جمع لجام .

« هو مخلوق عجيب له مِنْقار النَّسْر ، ومقابض النَّمر ، وأنياب الضَّبع ، وملامس الأفعى . خذوا كتابه ، ومزِّقوا ثوبه ، وانتفوا لحيته ، وافعلوا به ما شئتم ، ثم عودوا وضعوا الدّينار في كفه فيغفر لكم ويبتسم بمحبة . اصفعوا خدَّه ، وابصقوا بوجهه ، ودوسوا عنقه ، ثم أجلسوه على موائدكم فيتناسى ويتهلَّل ، ويحل حزامه لينمو جوفه بمآكلكم ومشاربكم . جَدِّفوا [١] على اسم ربه ، واقذفوا بعقائده ، واسخروا بإيمانه ، ثم ابعثوا إليه بجرَّة من الخمر ، أو بسلَّة من الفاكهة فيسامحكم ويبرركم [٢] أمام الله والناس .

« يرى المرأة [٣] فيحوِّل وجهه قائلاً بأعلى صوته: « ابتعدي عني يا ابنة بابل .» ثم يهمس بسِرِّه قائلاً : الزِّيجة افضل من التَّحرُّق .» يرى الفتيان والصَّبايا سائرين في موكب الحب فيرفع عينيه نحو السماء ويهتف قائلاً : « باطلة الأباطيل ، وكل شيء تحت الشمس باطل .» ثم يختلي ويتنهد قائلاً: لِتَفْنَ الشرائع ، وتضمحلَّ التَّقاليد التي أبعدتني عن غبطة الحياة ، وحرمتني [٤] ملذَّات العمر !» يقول للناس مستشهداً : « لا تُدينوا لِئلا تُدانوا .» ولكنه يُدين بقساوة جميع الذين يَسخرون بمكارهه ، ويبعث بأرواحهم إلى الجحيم قبل أن يبعدهم الموت عن هذه الحياة .

« يحدِّثكم رافعاً عينيه بين الآونة والأخرى نحو العلاء ، أما فكرته فتظل مُنسابة كالأفعى حول جيوبكم . يناديكم بقوله لكم : يا أولادي ، ويا أبنائي ، وهو لا يشعر بالعاطفة الأبويَّة ، ولا تبتسم شفتاه لرضيع ، ولا يحمل طفلاً على مَنْكِبَيْه . يقول لكم هازًّا رأسه بتخَشُّع : « لِنَتَرَفَّعَنَّ عن العالميات ؛ لأن أعمارنا تضمحلّ كالضَّباب ، وأيامنا تزول كالفَيْء .» وإذا نظرتم جيِّداً رأيتموه متمسكاً بأذيال الحياة ، مُتَشَبِّثاً بأهداب العمر ، متأسِّفاً على ذهاب الأمس ، خائفاً من سرعة اليوم ، مترقِّباً مجيء الغد .

« يطلب منكم الإحسان وهو أوفر منكم مالاً ، فإن أجبتموه يباركْكم عَلَناً ، وإن منعتموه يلعنكم سِرًّا . في الهيكل يوصيكم بالفقراء والمحتاجين ، وحول منزله يصرخ الجائعون ، وأمام عينيه تُمدّ أيدي البائسين ، فلا ينظر ولا يسمع . يبيع صلاته ، ومن لا يشتري يكون كافراً بالله وأنبيائه ، محروماً من الجنة والنعيم .

« هذا هو المخلوق الذي يخيفكم أيها المسيحيون. هذا هو الرَّاهب الذي يمتصّ دماءكم أيها الفقراء . هذا هو الكاهن الذي يرسم إشارة الصَّليب بيمينه ، ويقبض على قلوبكم بشماله . هذا هو الأسقُف الذي تقيمونه خادماً فينقلب سيداً ، وتُطَوِّبونه قِدّيساً فيصير شيطاناً ، وترفعونه نائباً فيصبح نيراً ثقيلاً . هذا هو الظِّلّ الذي يتبع أرواحكم منذ بلوغها هذا العالم حتى رجوعها إلى الأبدية . هذا هو الرجل الذي جاء في هذه الليلة لكي يدينني ويرذلني ؛ لأن روحي تمرَّدت على أعداء يسوع الناصري ، الذي أحبكم ودَعاكم إخوة له ، ثم صُلِب من أجلكم .»

وتهلَّل وجه الشاب المكتوف ، وقد شعر باليقظة الرّوحيَّة المتمايلة في صدور سامعيه ، واتَّضحت له تأثيرات كلامه في وجوه الناظرين إليه ، فرفع صوته وزاد قائلاً :

« قد سمعتم أيها الإخوة بأن الشيخ عباس قد أقامه الأمير أمين الشهابي سيداً على هذه القرية ، وسمعتم أيضاً بأن الأمير قد أقامه المليك حاكماً على هذا الجبل ، فهل سمعتم أو رأيتم القوة التي أقامت المليك ربًّا على هذه البلاد ؟ أنتم لا ترون تلك القوة متجَسِّدة ، ولا تسمعونها متكَلِّمة ، ولكنكم تشعرون بوجودها في أعماق أرواحكم ، وتسجدون أمامها مُصَلِّين مبتَهلين ، وتنادونها بقولكم : أبانا الذي في السَّموات .

« نَعَمْ ، إن أباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والأمراء ، وهو القادر على كل شيء . ولكن هل تعتقدون بأن أباكم الذي أحبَّكم ، وعلَّمكم سُبُل الحق بواسطة أنبيائه يريد أن تكونوا مظلومين

---

(١) جَدِّفوا : اكفروا بنعمه . (٢) يبرركم : يزكيكم .
(٣) في الأصل : الإمرأة . (٤) حرمتني : في الأصل أحرمتني .

ومرذولين ؟ هل تعتقدون بأن الله الذي ينزل السّحاب مطراً ، ويستنبت البذور زرعاً ، وينمي الزهور أثماراً يريد أن تكونوا جياعاً محتقَرين لكي يبقى واحد بينكم منتفخاً مُتَلذِّذاً ؟ هل تعتقدون بأن الروح السّرْمَدي [١] الذي يوحي إليكم محبّة الزوجة والرّأفة بالبنين والشّفَقة على القريب يقيم عليكم سيداً قاسياً ، يظلمكم ويستعبد [٢] أيامكم ؟ هل تعتقدون بأن النواميس الأزلية التي تحبّب إليكم نور الحياة تبعث إليكم بمن يُحبّب إليكم ظلمة الموت ؟ هل تعتقدون بأن الطبيعة قد بعثت القُوى في أجسادكم لكي تعود وتخضعها أمام الضّعف ؟

« أنتم لا تعتقدون بهذه الأشياء ؛ لأنكم إذا فعلتم تكونون كافرين بالعَدْل الإلهي ، جاحدين نور الحق الذي يضيء على جميع الناس . إذاً أي شيء يجعلكم تساعدون [٣] الشرير على نفوسكم ؟ ولماذا تخافون مشيئة الله الذي بعثكم أحراراً إلى هذا العالم ، وتصيرون عبيداً للمتمرّدين على ناموسه ؟ كيف ترفعون أعينكم نحو الله القَويّ وتَدْعونه أبًا ، ثم تحنون رقابكم أمام الإنسان الضعيف وتدعونه سيداً ؟ كيف يرضى أبناء الله أن يكونوا عبيداً للبشر ؟ أ ما دعاكم يسوع إخوة ، فكيف يدعوكم الشيخ عباس خَدَماً ؟ أ ما جعلكم يسوع أحراراً بالروح والحق ، فكيف يجعلكم الأمير عبيداً [٤] للحَيْف والفساد ؟ أ ما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء ، فكيف تخفضونها إلى التراب ؟ أ ما سكب يسوع النور في قلوبكم ، فكيف تغمرونها بالظلام ؟

« إن الله قد بعث أرواحكم في هذه الحياة كشُعلات مضيئة ، تنمو بالمعرفة ، وتزيد جمالاً باستطلاعها خفايا الأيام والليالي ، فكيف تلحقونها بالرّماد لتبيد وتنطفئ ؟ إن الله قد وهب نفوسكم أجنحة لتطير بها سابحة في فضاء الحب والحرية ، فلماذا تَجُزّونها [٥] بأيديكم وتدبون كالحشرات على أديم الأرض ؟ إن الله قد وضع في قلوبكم بذور السعادة ، فكيف تنتزعونها وتطرحونها على الصّخر لتلتقطها الغِرْبان وتذريها الأرياح ؟

« إن الله قد رزقكم البنين والبنات لكي تدرّبوهم على سبُل الحق ، وتملأوا صدورهم بأغاني الكِيان ، وتتركوا لهم غبطة الحياة إرثاً ثميناً ، فكيف تَهْجَعون وتُخَلّفونهم مُواتاً بين أيدي الدهر ، غرباء في أرض مولدهم ، تعساء أمام وجه الشمس ؟ أ وَ ليس الوالد الذي يترك ابنه الحر عبداً ، يكون كالوالد الذي يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟ أ ما رأيتم عصافير الحقل تُدَرّب فراخها على الطيران ، فكيف تعلّمون صغاركم جَرّ القيود والسلاسل ؟ أ ما رأيتم زهور الأودية تستودع بذورها حرارة الشمس ، فكيف تسلمون أطفالكم إلى الظلمة الباردة ؟»

وسكت خليل هنيهة ، كأن أفكاره وعواطفه قد نمت واتسعت ، فلم تعد ترتدي الألفاظَ ثوباً ، ثم قال بصوت منخفض :

« إن الكلام الذي سمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الرُّهبان من أجله ، والروح التي شعرتم بتموُّجاتها في قلوبكم هي الروح التي أوقفتني مكتوفاً أمامكم ، فإذا وثب عليَّ سيّدُ حقولكم وكاهِنُ كنيستكم وصرعاني أموت سعيداً فرحاً ؛ لأني بإظهاري لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون جُرْماً هائلاً قد تَمَّمْتُ مشيئة بارئي وبارئكم .»

كان خليل يتكلم وفي صوته الجَهوري نَغْمَة سحرية تضطرب لها قلوب الرجال الناظرين إليه بإعجاب ، يشابه استغراب الأعمى إذا ما أبصر فجأة، وتهتزّ لحلاوتها نفوس النساء المحدّقات به بأعين طافحة بالدموع . أما الشيخ عباس والخوري إلياس ، فكانا يرتجفان غضباً ، ويتلوّيان كالمطروحين على وسائد من الأشواك ، وقد حاول كل منهما أن [٦] يوقف الشاب عن الكلام فلم يستطع ؛ لأنه كان يخاطب الجمع بقوّة علويّة ، تُشابه العاصفة بعَزْمها والنسيم برقّتها .

(١) السرمدي : الدائم والباقي . (٢) في الأصل : ويستعيد .
(٣) في الأصل : أن تساعدوا . (٤) في الأصل : عبداً .
(٥) تَجُزّونها : تقطعونها .
(٦) في الأصل : بأن .

ولما انتهى خليل من كلامه ، وقد تراجع قليلاً إلى الوراء ، و وقف بجانب راحيل ومريم ، حدث سكوت عميق ، كأن روحه المرفرفة في جوانب تلك القاعة الوسيعة قد حوّلت بصائر القرويين نحو مكان قصيّ ، وانتزعت الفكر والإرادة من نفسي الشيخ والكاهن ، وأوقفتهما مرتعشين أمام أشباح ضميريهما المزعجة .

حينئذ وقف الشيخ عباس ، وقد تقلّصت ملامحه ، واصفر وجهه ، وانتهر الرّجال الواقفين حوله قائلاً بصوت مخنوق :

« ما أصابكم أيها الكلاب ؟ هل تسمّمت قلوبكم ، وجمدت الحياة في داخل أجسادكم ؛ فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر المهذار ؟ هل اكتنفت روحُ هذا الشيطان أرواحكم ، وكبّلت بسحره الجهنّمي سواعدكم ؛ فلم تستطيعوا إبادته ؟»

قال هذه الكلمات وامتشق سيفاً كان بجانبه ، وهجم على الفتى المكتوف ليوقع به ، فتقدّم رجل قوي البِنْيَة من بين الشعب واعترضه قائلاً بهدوء :

« أغمد سيفك يا سيدي ؛ لأن من يأخذ بالسّيف، بالسيف يَهْلك .»

فارتعش الشيخ عباس ، وسقط السيف من يده ، وصرخ قائلاً : « هل يعترض الخادم الضعيف سيده و وَليّ نِعْمته ؟»

فأجابه الرجل : « الخادم الأمين لا يشارك سيّده بالشرور والمظالم. إن هذا الشاب لم يقل غير [1] الحق ، ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة .»

وتقدّم رجل آخر وقال : « لم يقل هذا الفتى شيئاً يستوجب الحُكْم ، فلماذا تضطهده ؟»

ورفعت امرأة صوتها وقالت : « لم يقذف بالدين، ولم يُجدّف على اسم الله ، فلماذا تدعوه كافراً ؟»

فتشجّعت راحيل إذ ذاك ، وتقدّمت إلى الأمام ، وقالت : « إن هذا الشاب يتكلّم بألسنتنا ، ويتظلم عنّا ، ومن يريد به شرًّا يكون عدوًّا لنا .»

فقال الشيخ عباس صارفًا [2] أسنانه : « وأنتِ تتمردين أيضاً أيتها الأرملة الساقطة ؟ هل نسيتِ ما أصاب زوجك عندما تمرّد عليّ منذ خمس سنوات ؟»

فشهقت راحيل عندما سمعت هذه الكلمات ، وارتعشت متوجّعة كمن أدرك سرًّا هائلاً ، والتفتت نحو الجَمْع ، وصرخت بأعلى صوتها :

« هل سمعتم القاتل يعترف بجريمته في ساعة غضبه ؟ أ لا تذكرون أن زوجي قد وُجِدَ قتيلاً في الحقل ، وقد بحثتم عن القاتل فلم تجدوه ؛ لأنه كان مختبئاً وراء هذه الجدران ؟ أ لا تذكرون أن زوجي كان رجلاً شجاعاً ؟ أ ما سمعتموه مُتَكَلّماً عن مكاره الشيخ عباس ، مُنَدّدًا بأعماله ، متمرّدًا على قساوته ؟

« ها قد أبانت السماء قاتل جاركم وأخيكم وأوقفته أمامكم ، فانظروا إليه ، واقرأوا جريمته مكتوبة على وجهه المصفرّ . انظروه مُتَمَلْمِلاً جازعاً . تأمّلوا كيف ستر وجهه بيديه كيلا يرى عيونكم مُحَدّقة به . انظروا السيد القوي مرتجفاً كالقَصَبَة المَرْضوضة . انظروا الجبّار العظيم مُرْتاعاً أمامكم كالعبد الخاطئ . إن الله قد أراكم على حين غَفْلة خفايا هذا القاتل الذي تخافونه ، وأبان لكم النّفْس الشريرة التي جعلتني أرملة بين نسائكم ، وتركت ابنتي يتيمة بين أبنائكم .»

بينما راحيل تتكلّم صارخة ، وألفاظها تنقضّ كالصّواعق على رأس الشيخ عباس ، وضجيج الرجال وزفرات النساء تتموّج كشُعلات النّار والكِبْريت حول دماغه ، وقف الكاهن وأخذ بساعده وأجلسه على المقعد ، ثم نادى الخدم بصوت مُرْتَجف قائلاً :

« اقبضوا على هذه المرأة التي تتهم سيدكم زوراً وجُرّوها مع هذا الشاب الكافر إلى غرفة مظلمة . ومن يعترضكم يكن [3] شريكاً لهما بالجريمة محروماً نظيرهما من الكنيسة المقدّسة .»

فلم يتحرك الخُدّام من أماكنهم ، ولم يحفلوا

(١) في الأصل : بغير .

(٢) في الأصل : صارًا . (٣) في الأصل : يكون .

بأوامر الكاهن ، بل لبثوا جامدين مُحَدِّقين بخليل المكتوف وراحيل ومريم الواقفتين عن يمينه وشماله ، كأنهما جناحان قد فتحهما ليطير ، ويحلّق بهما في السّحاب .

فقال الكاهن ولحيْته تتراقص حَنَقًا : « هل تكفرون بنعمة سيدكم أيها الأجلاف ، وتَجْحدون فضله وتنكرونه ، من أجل فتى مجرم كافر وامرأة عاهرة كاذبة ؟»

فأجابه أكبر الخُدّام سِنًّا وقال : « قد خدمنا الشيخ عباس لِقاءَ الخُبْز والمأوى ، ولكننا لم نكن له عبيداً قَطُّ .»

قال هذا ونزع عباءته وكوفيّته ، وطرحهما أمام الشيخ عباس ، وزاد قائلاً : « لا أريد أن أنعِّم جسدي بهذه الملابس الحقيرة كيما تبقى نفسي مُتَعَذِّبة في منزل سَفّاك الدماء .»

ففعل الخدّام كافةً نظيره وانضموا إلى الجمع ، وعلى وجوههم سيماءُ الانعتاق والحرية .

فلما رأى الخوري إلياس ما فعلوه ، وقد شعر بأن سلطته الكاذبة قد تَضَعْضَعَت ، خرج من ذلك المنزل مُجَدِّفًا على الساعة التي أتت بخليل إلى تلك القرية .

حينئذ تقدّم رجل من بين الجمع وحلَّ وَثاق خليل ، ونظر إلى الشيخ عباس المرتمي على كُرْسيّه كجثة هامدة ، وبلهجة مملوءة بالعزم والإرادة خاطَبه قائلاً :

« إن الشاب الذي أحضرته مكتوفًا لكي تحاكمه كمجرم أثيم ، قد أنار قلوبنا المظلمة ، وحوّل بصائرنا نحو سُبُل الحق والمعرفة ، والأرملة البائسة التي دعوتَها عاهرة كاذبة ، قد أبانت لنا السرَّ الهائل الذي ظل مكتوماً خمسة أعوام . أمّا نحن فقد تراكضنا مسرعين إلى هذه الدار لدَيْنونة [١] البريء واضطهاد العادل . والآن وقد انفتحت أعيننا أمام جريمتك المخيفة ومظالمك القاسية نغادرك منفرداً ولا نُدينك ، ونُهملك ولا نشكوك ، ونبتعد عنك طالبين من السماء أن [٢] تفعل مشيئتها بك .»

وارتفعت إذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الوسيعة ، فكان هذا يقول : « هلموا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي ونذهب إلى بيوتنا .»

وذا يصرخ : « تعالوا نتّبع الشاب إلى بيت راحيل ونسمع حكمته المعَزّيّة وأقواله العَذْبة .»

وذاك يهتف : « لنفعلنَّ إرادة خليل ؛ فهو أعلم بحاجاتنا وأدرى مِنّا بمطالبنا .»

وغيره يقول : « إن كُنّا نريد العدل والإنصاف فلنذهب غداً إلى الأمير أمين ، ونخبره بجرائم الشيخ عباس ونطلب إليه أن يعاقبه .»

وآخر يصيح : « يجب أن نستعطف الأمير ونرجوه أن يقيم خليلاً له في هذه القرية .»

وغيره يقول : « يجب أن [٣] نشكو الخوري إلياس إلى الأسْقُف ؛ لأنه يشارك الشيخ بجميع أعماله .»

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كل ناحية ، وتهبط كالسهام الحادّة على صدر الشّيخ الخفوق ، رفع خليل يده وأسكت الجمع بإشارة ، ثم ناداهم قائلاً :

« اسمعوا وتبصَّروا أيها الإخوة ، ولا تكونوا متسرِّعين . أنا أطلب إليكم باسم محبتي ألا تذهبوا إلى الأمير فهو لا ينصفكم من الشيخ ؛ لأن الكواسر لا ينهش بعضها [٤] البعض ، ولا تشكوا الكاهن إلى رئيسه ؛ لأن الرئيس يعلم أن [٥] البيت الذي ينقسم على ذاته يَخْرَبُ ، ولا تطلبوا أن أكون مُمثّلاً للحاكم في هذه القرية ؛ لأن الخادم الأمين لا يريد أن [٦] يكون عونًا للسيد الشرير . إن كنت خليقاً بحبكم وانعطافكم ، دعوني أعيش بينكم ، وأشارككم بأفراح الحياة وأحزانها ، وأشاطركم

(١) دَيْنونة : إدانة ومحاسبة .

(٢) في الأصل : بأن . (٣) في الأصل : بأن .
(٤) في الأصل : ببعضهما . (٥) في الأصل : بأن .
(٦) في الأصل : بأن .

العمل في الحقول والراحة في المنازل ؛ لأنني إن لم أكن كواحد منكم أكن [1] كالمرائين الذين يَكْرِزون بالفضيلة ولا يفعلون غير الشر . والآن ، وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة ، تعالوا نذهب تاركين الشيخ عباس واقفاً في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي يُشرق شمسَه على الأبرار والأشرار .»

قال هذا وخرج من ذلك المكان فتبعه الجمع ، كأن في شخصه قوّة تتحوّل نحوها الأبصار كيفما تحوّلت ، وبقي الشيخ منفرداً كالبرج المهدوم ، متوجّعاً كالقائد المغلوب . ولما بلغ الجمع ساحة الكنيسة ، وكان القمر قد طلع من وراء الشّفق وسكب أشعته الفضّية في السماء ، التفت خليل ورأى أوجه الرجال والنساء متّجهة نحوه كالخِراف النّاظرة إلى راعيها ، فتحرّكت روحه في داخله ، كأنه وجد في أولئك القرويين المساكين رمز الشعوب المظلومة ، وشاهد في تلك الأكواخ الحقيرة المكتَنَفَة بالثلوج المتَجَلّدة رمز البلاد المغمورة بالذّلّ والهوان . فوقف وقفة نبي يسمع صُراخ الأجيال ، وتغيّرت ملامحه ، واتّسعت عيناه ، كأن نفسه قد أبصرت جميع أمَم المشرق سائرة تجرّ قيود العبودية في تلك الأودية . فرفع كَفّيْه نحو العلاء ، وبصوت يُشابه ضجيج الأمواج صرخ قائلاً :

« من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا . من جوانب هذه الظُّلمة نرفع أكُفّنا نحوكِ فانْظُرينا ، وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا . أمام عرشك الرّهيب نقف الآن ناشرين على أجسادنا أثواب آبائنا الملطّخة بدمائهم ، عافِرين [2] شعورنا بتُراب القبور الممزوج ببقاياهم ، حاملين السيوف التي أغْمِدَت بأكبادهم ، رافعين الرّماح التي خرَقَتْ صدورهم ، ساحبين القيود التي أبادت أقدامهم ، صارخين الصُّراخ الذي جرح حناجرهم ، نائحين النُّواح الذي ملأ ظلمة سجونهم ، مُصَلّين الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم ، فاصغي أيتها الحرية واسمعينا . من منبع النيل إلى مَصَبّ الفُرات يتصاعد نحوك عويلُ النُّفوس مُتَموّجاً مع صراخ الهاوية ، ومن أطراف الجزيرة إلى جبهة لبنانِ تمتد إليك الأيدي مُرْتَعِشَة بنِزاع الموت ، ومن شاطئ الخليج إلى أذيال الصحراء ترتفع نحوك الأعين مغمورة بذَوَبان الأفئدة ؛ فالتفتي أيتها الحرية وانْظُرينا .

« في زوايا الأكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تُقَرّع أمامك الصّدور . وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تُطْرَح لديك القلوب . وفي قَراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تَحِنُّ إليك الأرواح ؛ فانظري أيتها الحرية وارحمينا . في المدارس والمكاتب تناجيك الشّبيبَةُ البائسة . وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكِتابُ المتروك . وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك الشريعة المهمَلة ، فاشفقي أيتها الحرية وخَلّصينا . في شوارعنا الضيّقة يبيع التّاجر أيامه ليعطي أثمانها إلى لصوص الغرب [3] ، ولا من ينصحه . وفي حقولنا المجْدِبَة يحفِرُ الفلاح الأرض بأظافره ، ويزرعها حبّات قلبه ، ويسقيها دموعه ، ولا يستغلّ غير الأشواك ولا من يُعَلّمه . وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عارياً حافياً جائعاً ولا من يترَأف به ؛ فتكلّمي أيتها الحرية وعَلّمينا .

« نِعاجُنا ترعى الأشواك والحَسَك [4] ، بدلاً من الزهور والأعشاب ؛ وعجولنا تقضم أصول الأشجار بدلاً من الذرة ؛ وخيولنا تلتهم الهشيم بدلاً من الشعير ؛ فهلمي أيتها الحرية وانقذينا .

« منذ البدء وظلام الليل يخيّم على أرواحنا ، فمتى يجيء الفجر ؟ من الحُبوس إلى الحبوس تنتقل أجسادنا والأجيال تمرّ بنا ساخرة ، فإلى متى نحتمل سخرية الأجيال ؟ ومن نِير ثقيل إلى نير أثقل تذهب أعناقنا ، وأمم الأرض تنظر من بعيد ضاحكة مِنّا ، فإلام نصبر على ضحك الأمم ؟ ومن القيود إلى القيود تسير رِكابُنا ، فلا القيود تَفْنى ولا نحن ننقرض ، فإلى متى نحيا ؟

« من عبودية المصريين إلى سَبْي بابل ، إلى قساوة

(١) في الأصل : أكون .
(٢) عافِرين : معفّرين .
(٣) في الأصل : المغرب .
(٤) الحَسَك : نبات شائك .

الفُرْس ، إلى خدمة الإفريقيين ، إلى استبداد الروم ، إلى مظالم المَغول ، إلى مطامع الإفرنج ، فإلى أين نحن سائرون الآن ، ومتى نبلغ جبهة العقبة ؟

« من مقابض فرعون إلى مخالب نبوختنصر ، إلى أظافر الإسكندر ، إلى أسياف هيرودس ، إلى براثن نيرون ، إلى أنياب الشيطان ، فإلى يد من نحن ذاهبون الآن ، ومتى نبلغ قبضة الموت فنرتاح من سكينة العدم ؟

« بعَزْم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم ، وعلى ظهورنا قد نقلوا الطين والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حماهم ، وبقُوى أجسادنا قد أقاموا الأهرام لتخليد أسمائهم ، فحتى متى نبني القصور والصروح ، ولا نسكن غير الأكواخ والكهوف ، ونملأ الأهراء والخزائن ، ولا نأكل غير الثوم والكرّات ، ونَحوك [١] الحرير والصوف ، ولا نلبس غير المسوح والأطمار ؟

« بخبثهم واحتيالهم قد فرّقوا بين العشيرة والعشيرة ، وأبعدوا الطائفة عن الطائفة ، وبَغّضوا القبيلة بالقبيلة ، فحتى متى نتبدّد كالرّماد أمام هذه الزّوبعة القاسية ، ونتصارع كالأشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المُنْتنَة ؟

« لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سَلّحوا الدُرْزيّ لمقاتلة العربيّ ، وحمّسوا الشّيعيّ لمصارعة السُّنّيّ ، ونشّطوا الكُرْدِيّ لذبح البدويّ ، وشجّعوا الأحمديّ لمنازعة المسيحيّ ، فحتى متى يصرع الأخ أخاه على صدر الأم ، وإلى متى يتوعّد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة ، وإلامَ يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله ؟

« أصغي أيتها الحرية واسمعينا ، التفتي يا أم ساكني الأرض وانظرينا ؛ فنحن لسنا أبناء ضرّتك . تكلّمي بلسان فرد واحد منا ؛ فمن شرارة واحدة يشتعل القَشّ اليابس . أيقظي بحفيف أجنحتك روح رجل من رجالنا ؛ فمن سحابة واحدة ينبثق البرق ، وينير بلحظة خلايا الأودية وقمم الجبال . وبَدّدي بعَزْمك هذه الغيوم السوداء ، وانزلي كالصاعقة ، واهدمي كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة بذهب الجزية والرشوة المغمورة بالدّماء والدُّموع .

« اسمعينا أيتها الحرية ، ارحمينا يا ابنة أثينا ، أنقذينا يا أخت رومة ، خَلّصينا يا رفيقة موسى ، أسعفينا يا حبيبة محمد ، عَلّمينا يا عروسة يسوع ، قوّي قلوبنا لنحيا ، أو شَدّدي سواعد أعدائنا علينا فنفنى وننقرض ونرتاح .»

كان خليل يناجي السماء وعيون الفلاحين مُحَدِّقة به ، وعواطفهم تنسكب مع نَغْمة صوته ، ونفوسهم تتطاير مع أنفاسه ، وصدورهم تخفق بنبضات قلبه ، فكأنه أصبح منهم في تلك السّاعة بمنزلة الرّوح من الجسد . ولما انتهى من مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء :

« قد جمعنا هذا الليل في منزل الشيخ عباس لكي نرى نور النهار ، وأوقفتنا المظالم أمام هذا الفضاء البارد لكي نَتَفاهم وننضمّ كالفراخ تحت جناحي الروح الخالدة . فليذهب الآن كلٌّ مِنّا إلى فراشه لينام مُتَرَقّبًا لقاء أخيه في الصباح .»

قال هذا ومشى متبعاً خطوات راحيل ومريم إلى كوخهما . فتفرّق إذ ذاك الجمع وذهب كل إلى بيته مفكرًا [٢] بما سمعه ورآه ، شاعراً بملامس حياة جديدة في داخل نفسه .

ولم تمرّ ساعة حتى انطفأت السُّرُج في الأكواخ، وألقت السكينة وشاحها على تلك القرية ، وحملت الأحلام أرواح الفلاحين ، تاركة روح الشيخ عباس ساهرة مع أشباح الليل ، مُرْتَعِدَة أمام ذنوبه ، متعَذّبة بين أنياب هواجسه .

٨

مرّ شهران وخليل يسكب سرائر روحه في قلوب

(١) نَحوك : ننسج .

(٢) في الأصل : مفتكراً .

أولئك القرويين ، محدثًا إياهم في كل يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم ، مصوِّرًا لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين ، مُرَدِّدًا على مسامعهم أخبار الحكام القُساة ، جاعلاً بين عواطفه وعواطفهم صِلة قوية شبيهة بالنّواميس الأزلية التي تُقَيِّد الأجرام بعضها ببعض . فكانوا يصغون إليه بفرح يُضارع بهجة الحقول الظمآنة بانهطال الأمطار ، ويردِّدون كلامه في خلوتهم ، مُلْبسين نسمات مقاصده أجسادًا من محبتهم ، غير حافلين بالخوري إلياس الذي أصبح يَتَزَلَّف إليهم منذ ظهور جريمة حليفه الشيخ ، ويقترب منهم ليِّنًا كالشّمع ، بعد أن كان صُلْبًا كالرخام .

أما الشيخ عبّاس فقد أصيب بعِلّة في نفسه شبيهة بالجنون ، فكان يسير ذهابًا وإيابًا في رواق منزله كالنّمر المسجون ، وينادي خدامه بأعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران ، ويصرخ مستنجدًا برجاله ، فلا يأتي لمعونته غير زوجته المسكينة التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلاحون من مظالمه واستبداده . ولما جاءت أيام الصوم ، وأعلنت السماء قدوم الرَّبيع ، انقضت أيام الشيخ بانقضاء زوابع الشّتاء ، فمات بعد نِزاع موجع مخيف ، وذهبت روحه محمولة على بساط أعماله لتقف عارية أمام ذلك العرش الذي نشعر بوجوده ولا نراه .

وقد اختلفت آراء الفلاحين في سبب موته ، فكان بعضهم يقول قد اختلَّ شعوره فقَضى مجنونًا ، وبعضهم يقول قد سَمَّم اليأسُ حياته عندما زالت سطوته فمات منتحرًا . أما النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن رجالهن بأنه مات خائفًا مرتاعًا ؛ لأن شبح [١] سمعان الرامي كان يظهر له مُرْتديًا أثوابًا مُلَطَّخَة بالدماء ، ويقوده كَرْهًا عندما ينتصف الليل إلى المكان الذي وُجِدَ فيه مصروعًا منذ خمسة أعوام .

وأعلنت أيام نيسان لسكان تلك القرية سرائر الحب الخفية الكائنة بين روح خليل وروح مريم ابنة راحيل ، فتهلّلت وجوههم فرحًا ، ورقصت قلوبهم ابتهاجًا ، ولم يعودوا يخشون ذهاب الشاب الذي أيقظ قلوبهم إلى محيط أوسع وأرقى من وسطهم ، فطافوا يُبَشِّرون بعضهم بعضًا بصيرورته جارًا قريبًا ، وصِهْرًا محبوبًا لكل واحد منهم .

ولما جاءت أيام الحَصاد خرج الفلاحون إلى الحقول وجمعوا الأغمار على البيادر ، ولم يكن الشيخ عباس هناك ليغتصب الغَلّة ويحملها إلى أهرائه ومخازنه ، بل كان كُلٌّ من الفلاحين يستغلّ الحقل الذي فَلَحَه وزرعه ، فامتلأت تلك الأكواخ من القمح والذُّرة والخمر والزيت .

أما خليل فكان يشاطرهم الألعاب والمسرّات ، ويساعدهم بجمع الغَلّة وعَصْر العِنَب واجتناء الأثمار، ولم يكن يُمَيِّز نفسه عن الواحد منهم إلّا بمحبته ونشاطه .

منذ تلك السّنة إلى أيامنا هذه أصبح كل فلاح في تلك القرية يستغل بالفرح الحقل الذي زرعه بالأتعاب ، ويجمع بالمسَرَّة ثمار البستان الذي غرسه بالمشَقّة ، فصارت الأرض مِلْكًا لمن يفلحها ، والكروم نصيبًا لمن ينقبها ويحرثها .

والآن ، وقد انقضى نصف قرن على هذه الحادثة، وراودت اليقظة أجفان اللبنانيين ، يمرّ المسافر على طريقه إلى غابة الأرْز ، ويقف متأمّلاً بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على كتف الوادي ، فيرى أكواخها قد صارت بيوتًا جميلة مكتَنَفَة بالحقول الخصبة والحدائق الناضرة ، وإن سأل أحدَ سكانها عن تاريخ الشيخ عباس يجبه مشيرًا نحو حجارة متقوِّضة وجدران مهدومة مُرْتَمية قائلاً :

« هذا قصر الشيخ عباس ، وهذا هو تاريخ حياته . »

وإن سأله عن خليل يرفع يده إلى العلاء قائلاً :

« هناك يسكن خليلُنا الصّالح ، أما تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرف من شعاع على صفحات قلوبنا ؛ فلن تمحوه الأيام والليالي . »

---

(١) في الأصل : شيخ .

الأجنحة المتكسرة

إلى التي تُحَدِّق إلى الشّمس بأجْفانٍ جامِدَةٍ ، وتَقْبِضُ على النّارِ بأصابعَ غير مرتعشة ، وتسمع نَغْمَةَ الرّوح (الكُلّيّ) من وراء ضَجيج العميان وصُراخِهم - إلى M. E. H. [1] أرفعُ هذا الكِتاب .

جبران

---

(١) الأحرف الأولى من اسم السيدة التي أهداها جبران هذا الكتاب ، وهي سيدة أمريكية الجنسية ، اسمها : ماري هاسكل .

تَوْطِئَة

كنت في الثّامنةَ عشرةَ عندما فتح الحب عينيَّ بأشعته السّحرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النّارية . وكانت سلمى كرامة المرأةَ الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها ، ومشت أمامي إلى جَنّة العواطف العُلْوية ، حيث تمرُّ الأيّام كالأحلام ، وتنقضي الليالي كالأعْراس .

سلمى كرامة هي التي علّمتني عِبادة الجمال بجمالها ، وأرتني خفايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسمعي أول بيت من قصيدة الحياة المعْنوية .

أي فتى لا يذكر الصّبيّة الأولى التي أبدلت غَفْلة شَبيبَته بيقظة هائلة بلُطْفها ، جارحة بعذوبتها، فتّاكة بحلاوتها ؟ مَنْ مِنّا لا يذوب حنيناً إلى تلك السّاعة الغريبة التي إذا انتبه فيها فجأة رأى كُلّيّته قد انقلبت وتحوّلت ، وأعماقه قد اتّسعت وانبسطت ، وتَبَطّنت بانفعالات لذيذة بكل ما فيها من مرارة الكتْمان ، مُسْتَحَبّة بكل ما يكتَنفها من الدّموع والشّوق والسُّهاد ؟

لكل فتى سَلمى تظهر على حين غَفْلة في رَبيع حياته ، وتجعل لانفراده معنى شعريًّا وتُبَدِّل وحشَة أيامه بالأُنس ، وسَكينة لياليه بالأنغام .

كنت حائراً بين تأثيرات الطّبيعة وموحِيات الكتب والأسفار عندما سمعتُ الحبَّ يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي . وكانت حياتي خالية مُقْفِرَة باردة ، شبيهة بسُبات آدم في الفردوس ، عندما رأيت سلمى مُنْتَصِبَة أمامي كعمود النور ؛ فسلمى كرامة هي حَوّاء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب ، هي التي أفهمتْه كُنْهَ [١] هذا الوجود ، وأوقفته كالمرآة أمام هذه الأشباح .

حواء الأولى أخرجت آدم من الفِرْدَوْس بإرادتها وانقياده ، أما سلمى كرامة فأدخلتني إلى جنة الحب والطُّهر بحلاوتها واستعدادي . ولكن ما أصاب الإنسان الأول قد أصابني ، والسّيف النّاري الذي طرَده من الفردوس هو كالسّيف الذي أخافني بلَمَعان حَدّه ، وأبعدني كُرْهاً عن جَنّة المحبّة قبل أن أخالِف وَصيَّةً ، وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشّر.

واليومَ وقد مرّت الأعوام المُظْلِمَة ، طامِسَةً بأقدامها رسومَ تلك الأيام ، لم يبق لي من ذلك الحُلم الجميل سوى ذكريات موجِعَة ، تُرَفْرِف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسي ، مثيرة تَنَهُّدات الأسى في أعماق صدري ، مُسْتَقْطِرَة دموع اليأس والأسف من أجفاني .

وسلمى – سلمى الجميلة العَذْبة قد ذهبت إلى ما وراء الشّفَق الأزرق ، ولم يبق من آثارها في هذا العالم سوى غُصّات أليمة في قلبي ، وقبر رُخاميّ منتصب في ظلال أشجار السّرْو ، فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليُحَدِّث الوجود عن سلمى كرامة . غير أن السّكينَة التي تَخْفِر [٢] القبور لا تُفْشي ذلك السِّرَّ المصون الذي أخْفَته الآلهة في ظُلُمات التّابوت ، والأغصان التي امتَصّت عناصر الجسد لا تُبيح بحَفيفها مكنونات الحُفْرة . أما غُصّات وأوجاع هذا القلب فهي التي تتكلّم ، وهي التي تنسكب الآن مع قطرات الحِبْر السّوداء مُعْلِنَةً للنّور أشباح تلك المأساة التي مَثّلها الحُبُّ والجمال والموت .

فيا أصدقاءَ شبيبتي المنتشرين في بيروت ، إذا مَرَرْتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصَّنَوْبَر ادخلوها صامتين ، وسيروا ببُطء ؛ كيلا تُزْعِج أقدامُكم رُفاتَ [٣] الرّاقدين تحت أطباق الثّرَى ، وقفوا مُتَهيّبين بجانب قبر سلمى ، وحَيّوا عني التُّراب الذي ضَمّ جثمانها ، ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم :

« ها هُنا دُفِنَت آمال ذلك الفتى الذي نَفَتْه صروف [٤] الدّهر إلى ما وراء البحار . وها هنا توارَت أمانيه وانزَوَت أفراحه وغارت دموعه واضمَحَلّت

---

(١) الكنه : الجوهر والحقيقة .

(٢) تَخْفِر : تحرس . (٣) الرُّفات : الحطام .

(٤) الصُّروف : النّوائب والأحداث .

ابتساماته . وبين هذه المدافِن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السَّرْو والصَّفْصاف ، وفوق هذا القبر تُرَفْرِف روحه كل ليلة ، مُسْتَأْنِسَة بالذِّكرى ، مُرَدِّدة مع أشباح الوحشة ندبات الحُزْن والأسى ، نائحَة مع الغصون على صَبِيَّة كانت بالأمس نَغْمة شَجِيَّة بين شفتي الحياة ، فأصبحت اليوم سِرًّا صامتاً في صدر الأرض .»

أستحلفكم ، يا رِفاق الصِّبا ، بالنِّساء اللواتي أحبَبْتُهن قلوبُكم أن تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي ؛ فرُبَّ زَهْرة تلقونها على ضريح مَنْسِيٍّ تكون كقطرة النَّدى التي تَسْكُبها أجفان الصَّباح بين أوراق الوردة الذَّابِلَة .

* * *

الكآبة الخرساء

أنتم ، أيها الناس ، تذكرون فجر الشَّبيبَة ، فَرِحين باسترجاع رسومه ، مُتَأسِّفين على انقضائه ؛ أما أنا فأذكره مثلما يذكر الحُرُّ المعتوق جدرانَ سِجْنه وثقل قيوده . أنتم تدعون تلك السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبيًّا ، يَهْزأ [١] بمتاعب الدَّهر وهواجسه ، ويطير مُرَفْرِفًا فوق رءوس المشاغِل والهموم ، مثلما تجتاز النَّحْلة فوق المستنقعات الخبيثة، سائرة نحو البساتين المُزْهِرة . أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سِنِي الصِّبا سوى عهد آلام خَفِيَّة خرساء ، كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف في جوانبه ، وتتكاثر نامِيَة بنموه ، ولم تجد منفذاً تنصَرِف منه إلى عالم المعرفة ، حتى دخل إليه الحب وفتح أبوابه وأنار زواياه ؛ فالحب قد عَتَق لساني فتكلَّمت ، ومزَّق أجفاني فبكيتُ ، وفتح حنجرتي فتَنَهَّدت وشَكَوْتُ .

أنتم ، أيها الناس ، تذكرون الحقول والبساتين والسَّاحات وجوانب الشوارع التي رأت ألعابكم وسمعت هَمْسَ طُهْركم ، وأنا أيضاً أذكر تلك البُقْعَة الجميلة من شمال لبنان ، فما أغمضت عينيّ عن هذا المحيط إلّا ورأيت تلك الأودية المملوءة سِحْراً وهَيْبة ، وتلك الجبال المتعاليَة بالمجد والعظمة نحو العلاء ، ولا صَمَمْت أذنيّ عن ضجة هذا الاجتماع إلّا وسمعت خَرير تلك السواقي وحَفيف تلك الغصون .

ولكن هذه المحاسن التي أذكرها الآن وأشوقُ إليها شَوْقَ الرَّضيع إلى ذراعي أمه ، هي التي كانت تُعَذِّب روحي المسجونة في ظلمة الحَداثة مثلما يتعذَّب البازي[٢] بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب البُزاة تسبح حُرَّة في الخلاء الوسيع . وهي التي كانت تملأ صدري بأوجاع التَّأمُّل ومرارة التَّفكير ، وتنسج بأصابع الحَيْرة والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي ؛ فلم أذهب إلى البَرِيَّة إلّا وعدت منها كئيباً جاهلاً أسباب الكآبة ، ولا نظرت مساءً إلى الغيوم المتلَوِّنة بأشعة الشمس إلّا وشعرت بانقباض مُتْلِف ينمو لجهلي معاني الانقباض ، ولا سمعت تغريدة الشُّحْرور [٣] أو أغنية الغَدير إلّا وقفت حزيناً لجهلي موحِيات الحُزْن .

يقولون إن الغباوة مَهْد الخُلُوّ والخُلُوّ مَرْقَد الرَّاحة، وقد يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولَدون أمواتاً ويعيشون كالأجساد الهامِدة البارِدَة فوق التُّراب ، ولكن إذا كانت الغباوة العَمْياء قاطِنَة في جوار العواطف المسْتَيْقِظَة تكون الغباوة أقسى من الهاوية وأمَرّ من الموت . والصَّبِيُّ الحسَّاس الذي يشعر كثيراً ويعرف قليلاً هو أتعس المخلوقات أمام وجه الشَّمس؛ لأن نفسه تظل واقفة بين قُوَّتَيْن هائلتين مُتَبايِنَتَيْن ؛ قوَّة خَفِيَّة تُحَلِّق به في السَّحاب وتُريه محاسِن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوَّة ظاهرة تُقَيِّده بالأرض وتَغْمر بصيرته بالغُبار وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالِكة .

للكآبة أيادٍ حريرية الملامس قويَّة الأعصاب ،

(١) يَهْزأ : يستهين .

(٢) البازي : طير من الجوارح يصاد به ، وهو أنواع كثيرة ، وجمعها : بُزاة و بوازٍ .

(٣) الشُّحْرور : طائر أسود ، أكبر من العصفور ، حسن الصوت .

تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة ؛ فالوحدة حَليفة الكآبة كما أنها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصبة أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة بالزَّنبقة البيضاء عند خروجها من الكِمام [١] تَرتَعِش أمام النَّسيم ، وتَفتَح قلبها لأشعة الفجر ، وتضمّ أوراقها بمرور خيالات المساء ، فإنْ لم يكن للصبي من الملاهي ما يشغل فِكْرَته ، ومِن الرِّفاق مَنْ يشاركه في الأميال ، كانت الحياة أمامه كحَبْس ضيق ، لا يرى في جوانبه غير أنوال العناكب [٢] ، ولا يسمع مِنْ زواياه سوى دبيب الحشرات .

أما تلك الكآبة التي اتَّبعْتُ أيام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي إلى الملاهي ؛ لأنها كانت مُتوَفِّرة لديّ ، ولا عن افتقاري إلى الرِّفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل هي من أعراض عِلّة طبيعية في النَّفس ، كانت تُحبِّب إليَّ الوحدة والانفراد ، وتُميت في روحي الأميال إلى الملاهي والألعاب ، وتخلع عن كتِفَيَّ أجنحة الصِّبا ، وتجعلني أمام الوجود كحَوْض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغُيوم وخطوط الأغصان ؛ ولكنه لا يجد ممرًّا يسير فيه جدولاً مُتَرنِّماً إلى البحر .

هكذا كانت حياتي قبل أن أبلغ الثامنة عشرة ، فتلك السنة هي من ماضيَّ بمقام القِمَّة من الجبل ؛ لأنها أوقفتني متأمّلاً تجاه هذا العالم ، وأرتني سُبُل البَشَر ، ومُروج [٣] أميالهم ، وعَقَبات متاعبهم ، وكهوف شرائعهم وتقاليدهم .

في تلك السنة وُلِدْتُ ثانيَةً ، والمرء إن لم تَحبَل به الكآبة ويتمَخَّض به اليأس ، وتضعه المحبة في مهد الأحلام ، تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كِتاب الكِيان .

في تلك السَّنَة شاهدتُ ملائكة السَّماء تنظر إليَّ من وراء أجفان امرأة جميلة ، وفيها رأيت أبالِسَة الجحيم يَضجّون ويتراكضون في صدر رجل مجرم . ومن لا يشاهد الملائكة والشّياطين في محاسن الحياة ومكروهاتها ، يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف .

* * *

يَدُ القَضاء

كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ، وكان نَيْسان [٤] قد أنْبت الأزهار والأعشاب ؛ فظهرت في بساتين المدينة كأنها أسرار تعلنها الأرض للسَّماء ، وكانت أشجار اللَّوز والتُّفّاح قد اكتست بحُلل بيضاء مُعَطَّرة ، فبانت بين المنازل كأنها حوريّات بملابس ناصعة قد بعثت بهنّ الطبيعة عرائس وزوجات لأبناء الشِّعْر والخيال .

الربيع جميل في كل مكان ، ولكنه أكثر من جميل في سوريا . الربيع روح إله غير معروف تَتَطَوَّف [٥] في الأرض مسرعة ، وعندما تبلغ سوريا تسير ببطء متلَفِّتة إلى الوراء ، مُستَأنِسَة بأرواح الملوك والأنبياء الحائمَة في الفضاء ، مُتَرَنِّمَة مع جداول اليهودية بأناشيد سليمان الخالدة ، مُرَدِّدة مع أرْز لبنان تَذْكارات المجد القديم .

وبيروت في الربيع أجمل منها فيما بقي من الفصول ؛ لأنها تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصَّيف ، وتصبح بين أمطار الأول وحرارة الثاني كصبِيَّة حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثم جلست على ضفَّته تُجفِّف جسدها بأشعة الشمس .

ففي يوم من تلك الأيام المفْعَمَة بأنفاس نَيْسان المُسْكِرَة وابتساماته المحْيِيَة ، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً عن ضَجّة الاجتماع . وبينما نحن

(١) الكِمام : جمع كِمّ ، وهو الغلاف الذي يحيط بالزهر أو الطلع ؛ فيستره ، ثم ينشق عنه .

(٢) العناكب : جمع عنكبوت .

(٣) مروج : جمع مَرْج ؛ وهي أراض واسعة ذات نبات ومرعى .

(٤) نَيْسان : أبريل . (٥) تَتطَوَّف : تدور .

نتحدث راسِمين بالكلام خطوط آمالنا وأمانينا ، دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستّين من عمره ، تدل ملابسه البسيطة وملامحه المتجعّدة على الهيبة والوقار ؛ فوقفت احتراماً .

وقُبَيْل أن أصافحه مُسَلِّماً تقدّم صديقي وقال : « حضرته فارس أفندي كرامة .» ثم لفظ اسمي مشفوعاً بكلمة ثناء ، فأحدق بي الشيخ هُنَيْهَة لامساً بأطراف أصابعه جبهته العالية المُكَلَّلة بشعر أبيض كالثّلج ، كأنه يريد أن يسترجع إلى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ، ثم ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب مِنّي قائلاً :

« أنت ابن صديق حبيب قديم صَرَفت ربيع العمر بِرُفْقَته ، فما أعظم فرحي بمرآك ، وكم أنا مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك !»

فتأثّرت لكلامه وشعرت بجاذب خَفِيّ يُدْنيني إليه بطُمأنينَة ، مثلما تقود الغريزة العصفور إلى وَكْره قُبَيْل مجيء العاصفة . ولما جلسنا أخذ يَقُصّ علينا أحاديث صداقته لوالدي ، مُتَذَكِّراً أيام الشّباب التي صرفها بقربه ، تالياً على مسامعنا أخبار أعوام قضت فكَفَّنها الدّهْر بقلبه وقَبَرَها [١] في صدره . إن الشيوخ يرجعون بالفِكْر إلى أيام شبابهم رجوع الغريب المشتاق إلى مسقط رأسه ، ويميلون إلى سرد حكايات الصِّبا مَيْل الشاعر إلى تنغيم أبلغ قصائده ؛ فهم يعيشون بالرّوح في زوايا الماضي الغابر ؛ لأن الحاضر يمرّ بهم ولا يلتفت ، والمستقبل يبدو لأعينهم مُتّشِحاً بضباب الزّوال وظُلْمة القبر .

وبعد ساعة مرّت بين الأحاديث والتّذْكارات مرورَ ظِلّ الأغصان على الأعشاب ، وقف فارس كرامة للانصراف ، ولما دنوت منه مُوَدِّعاً أخذ يدي بيمينه و وضع شماله على كتفي قائلا :

« أنا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ، ولكنني أرجو أن أستعيض عن بِعاده الطويل بزياراتك الكثيرة .»

فانحنيت شاكراً واعداً بتتميم ما يجب على الابن نحو صديق أبيه .

وَلَمّا خرج فارس كرامة استَزَدْت صاحبي من أخباره ، فقال بلهجة يُساوِرُها [٢] التّحَذُّر :

« لا أعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثّروة فاضلاً والفضيلة مُثْرِيًا . وهو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل أن يُلامسوا بالأذى نَفْس مخلوق . ولكنّ هؤلاء الرجال يكونون غالباً تعساءَ مظلومين ؛ لأنهم يجهلون سبل الاحتيال التي تُنْقذهم من مَكْر الناس وخُبْثهم . ولفارس كرامة ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة ، وهي تُشابهه بالأخلاق ، وليس بين النساء مَنْ تماثلها رِقّةً وجمالاً – وهي أيضاً ستكون تاعسة لأن ثروة والدها الطّائلة توقفها الآن على شفير [٣] هاوِيَة مظلمة مخيفة .»

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على مُحَيّاه لوائح [٤] الغَمّ والأسف ثم زاد قائلاً :

« فارس كرامة شيخ شريف القلب ، كريم الصِّفات ، ولكنه ضعيف الإرادة ، يقوده رِياء النّاس كالأعمى ، وتوقفه مطامعهم كالأخرس . أما ابنته فتخضع مُمْتَثِلَة لإرادته الواهنة ، على رغم كل ما في روحها الكبيرة من القُوى والمواهب ، وهذا هو السِّرّ الكَرِيه الكامِن وراء حياة الوالد وابنته ، وقد فهِم هذا السِّر رجل يأتَلِف في شخصه الطمع بالرِّياء ، والخُبْث بالدّهاء . وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحُه بظِلّ الإنجيل ، فتظهر للناس كالفضائل، وهو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب ، تخافه الأرواح والأجساد ، وتَخِرّ لديه ساجِدَة مثلما تنحني رقاب الأنعام أمام الجزّار . ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه عناصر المفاسِد والمكارِه ، مثلما تَتَقَلّب العقارب والأفاعي على جوانب الكهوف والمستَنْقَعات .

(١) قَبَرَها : دفنها .

(٢) يُساوِرُها : يخالطها . (٣) شفير : حافّة .

(٤) لوائح : علامات وظواهر .

« وليس بعيداً اليومُ الذي ينتصب فيه المطران بملابسه الحِبْرِيَّة (١) جاعلاً ابن أخيه عن يمينه وابنة فارس كرامة عن شماله ، رافعاً بيده الأثيمة إكليل الزواج فوق رأسيهما ، مُقَيِّداً بسلاسل التَّكهين والتَّعْزيم (٢) جسداً طاهراً بجيفة مُنْتِنَة ، جامعاً في قبضة الشَّريعة الفاسدة روحاً سماويَّة بذات تُرابِيَّة ، واضعاً قلبَ النّهار في صدر الليل . هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن عن فارس كرامة وابنته ؛ فلا تَسَلْني أكثر من ذلك ؛ لأن ذِكْرَ المصيبة يُدْنيها مثلما يُقَرِّب الموتَ الخوفُ من الموت . »

وحوَّل صديقي وجهَه ونظر من النّافذة إلى الفضاء ، كأنه يبحث عن أسرار الأيام والليالي بين دقائق الأثير . فقمت إذ ذاك من مكاني ، ولما أخذت يده مُوَدِّعاً قلت له :

« غداً أزور فارس كرامة ؛ قياماً بوعدي له ، واحتراماً للذكريات التي أبقتها صداقته لوالدي . »

فبُهِت (٣) بي الشّابُّ دقيقة وقد تغيّرت ملامحه ، كأن كلماتي القليلة البسيطة قد أَوْحَتْ إليه فكراً جديداً هائلاً ، ثم نظر في عينيَّ نظرة طويلة غريبة ، نظرة مَحَبَّة وشَفَقَة وخوف ، نظرة نَبِيٍّ يرى في أعماق الأرواح ما لا تعرفه الأرواح ، ثم ارتعشت شفتاه قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً ، فتركته وسِرْت نحو الباب بأفكار مُتَضَعْضِعَة . وقُبَيْل أن ألتفت إلى الوراء رأيت عينيه ما زالتا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة — تلك النظرة التي لم أفهم معانيها حتى عُتِقَت نفسي من عالم المقاييس والكَمِّيَّة ، وطارت إلى مسارح الملأ الأعلى ، حيث تتفاهم القلوب بالنَّظرات وتنمو الأرواح بالتَّفاهم .

* * *

(١) الحِبْرِيَّة : الحبر (بكسر الحاء وفتحها) واحد الأحبار ، وهم رؤساء الأديان .

(٢) التَّكهين : نسبة إلى عمل الكاهن ، والتعزيم : قراءة الرُّقى .

(٣) بُهِت : دُهش وتحيّر .

في باب الهَيْكل

وبعد أيام وقد مَلِلْتُ الوحدة ، وتَعِبتْ أجفاني من النَّظر إلى أوجُه الكُتُب العابِسَة ، عَلَوتُ مَرْكَبَة طالباً منزل فارس كرامة ، حتى إذا ما بلغتْ بي غابة الصَّنوبر حيث يذهب القوم للتَّنَزُّه ، حَوَّل السائق وجهَةَ فَرَسَيْه عن الطريق العمومية فسارا خَبَباً (٤) على مَمَرٍّ تظلِّله أشجار الصَّفْصاف ، وتتمايل على جانبيه الأعشاب والدَّوالي المُتَعَرِّشة ، وأزاهرُ نَيْسان المبتسِمَة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزُّمرد وصفراء كالذَّهب . وبعد دقيقة وقفت المَرْكَبَة أمام منزل منفَرِد ، تحيط به حديقة مُترامِيَة الأطراف ، تتعانق في جوانبها الأغصان وتُعَطِّر فضاءها رائحة الورد والفُلّ والياسَمين .

ما سِرْتُ بضع خُطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس كرامة في باب المنزل خارجاً للقائي ، كأن هدير المركبة في تلك البُقْعَة المنفرِدَة قد أعلن له قدومي ، فهشَّ مُتَأَهِّلاً (٥) وقادني مُتَرَحِّباً إلى داخل الدار . ونَظير والدٍ مُشْتاق أجلسني بقربه يُحَدِّثني مُسْتَفْسِراً عن ماضِيَّ ، مُسْتَطْلِعاً مقاصدي في مستقبلي ، فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفْعَمَة بنَغْمَة الأحلام والأماني ، التي يترَنَّم بها الفتيان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطئ العمل حيث الجهاد والنِّزاع .

لِلشَّبيبة أجنحة ذات ريش من الشِّعْر وأعصاب من الأوهام ، ترتفع بالفتيان إلى ما وراء الغيوم ؛ فيرون الكيان مغموراً بأشعة مُتَلَوِّنة بألوان قَوْس قُزَح ، ويسمعون الحياة مُرَتِّلة أغاني المجد والعظمة . ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تُمَزِّقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة ، وعالم الحقيقة مِرْآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مُصَغَّرَة مُشَوَّهَة .

في تلك الدَّقيقة ظهرت من ستائر الباب

(٤) سارا خَبَباً : مسرعَيْن .

(٥) مُتَأَهِّلاً : قائلاً : أهلاً وسهلاً .

المخْمَليَّة صبيَّةً ترتدي ثوباً من الحرير الأبيض النّاعم، ومشت نحوي ببطء ، فوقفت و وقف الشيخ قائلاً : « هذه ابنتي سلمى .»

وبعد أن لفظ اسمي شَفَعَه بقوله : « إن ذاك الصّديق القديم الذي حَجَبته عني الأيام قد عادت وأبانته لي بشخص ابنه ؛ فأنا أراه الآن ولا أراه .»

فتقدّمت الصَّبيَّةُ إليّ وأحدقت بعينيّ هُنَيْهة ، كأنها تريد أن تستنطقهما عن حقيقة أمري ، وتعلم منهما أسباب مجيئي إلى ذلك المكان ، ثم أخذت يدي بيد تُضارع زَنْبَقَةَ الحقْل بياضاً ونعومة ، فأحسَسْتُ عند مُلامَسَة الأكُفّ بعاطفة غريبة جديدة أشبه شيء بالفِكْر الشِّعري عند ابتداء تكوينه في مُخيِّلة الكاتب .

جلسنا جميعاً ساكتين ، كأن سلمى قد أدخلت معها إلى تلك الغرفة روحاً علوية توعِزُ الصَّمت والتَّهيُّب ، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مُبْتَسِمَة :

« كثيراً ما حدَّثني والدي عن أبيك ، مُعيداً على مسمعي حكايات شبابهما ، فإن كان والدك قد أسمعك بتلك الوقائع لا [١] يكون هذا اللقاء هو الأول بيننا .»

فسُرَّ الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثم قال : « إن سلمى روحية الأميال والمذاهب ، فهي ترى جميع الأشياء سابحة في عالم النَّفْس .»

وهكذا عاد فارس كرامة إلى محادثتي باهتمام كُلّيّ و رِقّة مُتَناهِيَة ، كأنه وجد فيّ سِرًّا سِحْرِيًّا يُرْجِعُه على أجنحة الذكرى إلى ربيع أيامه الغابِرَة .

كان ذلك الشيخ يُحَدِّق بي مُسْتَرْجِعاً أشباح شبابه ، وأنا أتأمَّله حالمًا بمستقبلي . كان ينظر إليّ مثلما تُخَيِّم أغصان الشجرة العالية المملوءة بمآتي الفصول فوق غَرْسَة صغيرة مُفْعَمَة بعَزْم هاجع [٢] وحياة عمياء . شجرة مُسِنَّة راسخة الأعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ، و وقفت أمام عواصف الدّهر وأنوائه ، وغَرْسَة ضعيفة ليِّنة لم تَرَ غير الرَّبيع ، ولم ترتعش إلّا بمرور نسيم الفجر . أما سلمى فكانت ساكتة تنظر إليّ تارة وطوراً إلى أبيها ، كأنها تقرأ في وجْهَيْنا أوّل فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها .

قَضى ذلك النّهار مُتَنَهِّداً أنفاسه بين تلك الحدائق والبساتين ، وغابت الشمس تاركة خيال قُبْلَة صفراء على قمَم لبنان المتعالِية قُبالَةَ ذلك المنزل ، وفارس كرامة يتلو عليّ أخباره فيذهلني ، وأنا أترنَّم أمامه بأغاني شبيبتي فأطربه . وسلمى جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينيها الحزينتين ولا تتحرك ، وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم ، كأنها عرفت أن للجمال لغة سماوية تترَفَّع عن الأصوات والمقاطيع [٣] التي تُحْدِثُها الشِّفاه والألسنة – لغة خالدة تضم إليها جميع أنغام البشر ، وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي إلى أعماقها وتجعلها سكوتاً أبديًّا .

إن الجمال سِرٌّ تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته ، أما أفكارنا فتقف أمامه محتارة محاولة تحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع . هو سيال خاف عن العين تتموَّج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور . الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قُدْس أقداس النفس وتنير خارج الجسد ، مثلما تَنْبَثِق الحياة من أعماق النَّواة وتكسب الزهرة لوناً وعطراً . هو تفاهم كُلّيّ بين الرجل والمرأة يَتِمُّ بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك المَيْل المترَفِّع عن جميع الأميال – ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حبًّا .

فهل فهمت روحي روحَ سلمى في عَشِيَّة ذلك النهار فجعلني التفاهم أن أراها أجمل امرأة أمام الشمس ، أم هي سَكْرَة الشَّبيبة التي تجعلنا نتخيَّل رسوماً وأشباحاً لا حقيقة لها ؟ هل أعمتني الفُتُوَّة فتوهمت الأشعة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والرِّقَّة في قَدِّها ، أم هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرِّقَّة التي فتَّحت عينيّ لتريني أفراحَ الحبِّ وأحزانه ؟

(١) المقام للفاء لأن جواب الشرط منفي . (٢) هاجع : نائم . (٣) المقاطيع : المقاطع .

لا أدري ، ولكني أعلم بأنني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة – عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رَفْرَفَة الروح على وجه الغَمْر [١] قبل أن تبتدئ الدُّهور . ومن تلك العاطفة قد تولّدت سعادتي وتعاستي ، مثلما ظهرت وتناسَخت الكائنات بإرادة ذلك الروح .

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى للمرة الأولى ، وهكذا شاءت السَّماء وعَتَقتني على حين غَفْلة من عبودية الحَيْرة والحداثة لتُسَيِّرني حرًّا في موكب المَحبَّة ؛ فالمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم ؛ لأنها ترفع النفس إلى مقام سام لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ، ولا تَسود عليه نواميس الطبيعة وأحكامها .

ولما وقفت للانصراف اقترب مِنّي فارس كرامة وقال بصوت تعانِقُهُ رَنَّة الإخلاص :

« الآن وقد عرفت الطريق إلى هذا المنزل يجب أن تأتي إليه شاعراً بالثقة التي تقودك إلى بيت أبيك ، وأن تحتَسبني وسلمى كوالد وأخت لك . أ ليس كذلك يا سلمى ؟»

فأحنت سلمى رأسها إيجاباً ثم نظرت إليَّ نظرة غريب ضائع وجد رفيقاً يعرفُه .

إن تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامة هي النَّغْمة الأولى التي أوقفتني بجانب ابنته أمام عرش المحبة ، هي استهلال الأغنية السماوية التي انتهت بالنَّدْب والرِّثاء ، هي القوَّة التي شَجَّعَت روحينا فاقتربنا من النّور والنّار ، هي الإناء الذي شربنا فيه الكَوْثر [٢] والعَلْقم . [٣]

وخرجْتُ فشيَّعني الشيخ إلى أطراف الحديقة فودعتهما وقلبي يخفق في داخلي ، مثلما ترتعش شَفَتا العطشان بمُلامَسة حافَة الكأس .

* * *

(١) الغَمْر : الماء الكثير . (٢) الكَوْثر : الشراب العذب .
(٣) العلقم : كل شيء مُرّ .

الشُّعْلة البيضاء

وانقضى نَيْسان وأنا أزور منزل فارس كرامة ، وألتقي بسلمى ، وأجلس قُبالها في تلك الحديقة متأمِّلاً محاسنها ، مُعْجَباً بمواهبها ، مُصْغِياً لسكينة كآبتها ، شاعراً بوجود أيادٍ خَفِيَّة تجتذبني إليها . فكل زيارة كانت تُبين لي معنى جديداً من معاني جمالها وسِرًّا علويًّا من أسرار روحها ، حتى أصبحت أمام عينيَّ كتاباً أقرأ سطوره ، وأستَظْهر آياته ، وأترنَّم بنَغْمته ، ولا أستطيع الوصول إلى نهايته .

إن المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النَّفس مشفوعاً بجمال الجَسَد هي حقيقة ظاهرة غامضة ، نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطُّهْر ، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضَباب الحَيْرة والالتباس .

وسلمى كرامة كانت جميلة النَّفْس والجسد ؛ فكيف أصِفها لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل أجنحة الموت أن يستحضر تغريدة البُلْبل وهمس الوردة وتنهّدة الغدير ؟ أ يقدر الأثير المثقل بالقيود أن يلاحق هبوط نسمات الفجر ؟ ولكن أ ليس السكوت أصعب من الكلام ؟ وهل يمنعني التَّهيُّب عن إظهار خيال من خيالات سلمى بالألفاظ الواهية ، إذا كنت لا أستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذَّهَب ؟ إن الجائع السائر في الصَّحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السَّماء لا تُمْطِرُه المنَّ والسَّلْوى . [٤]

كانت سلمى نحيلة الجسم ، تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كأشعة قَمَر دخلت من النافذة . وكانت حركاتها بطيئة متوازِنَة ، أشبه شيء بمقاطيع الألحان الإصفهانية ، وصوتها منخفضاً حلواً تقطعه التَّنهُّدات فينسكب من بين شفتيها القِرْمِزِيَّتَيْن [٥]

(٤) المن : ندى ينزل على الشجر ، ويجف كالصمغ ، وهو حلو يؤكل . السلوى : جمعها سَلْواة ، طير السُّماني وهو من رتبة الدجاجيات . (٥) القِرْمزيّتان : الحمراوان .

مثلما تتساقط قطرات النَّدى عن تيجان الزُّهور بمرور تَمَوُّجات الهواء . و وجهها – ومن يا تُرى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامة ؟ بأية ألفاظ نَقْدِر أن نصوِّر وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس محجوباً بنِقاب من الاصفرار الشَّفَّاف ؟ بأية لغة نَقْدِر أن نتكلَّم عن ملامح تُعْلِن في كل دقيقة سِرًّا من أسرار النَّفس الكبيرة المتألِّمة في داخل الجسد ، وتُذَكِّر الناظرين إليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم ؟

إن الجَمال في وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التي وضعها البَشَر للجَمال ، بل كان غريباً كالحُلْم أو كالرؤيا أو كفِكْر علوي ، لا يقاس ولا يُحَدُّ ، ولا يُنْسَخ بريشة المصوِّر ، ولا يَتَجَسَّم بِرُخام الحَفَّار . جَمال سلمى لم يكن في شَعْرها الذَّهَبي ، بل في هالَة الطُّهْر المحيطة به ، ولم يكن في عينيها الكبيرتين ، بل في النور المنبَعِث منهما ، ولا في شفتيها الورديتين ، بل في الحلاوة السَّائلة عليهما ، ولا في عنقها العاجِيّ ، بل في كيفية انحنائه قليلاً إلى الأمام . جَمال سلمى لم يكن في كمال جسدها ، بل في نَبالة روحها الشَّبيهة بشعلة بيضاء مُتَّقِدَة سابحة بين الأرض واللانهاية . جَمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشِّعْري الذي نشاهد أشباحه في القصائد السَّامية والرُّسوم والأنغام الخالدة، وأصحاب النبوغ تعساء ، مهما تسامت أرواحهم تظل مُكْتَنَفَة بغلاف من الدُّموع .

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها كان موسيقيًّا ينتقل بجليسها إلى مسارح الأحلام البعيدة ، ويجعله [١] يصغي لنبضات قلبه ، ويرى خيالات أفكاره وعواطفه منتصبة أمام عينيه .

أما الصِّفة التي كانت تُعانق مزايا سلمى وتُساوِرُ أخلاقها فهي الكآبة العميقة الجارِحَة ، فالكآبة كانت وشاحاً معنوياً ترتديه فتزيد محاسن جسدها هَيْبة وغرابة ، وتظهر أشعة نَفْسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مُزْهِرَة من وراء ضباب الصَّباح .

وقد أوجدت الكآبة بين روحي و روح سلمى صِلَة المشابَهة ، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه ، ويسمع بصوته صدى مُخَبَّآت صدره ، فكأن الآلهة قد جعلت كل واحد منّا نصفاً للآخر ، يلتصق به بالطُّهر فيصير إنساناً كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه .

إن النَّفْس الحزينة المتألِّمة تجد راحة بانضمامها إلى نفس أخرى تماثلها بالشُّعور وتشاركها بالإحساس ، مثلما يَسْتأنِس الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنيهما . فالقلوب التي تُدْنيها أوجاع الكآبة بعضها مع بعض لا تُفَرِّقُها بهجة الأفراح وبَهْرَجَتُها [٢] ؛ فرابطة الحُزْن أقوى في النُّفوس من روابط الغِبْطَة والسُّرور ، والحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً وجميلاً وخالداً .

* * *

العاصفة

وبعد أيام دعاني فارس كرامة إلى تناول العشاء في منزله ، فذهبت ونفسي جائعة إلى ذلك الخبز العُلوي الذي وضعته السَّماء بين يدي سلمى . ذلك الخُبْز الرّوحي الذي نَلْتَهِمُه بأفواه أفئدتنا فنزداد جوعاً . ذلك الخبز السِّحري الذي ذاق طعمه قَيْس العربي ، ودانتي الطَّلياني ، وسافو اليونانية فالتهبت أحشاؤهم وذابت قلوبهم . ذلك الخبز الذي عَجَنَتْه الآلهة بحلاوة القُبَل ومرارة الدموع ، وأعدَّته مأكلاً للنفوس الحَسَّاسَة المسْتَيْقِظة ؛ لتُفْرِحها بطعمه وتُعَذِّبها بتأثيره .

ولما بلغتُ المنزل وجدتُ سلمى جالسة على مقعد خشبي في زاوية من الحديقة ، وقد أسندت رأسها إلى عَمُد شجرة ، فبانت بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تَخْفِر ذلك المكان ، فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسي

(١) في الأصل : يجعله أن يصغي .

(٢) بَهْرَجَتُها : زينتها .

مُتَهيِّب أمام النار المقدّسة . ولما حاولتُ الكلام وجدت لساني منعقداً وشفتيَّ جامدَتَيْن ، فاستأنست بالسُّكوت ؛ لأن الشُّعور العميق غير المتناهي يَفْقِدُ شيئًا من خاصّتِه المعنوية عندما يتجَسَّم بالألفاظ المحدودة . ولكنني شعرت بأن سلمى كانت تسمع في السّكينة مُناجاة قلبي المتواصلة ، وتشاهد في عينيَّ أشباح نفسي المرتعشة .

وبعد هُنَيْهة خرج فارس كرامة إلى الحديقة ومشى نحونا مُرَحِّبًا بي كعادته ، باسطاً يده إليَّ كأنه يريد أن يبارك بها ذلك السِّرّ الخفيَّ الذي يربط روحي بروح ابنته ، ثم قال مُبْتَسِماً :

« هَلُمّا ، يا ولديَّ ، إلى العَشاء فالطعام ينتظرنا.»

فقُمْنا وتَبِعْناه ، وسلمى تنظر إليَّ من وراء أجفان مَكْحولة بالرِّقة والانعطاف ، كأن لفظه « يا ولديَّ » قد أيقظت في داخلها شعوراً جديداً عَذْبًا ، يكْتَنِف مَحَبَّتها لي مثلما تحتضن الأم طفلها .

جلسنا إلى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث . جلسنا في تلك الغرفة نَتَلَذَّذ بألوان الطّعام الشّهية وأنواع الخمور المعتّقة ، وأرواحنا تسبح – على غير معرفة مِنّا – في عالم بعيد عن هذا العالم ، وتحلم بمآتي المستقبل ، وتتأهّب للوقوف أمام مخاوفه وأهواله .

ثلاثة أشخاص تختلف أفكارهم باختلاف مقاصِدهم من الحياة ، وتتفق سَرائِرُهم باتّفاق قلوبهم بالمودة والمحبة . ثلاثة من الضُّعفاء الأبرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً ، وهذه هي المأساة المُسْتَتِبَّة على مرسح النَّفس : شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يَحْفِل [1] بغير سعادتها ؛ وصَبِيَّة في العشرين من عمرها ، ترى المستقبل قريباً بعيداً ، وتحدِّق به لتِرى ما يخبئ لها من الغِبْطة والشّقاء ؛ وفتى كثير الأحلام والهواجس ، لم يذق بعد خمر الحياة ولا خَلّها ، يُحرِّك جناحيه ليطير سابحاً في فضاء المحبة والمعرفة ، ولكنه لا يستطيع النهوض لضَعْفه . ثلاثة جالسون حول مائدة أنيقة في منزل مُنْفَرِد عن المدينة ، تُخيِّم عليه سكينة الدُّجى[2] وتحدِّق به عيون السَّماء . ثلاثة يأكلون ويشربون ، وفي أعماق صحونهم وكؤوسهم قد أخفى القَدَرُ المرارةَ والأشواك .

ولم ننتهِ من العشاء حتى دخلت علينا إحدى الخادمات وخاطبت فارس كرامة قائلة : « في الباب رجل يطلب مقابلتك ، يا سيدي .»

فسألها بسرعة : « من هو هذا الرجل ؟»

فأجابت « أظنُّه خادم المطران ، يا سيدي .»

فسكتَ دقيقة وأحدق بعيني ابنته نَظير نَبِيّ ينظر إلى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار ، ثم التفت نحو الخادمة وقال : « دعيه يدخل .»

فعادت الخادمة وبعد هُنَيْهة ظهر رجل بأثواب مُزَرْكَشَة وشارب معقوف الطَّرَفَيْن ، فسَلَّم مُنْحَنِيًا وخاطب فارس كرامه قائلاً :

« قد بعثني سيادة المطران بمَرْكَبَته الخصوصية ؛ لأطلب إليك أن تتكرّم بالذّهاب إليه ، فهو يريد أن يُباحِثك بأمور ذات أهمية .»

فانتصب الشيخ وقد تغيَّرت ملامحه ، وانحجبت بشاشة وجهه وراء نِقاب من التّأمُّل والتفكير ، ثم اقترب مِنّي وقال بصوت تُساوره الرِّقّة والحلاوة :

« أرجو أن أعود وألقاك ها هنا ؛ فسلمى ستجد بك مؤنساً يُبْعِد بأحاديثه وحشة الليل ، ويُزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد .»

ثم التفت نحو ابنته وزاد مُبْتَسِماً : « أ ليس كذلك ، يا سلمى ؟»

فحنت الصبية رأسها وقد توَرَّدت وجنتاها قليلاً ، وبصوت يُضارِع نَغْمَةَ النّاي رِقّةً قالت : « سوف أجهد النَّفْس لكي أجعل ضيفنا مسروراً ، يا والدي .»

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران ، وظلّت سلمى واقفة تنظر من النّافذة نحو الطريق حتى اختفت المرْكَبَة عن بصرها وراء ستائر الظلام . واضمَحَلّ ارتجاج الدَّواليب [3] بتباعُد المسافة ، وتشرَّب السُّكون

(١) يَحْفِل : يهتم .

(٢) الدُّجى : سواد الليل . (٣) الدَّواليب : إطارات العربة .

فرقعة (١) سنابك (٢) الخيل ، ثم جلست قُبالتي على مقعد مُوَشَّى بنسيج من الحرير الأخضر ، فبانت بأثوابها الناصعة كزنبقة لَوَتْ قامتها نَسمات الصَّباح على بساط من الأعشاب .

كذا شاءت السَّماء فخلوت بسلمى ليلاً في منزل منفرد ، تَخفِرُه الأشجار ، وتَغْمُره السَّكينَة ، وتسير في جوانبه خيالات الحب والطهر والجمال .

ومرَّت دقائقُ وكلانا صامت حائر مُفكِّرٌ (٣) ، يترقَّب الآخر ليبدأ بالكلام . ولكن هل هو الكلام الذي يُحْدِث التَّفاهم بين الأرواح المتحابَّة ؟ هل هي الأصوات والمقاطيع الخارجة من الشِّفاه والألسنة التي تقرِّب بين القلوب والعقول ؟ أ فلا يوجد شيء أسمى ممَّا تلِدُه الأفواه ، وأطهر مِمَّا تهتز به أوتار الحناجر ؟ أ ليست هي السَّكينَة التي تحمل شعاع النفس إلى النفس ، وتنقل هَمْس القلب إلى القلب ؟ أ ليست هي السَّكينَة التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود ، مُقْتَرِبين من الملأ الأعلى ، شاعِرين بأن أجسادنا لا تفوق السُّجون الضيِّقة ، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد ؟

ونظرت سلمى إليَّ وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ، ثم قالت بهدوء سِحْرِيّ : « تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين الأشجار ؛ لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل .»

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً : « أ ليس الأفضل أن نبقى ههنا يا سلمى حتى يطلع القمر ويُنير الحديقة ؟ أمَّا الآن فالظلام يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً .»

فأجابت : « إذا حَجَب الظلام الأشجار والرَّياحين من العين ، فالظلام لا يحجب الحبَّ عن النفس .»

قالت هذه الكلمات بلَهْجة غريبة ، ثم حوَّلت عينيها ونظرت نحو النافذة فبقيت أنا صامتاً مُفكِّراً بكلماتها ، مصوِّراً لكل مقطع معنى ، راسماً لكل معنى حقيقة . ثم عادت وأحدقت بي كأنها ندمت على ما قالت ، فحاولت استرجاع كلماتها من أذني بسحر أجفانها ، ولكن سحر تلك الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلَّا ليعيدها إلى أعماق صدري أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً ، وليُبْقيها هناك ملتصِقَة بقلبي مُتَمَوِّجَة مع عواطفي إلى آخر الحياة .

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولَّد من فِكْر واحد أو من حاسَّة واحدة في داخل الإنسان . كل ما نراه اليوم من أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فِكْرًا خَفِيًّا في عاقِلَة (٤) رجل أو عاطفة لطيفة في صدر امرأة .

الثورات الهائلة التي أجرت الدماء كالسَّواقي وجعلت الحرِّيَّة تُعْبَد كالآلهة كانت فكراً خياليًّا مُرْتَعِشاً بين تلافيف (٥) دماغ رجل فرد عائش بين ألوف من الرجال . الحروب الموجِعَة التي ثَلَّت (٦) العروش وخَرَّبَتِ الممالك كانت خاطراً بتمايل في رأس رجل واحد . التَّعاليم السامية التي غَيَّرت مسير الحياة البشرية كانت ميلاً شِعْرِيًّا في نفس رجل واحد مُنْفَصِل بنبوغه عن محيطه .

فِكْرٌ واحد أقام الأهرام ، وعاطفة واحدة خرَّبت طرواده ، وخاطِرٌ واحد أوجد مجد الإسلام ، وكلِمَة واحدة أحرقت مكتبة الإسكندرية . فِكْرٌ واحد يجيئك في سَكينة الليل ويسير بك إلى المجد أو إلى الجنون . نَظْرَةٌ واحدة من أطراف أجفان امرأة تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم . كلِمَةٌ واحدة تخرج من بين شفتي رجل تُصَيِّرك غنيًّا بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى .

كلمة واحدة لَفَظَتْها سلمى كرامة في تلك الليلة الهادئة أوقفتني بين ماضيَّ ومستقبلي وقوف سفينة بين لُجَّة (٧) البحار وطبقات الفضاء . كلمة واحدة مَعْنَوِيَّة قد أيقظتني من سبات الحداثة والخُلُوّ وسارت بأيامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب ،

---

(١) في الأصل : حرتقة ، ولعلها تحريف لكلمة فرقعة أو غيرها من الكلمات الشبيهة . (٢) السَّنابك : أطراف الحوافر .
(٣) في الأصل : مفتكر .
(٤) عاقِلَة : قوة العقل ، والمقصود : العقل .
(٥) التَّلافيف : ما تلفَّف والتوى بعضه على بعض .
(٦) ثَلَّت : أهلكت وهدمت . (٧) اللُّجَّة : معظم الماء .

حيث الحياة والموت .

خرجنا إلى الحديقة ، وسِرْنا بين الأشجار شاعرين بأصابع النَّسيم الخفيَّة تلامس وجْهَيْنا وقامات الأزهار والأعشاب اللَّدِنَة تتمايل بين أقدامنا ، حتى إذا ما بلغنا شجرة الياسَمين جلسنا صامتين على ذلك المقعد الخشبي ، نسمع تنفُّس الطبيعة النائمة ونكشف بحلاوة التَّنَهُّد خفايا صَدْرَيْنا أمام عيون السَّماء النَّاظرة إلينا من وراء ازْرِقاق السَّماء .

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صِنِّين [١] وغَمَر بنوره تلك الرَّوابي والشواطئ ، فظهرت القُرى على أكتاف الأودية كأنها قد انبثقت من اللاشيء ، وبانَ لبنان جميعه من تحت تلك الأشعة الفِضيَّة كأنه فتى مُتَّكِئ على ساعده تحت نقاب لطيف ، يُخْفي أعضاءه ولا يخفيها .

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي ، قد اضمَحَلَّت حقيقته بذهاب داود وسليمان والأنبياء ، مثلما انحجبت جَنَّة عَدْن بسقوط آدم وحواء . هو لفظة شعرية لا اسم لجبل ، لفظة ترمز عن عاطفة في النَّفس ، وتستحضر إلى الفكْر رسوم غابات من الأرْز يفوح منها العطر والبخور ، وأبراج من النُّحاس والرُّخام تَتَعالى بالمجد والعظمة ، وأسراب من الغزْلان تَتَهادى بين الطُّلول [٢] والأودية . وأنا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فِكْر شعري خيالي مُنْتَصِب كالحُلْم بين اليقظة واليقظة .

كذا تتغيَّر الأشياء أمام أعيننا بتغيير عواطفنا ، وهكذا نتوهَّم الأشياء مُتَّشِحَة بالسحر والجمال ، عندما لا يكون السِّحر والجمال إلَّا في نفوسنا .

والتفتت إليَّ سلمى وقد غمر نورُ القمر وجهها وعنقها ومِعْصَمَيْها فبانت كَتِمثال من العاج نَحَتَتْه أصابع مُتَعَبِّد لعشتروت [٣] ربَّة الحُسْن والمحبَّة : « لماذا لا تتكلَّم ؟ لماذا لا تحدِّثني عن ماضي حياتك ؟»

فنظرت إلى عينيها المنيرَتَيْن ، ومِثْل أخرس فاجَأَ النُّطْقُ شَفَتَيْه أجبتها قائلا : « أ لم تسمعيني مُتَكَلِّماً مُذْ جئت إلى هذا المكان ؟ أ وَ لم تسمعي كل ما قلتُه مُذْ خرجنا إلى هذه الحديقة ؟ إن نفسك التي تسمع هَمْسَ الأزهار وأغاني السَّكينة تستطيع أن تسمع صُراخَ روحي وضَجيجَ قلبي .»

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت مُتَقَطِّع : « قد سَمِعْتُك ، نعم سمعتك . سمِعْت صوتاً صارخاً خارجاً من أحشاء الليل ، وضَجَّةً هائلة مُنْبَثِقَةً من قلب النَّهار .»

فقلت بسرعة ، وقد نسيت ماضي حياتي ، ونسيت كِياني ، ونسيت كل شيء ، ولم أعرف سوى سلمى ، ولا أشعر بغير وجودها :

« وأنا قد سمعتك ، يا سلمى . سمعت نَغْمَة عظيمة مُحْيِيَة جارحة ، تتموَّج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أُسُسُ الأرض .»

فأغمضت سلمى أجفانها ، وظهر على شفتيها القِرْمِزِيَّتَيْن خيال ابتسامة مُحْزِنَة ، ثم همست قائلة :

« قد عرفت الآن بأنه يوجد شيء أعلى من السَّماء ، وأعمق من البَحْر ، وأقوى من الحياة والموت والزَّمَن . قد عرفت الآن ما لم أكن أعرفه بالأمس ولا أحلم به .»

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامة أعَزّ من صديق ، وأقرب من الأخت ، وأحَبّ من الحبيبة . صارت فِكْرًا ساميًا يَتْبَع عاقِلَتي ، وعاطفة رقيقة تكْتَنِف قلبي ، وحُلْماً جميلاً يجاور نفسي .

ما أجهل الناس الذين يتوهَّمون أن المحبة تتولَّد بالمعاشَرَة الطَّويلة والمرافقة المستمِرَّة ! إنَّ المحبَّة الحقيقيَّة هي ابنة التَّفاهم الروحي ، وإن لم يَتِمّ هذا التَّفاهم بلحظة واحدة ، لا يتم بعام ولا بجيل كامل .

ورفعتْ سلمى رأسها ونظرت نحو الأفُق البعيد ،

---

(١) صنّين : أعلى جبال لبنان .

(٢) الطُّلول : جمع طلل ، وهو الموضع المرتفع .

(٣) عشتروت : إلهة الحب والجمال والخصب عند الفينيقيين ، وهي عشتار عند أهالي بين النهرين ، وأفروديت عند اليونان ، وڤينوس عند الرومان .

حيث تلتقي خطوط صِنّين بأذيال الفضاء ثم قالت :

« لقد كُنْتَ لي بالأمس مثل أخ أقترب منه مُطْمَئِنّة ، وأجلس بجانبه في ظلال والدي . أما الآن فقد شعرتُ بوجود شيء أقوى وأعذب من العَلاقة الأخويّة . قد شعرت بعاطفة غريبة مُجَرَّدَة من كل عَلاقة ، عاطفة قويّة عميقة مخيفة لذيذة ، تملأ قلبي حزنًا وفَرَحًا . »

فأجَبْتُها : « أ ليست هذه العاطفة التي نخافها ونَرْتَجِف لمرورها في صدورنا جزءًا من النّاموس الكُلّيّ ، الذي يُسَيِّر القمر حول الأرض ، والأرضَ حول الشّمس ، والشّمسَ وما يحيط بها حول الله ؟ »

فوضعت يدها على رأسي ، وغرَسَت أصابعها بشعري ، وقد تهلّل وجهها ، وترقرقت الدُّموع في عينيها مثلما تَلْمَعُ قطرات النَّدى على أطراف أوراق النَّرْجِس ثم قالت :

« مَن مِنَ البشر يُصَدِّق حكايتنا ؟ مَنْ منهم يُصدِّق بأننا في السّاعة التي تجيء بين غروب الشّمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتزنا المعابِرَ الكائنة بين الشّكّ واليقين ؟ مَنْ منهم يعتقد بأن نَيْسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشّهر الذي أوقفنا في قُدْس أقْداس الحياة ؟ »

قالت هذه الكلمات ويدها ما بَرِحَتْ على رأسي المُنْحَني ، ولو تخيَّرتُ في تلك الدَّقيقة لَما فَضّلْتُ تيجان الملوك وأكاليل الغار [١] على تلك اليد الحريرية المتلاعِبَة بشعري . ثم أجبتُها قائلاً :

« إن البشر لا يصدِّقون حكايتنا ؛ لأنهم لا يعلمون بأن المحبة هي الزَّهْرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير مُعاوَنَة الفصول . ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأول مرّة ؟ وهل هي هذه السّاعة التي أوقفتنا في قدس أقداس الحياة ؟ أ ما جمعتْ روحينا قَبْضَةُ الله قبل أن تُصَيِّرنا الولادة أسيري الأيام والليالي ؟ إن حياة الإنسان – يا سلمى – لا تبتدئ في الرَّحِم ، كما أنها لا تنتهي أمام القبر . وهذا الفضاء الوَسيع المملوء بأشعة القمر والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانِقَة بالمحبة ، والنفوس المتَضامِنَة بالتَّفاهم . »

ورفعتْ سلمى يدَها بلُطْف عن رأسي ، تارِكَةً بين مَغارِس الشعر تَمَوُّجات كهربائية يتلاعَب بها نسيم الليل فيزيدها نموًّا وحَراكًا ، فأخذتُ تلك اليد براحتي نَظيرَ مُتَعَبِّد يَتَبَرَّك بلَثْم المَذْبَح و وضعتها على شفتَيَّ الملتهبتين وقبّلْتُها قبلة طويلة عميقة خرساء ، تُذيب بحرارتها كل ما في القلب البشري من الإحساس ، وتُنَبِّه بعذوبتها كل ما في النفس الإلهية من الطُّهْر .

ومرَّتْ علينا ساعة ، كلُّ دقيقة منها عامُ شَغَف ومحبّة ، تساوِرُنا سَكينة اللّيل ، وتغمُرنا أشعة القمَر ، وتُحيط بنا الأشجار والرّياحين ، حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة – التي يَنْسى فيها الإنسان كل شيء سوى حقيقة الحب – سمعنا وقع حوافر وهدير مَرْكَبَة تقترب منا مُسْرِعَة ، فانتبهنا من تلك الغَيْبوبة اللّذيذة . وهبطت بنا اليَقَظَة من عالَم الأحلام إلى هذا العالم الواقف بمسيره بين الحَيْرة والشّقاء ؛ فعرفنا بأن الوالد الشيخ قد عاد من دار المطران ، فنهضنا وسِرْنا بين الأشجار ننتظر وصوله .

وبلغت المركبة مدخل الحديقة فتَرَجَّل فارس كرامة وسار نحونا منحني الرّأس ، بطيء الحركة . ونظير مُتْعَبٍ رازِح [٢] تحت حمل ثقيل ، تقدم نحو سلمى و وضع كلتا يديه على كَتِفيها وأحدق بوجهها طويلاً ، كأنه يخاف أن تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين . ثم انسكبت دموعه على وجنتيه المُتَجَعِّدَتَيْن ، وارتجفت شفتاه بابتسامة مُحْزِنَة ، وقال بصوت مخنوق :

« عَمّا قريبٍ يا سلمى ، عَمّا قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر . عَمّا قريب تسير بك سُنّة الله من هذا المنزل المفْرَد إلى ساحة العالم الوَسيعة ؛ فتصبح هذه الحديقة مُشْتاقة إلى

(١) الغار : شجر ينبت بريًّا ، دائم الخضرة ، وهو الرَّنْد . كان الرومان يتخذون منه إكليلاً يتوجون به القائد المظفَّر أو الشاعر المُفْلِق ؛ رمزًا لمجده ، ومنه قيل : إكليل الغار .

(٢) رازح : واقع .

وَطْءِ قَدَمَيْك ، ويصير الدُّكُ غريباً عنك . لقد لفظَ القَدَرُ كلِمَتَه يا سلمى ؛ فَلْتُباركْكِ السَّماء وتَحْرُسْكِ .»

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيَّرت ملامحها وجمدت عيناها ، كأنها رأت شبح الموت مُنْصِباً أمامها ، ثم شَهقتْ وتَمَلْمَلَتْ مُتَوَجِّعة ، كعصفور رماه الصياد فهبط على الحَضيض مُرْتَجِفاً بآلامه .

وبصوت تقطعه الغُصّات العميقة صرخت قائلة : « ماذا تقول ؟ ماذا تعني ؟ إلى أين تريد أن تبعث بي ؟»

ثم شخصت [1] به ، كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن مُخبّآت صدره . وبعد دقيقة مُثْقَلَة بعوامل ذلك السكون الشَّبيه بصراخ القبور قالت مُتأوِّهَة :

« قد فهمتُ الآن ... قد عَرَفْتُ كل شيء ... إن المطران قد فرغ من حَبْكِ قضبان القَفَص الذي أعدَّه لهذا الطائر المكسور الجناحين ؛ فهل هذه هي إرادتك ، يا والدي ؟»

فلم يُجبْها بغير التَنهّدات العميقة ، ثم أدخلها الدار وأشِعَّة الحُنُوِّ تنسكب من ملامحه المضْطَرِبة . فبقيت أنا واقفاً بين الأشجار والحَيْرَة تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف بأوراق الخريف ، ثم اتبعتهما إلى القاعة .

وكي لا أظهر بمظهر طُفَيْلي يميل إلى استطلاع الخُصوصيّات أخذت يد الشيخ مُوَدِّعاً ، ونظرت إلى سلمى نظرة غريق تَلَفَّتَ نحو نجم لامع في قُبَّة الفَلَك . ثم خرجتُ دون أن يشعرا بخروجي ، ولكنني ما بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ مُنادياً ، فالتفتُّ ، وإذا به يتبعني فعُدْت إلى لقائه . ولما دَنَوْتُ منه أمسك بيدي ، وقال بصوت مُرْتَعِش :

« سامحني يا ابني ؛ فقد جعلت خِتام ليلتك مُكْتَنَفاً بالدموع ، ولكنك سوف تجيء إليَّ دائماً . أليس كذلك ؟ ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً إلّا من الشَّيْخوخَة المُحْزِنَة ؟ إن الشَّباب الغَضّ لا يستأنس بالشَّيْخوخة الذّابلة ، كما أن الصَّباح لا يلتقي المساء . أما أنت فسوف تجيء إليَّ لتذكِّرني بأيام الصِّبا التي صَرَفْتُها بقُرْب أبيك ، وتُعيد على مسمعي أخبار الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها . أليس كذلك ؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى ، وأصبح وحيداً مُنْفَرِداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟»

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت مُنْخَفِض مُتَقَطِّع ، ولما أخذت يده ، وهَزَزْتها صامتاً أحسستُ بقطرات من الدُّموع السَّخينَة قد تساقطت على يدي من أجفانه ، فارتعشت نفسي في داخلي ، وشعرت نحوه بعاطفة بنوية عَذْبَة مُحْزِنَة ، تتمايل بين ضلوعي ، وتَتَصاعد كاللُّهاث إلى شفتي ، ثم تعود كالغُصّات إلى أعماق قلبي . ولما رفعت رأسي ، ورأى أن دموعه قد استدرَّت الدموع من أجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعالي جبهتي ، ثم قال مُحَوِّلاً وجهه نحو باب المنزل : « مساء الخير ... مساء الخير ، يا ابني .»

إنَّ دمعة واحدة تَتَلَمَّع عن وَجنة شيخ مُتَجَعِّدة لَهِيَ أشد تأثيراً في النفس مِنْ كل ما تهرقه أجفان الفتيان .

إنَّ دموع الشَّباب الغزيرة هي مِمّا يفيض من جوانب القلوب المُتْرَعَة [2] ، أما دموع الشيوخ فهي فَضَلات العمر تنسكب من الأحداق ، هي بقية الحياة في الأجساد الواهِنَة . الدموع في أجفان الشبيبة كقَطَرات النَّدى على أوراق الوردة ، أما الدّموع على وَجْنَة الشيخوخة فأشْبَه بأوراق الخريف المصْفَرَّة التي تنثرها الأرياح وتذريها [3] ، عندما يقترب شتاء الحياة .

واختفى فارس كرامة وراء مَصارِع الباب ، وخرجت أنا من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموَّج في أذني ، وجمالها يسير كالخيال أمام عيني ،

---

(١) شخصت : فتحت عينيها فيه – دون أن تطرف – منزعجة .

(٢) المُتْرَعَة : الممتلئة . (٣) تذريها : تطيّرها وتفرقها .

ودموع والدها تجفّ ببُطء على يدي . خرجت من ذلك المكان خروجَ آدم من الفِرْدَوْس ، ولكن حواء هذا القلب لم تكن بجانبي لتجعل العالم كله فردوساً . خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التي وُلِدْتُ فيها ثانيَةً هي الليلة التي لمحْتُ فيها وجه الموت لأول مرة .

كذا تحيي الشّمس الحقول وبحرارتها تُميتها .

* * *

بُحَيْرَة النّار

كلّ ما يفعله الإنسان سرًّا في ظُلْمَة الليل يُظْهِرُه الإنسان عَلَنًا في نور النهار . الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السّكينة تصير على غير معرفة مِنّا حديثًا عموميًّا . الأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسّم غداً ، وتنتَصِب في مُنْعَطَفات الشّوارع .

كذا أعلنت أشباحُ الدُّجى مقاصدَ المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامة . وهكذا حملتْ دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى أحياء المدينة حتى بلغت مسمعي .

ما طلب المطران بولس غالب مقابلةَ فارس كرامة في تلك الليلة المُقْمِرَة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين ، أو يُخابِرَه بأمور الأرامل والأيتام ، بل أحضره بمرْكَبَته الخصوصيّة الفخْمَة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور بك غالب .

كان فارس كرامة رجلاً غنيًّا ، ولم يكن له وريث سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه ، لا لجمال وجهها ونَبالة روحها ؛ بل لأنها غَنِيّة موسِرَة ، تكْفُل بأموالها الطّائلة مستقبل منصور بك ، وتساعده بأملاكها الوسيعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصّة والأشراف .

إن رؤساء الدّين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم [١] من المجد والسُّؤدُد ، بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا أنسباءهم في مُقَدّمة الشّعْب ، ومن المستَبِدّين به والمستَدِرّين قواه وأمواله . إن مجد الأمير ينتقل بالإرْث إلى ابنه البِكْر بعد موته ، أما مجد الرّئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الإخوة وأبناء الإخوة في حياته . وهكذا يُصْبح الأسْقُف المسيحي ، والإمام المسلم ، والكاهِن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة ، وتمتصّ دماءها بأفواه عديدة .

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يُجِبْه ذلك الشّيخ بغير السّكوت العميق والدُّموع السّخينة . وأي والد لا يَشُقّ عليه فراق ابنته ، حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك ؟ أي رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالغُصّات عندما يفصله ناموس الطّبيعة عن الابنة التي لاعَبَها طِفْلة ، وهَذّبها صَبِيّة ، ورافقها امرأة ؟ إن كآبة الوالدين لزواج الابنة تضارع فرحهم بزواج الابن ؛ لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً ، أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً عزيزاً .

أجاب الشّيخُ طلبَ المطران مضطرًّا ، وانحنى أمام مشيئته قهراً عمّا في نفسه من الممانَعَة ، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك ، وسمع الناس يتحدّثون عنه ، فعرف خشونته وطمعه وانحطاط أخلاقه . ولكن أي مسيحي يقدر أن يقاوم أسْقُفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ؟ أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً بين الناس ؟ أ تعاند العين سَهْماً ولا تُفْقَد ، أو تناضل اليدُ سيفاً ولا تقطع ؟

وهَبْ أن ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه ، فهل تكون سُمْعَة ابنته في مأمن من الظُّنون والتّأويل ، وهل يظل اسمها نقيًّا من أوساخ الشّفاه والألسنة ؟ أ وَ ليست جميع العناقيد العالِية حامِضة في شرع بنات

(١) في الأصل : نفوسهم .

آوى (١) ؟

هكذا قبض القدر على سلمى ، وقادها عَبْدَة ذليلة في مَوْكب النِّساء الشَّرقيّات التّاعسات ، وهكذا سقطت تلك الرّوح النّبيلة بالحبائل ، بينما كانت تسبح لأول مرّة على أجنحة الحب البيضاء ، في فضاء تملأه أشعة القمر ، وتُعطِّره رائحة الأزاهر .

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مَجْلَبَة لشقاء البَنين . تلك الخزائن الوسيعة التي يملأها نشاط الوالد وحِرْصُ الأم تنقلب حبوساً ضيّقة مُظْلِمَة لنفوس الوَرَثة . ذلك الإله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً مخيفاً يعذِّب النفوس ويميت القلوب .

وسلمى كرامة هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبن ضَحيَّة ثروة الوالد وأماني العريس . فلو لم يكن فارس كرامة رجلاً غنيًّا لكانت سلمى اليوم حيَّة تفرح مثلنا بنور الشمس .

مَرّ أسبوع وحب سلمى يجالسني في المساء منشداً على مسمعي أغاني السّعادة ، ويُنَبِّهني عند الفجر ليريني معاني الحياة وأسرار الكِيان . حُبٌّ علويّ لا يعرف الحسَد ؛ لأنه غَنيّ ، ولا يوجعُ الجسد لأنه في داخل الروح . ميل قوي يغمر النّفس بالقَناعة . مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتفاء . عاطفة تولّد الشّوق ولكنها لا تثيره . فُتونٌ (٢) جعلني أرى الأرض نعيماً والعمر حُلْماً جميلاً ؛ فكنت أسير صباحاً في الحقول وأرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود ، وأجلس على شاطئ البحر ، وأسمع من أمواجه أغاني الأبَديَّة ، وأمشي في شوارع المدينة ، وأجد في طلعات العابرين وحركات المشْتَغِلين محاسن الحياة وبهجة العمران .

تلك أيام مضت كالأشباح ، واضمَحَلَّت كالضَّباب ، ولم يبق لي منها سوى الذّكرى الأليمة. فالعين التي كنت أرى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تُحَدِّق بغير غضب العواطف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت أسمع بها أغنية الأمواج لم تعد تُصْغي لغير أنّة الأعماق وعويل الهاوية . والنّفْس التي كانت تقف مُتَهَيِّبة أمام نشاط البشر ومَجْد العُمْران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقراء وتعاسة السّاقطين ؛ فما أحلى أيام الحب وما أعذب أحلامها ! وما أمرَّ ليالي الحزن وما أكثر مخاوفها !

وفي نهاية الأسبوع ، وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي ، سِرْتُ مساء إلى منزل سلمى كرامة — ذلك الهيكل الذي أقامه الجمال وقَدَّسَهُ الحب ؛ لتسجد فيه النّفْس مُصَلِّية ويركع القلب خاشعاً . ولما بلغته ودخلت إلى تلك الحديقة الهادئة ، أحسستُ بوجود قوّة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم ، وتدنيني ببطء إلى عالم سحري خالٍ من العراك والجهاد .

ومِثْلَ مُتَصَوِّف جذبته السماء إلى مسارح الرُّؤيا وجدتني سائراً بين تلك الأشجار المحتَبِكَة (٣) والزّهور المتعانقة ، حتى إذا ما اقتربت من باب الدار التفتُّ ، وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة الياسَمين ، حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك الليلة التي اختارتها الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي ، فدنوت منها صامتاً فلم تتحرك ولم تتكلّم ، كأنها علمت بقدومي قبل قدومي .

ولما جلست بجانبها حدقتْ بعينيَّ دقيقة وتنهدت تَنَهّدة طويلة عميقة ، ثم عادت فنظرت إلى الشّفَق البعيد حيث تعبث أوائل الليل بأواخر النهار . وبعد هنيهة مملوءة بتلك السَّكينَة السِّحْريَّة التي تضم نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير المنظورة ، حوَّلت سلمى وجهها نحوي وأخذت يدي بيد مرتَعِشَة باردة . وبصوت يُشابه تأوّه جائع لا يقوى على الكلام قالت:

« انظر إلى وجهي يا صديقي ، انظر إلى وجهي جيّداً وتأمله طويلاً ، واقرأ فيه كل ما تريد أن تفهمه مني بالكلام . انظر إلى وجهي ، يا حبيبي . انظر جيّداً ، يا أخي .»

---

(١) المفرد : ابن آوى ، وهو حيوان من الفصيلة الكلبية ، أصغر من الأرنب . (٢) فُتون : مصدر فَتن بمعنى خلَب اللُّب .

(٣) المحتَبِكَة : المتعانقة الملتفّة .

فنظرتُ إلى وجهها – نظرتُ طويلاً فرأيت تلك الأجفان التي كانت منذ أيام قليلة تبتسم كالشفاه وتتحرك كأجنحة الشُّحْرور قد غارَت وجمدت واكتحلت بخيالات التَّوَجُّع والألم . رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنايا الزّنبقة البيضاء الفرحة بقُبلات الشمس قد اصفَرّت وذبلت وتَبَرْقَعَت بنقاب القنوط .[١] رأيت الشَّفَتَين اللتين كانتا كزهرة أقاح[٢] تسيل عليها الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردتين مُرْتَجِفَتَيْن ، أبقاهما الخريف على طرف الغُصْن . رأيت العُنُق الذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى إلى الأمام ، كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول في تلافيف الرأس .

رأيت هذه الانقلابات الموجِعَة في ملامح سلمى – رأيتها جميعها ، ولكنها لم تكن في نظري إلّا كسَحابة رقيقة تُوَشّح القمر فتزيد منظره حُسْنًا وهَيْبة . إن الملامح التي تبيح أسرار الذّات المعنوية تكسب الوجه جمالاً ومَلاحَة ، مهما كانت تلك الأسرار موجِعَة وأليمة . أما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة ، مهما كانت مُتناسِقَة الخطوط ، مُتَناسِبَة الأعضاء .

إن الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يَشِفَّ بلورها عن لون الخمر . فسلمى كرامة كانت في عَشِيَّة ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس ، كانت تُمَثّل – على غير معرفة منها – حياة المرأة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نِير زوجها الخشن ، ولا تترك ذراعي أمها الرؤوف إلّا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية .

وبقيت مُحَدِّقًا بوجه سلمى ، مُصْغِيًا لأنفاسها المتقَطِّعة ، صامتًا مُفَكِّرًا ، شاعرًا مُتَألّمًا معها و لها ، حتى أحسست أن الزّمن قد وقف عن مسيره ، والوجود قد انحجب واضمحل ، ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين مُحَدِّقَتَيْن إليّ بأعماقي ، ولا أشعر بغير يد باردة مرتَعِشَة تضم يدي ، ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء :

« تعال نتحدث الآن يا صديقي . تعال نحاول تصوير المستقبل قبل أن يَحْمِلَ[٣] علينا بمخاوفه وأهواله . لقد ذهب والدي إلى منزل الرّجل الذي سيكون رفيقًا لي حتى القبر . قد ذهب الرّجل الذي اختارته السّماء سببًا لوجودي ليلتقي بالرّجل الذي انتَقَتْه الأرض سَيّدًا على أيامي الآتية . ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السّنين . وفي هذه الليلة يتّفِق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريبًا ، مهما جعلاه بعيدًا ، فما أغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها ! في مثل هذه اللّيلة من الأسبوع الغابر ، وفي ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحب روحي لأول مرة ، بينما كان القَدَر يَخُطُّ أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب . وفي هذه الساعة – وقد جلس والدي وخطيبي ليُضَفّرا إكليل زواجي – أراك جالسًا بجانبي ، وأشعر بنفسك مُتَمَوِّجَة حولي كطائر ظامئ يحوم مُرَفْرِفًا فوق يَنْبوع ماء يَخْفِرُه ثعبان جائع مخيف ؛ فما أعظم هذه اللّيلَة وما أعمق أسرارَها !»

فأجبتُها وقد تخيّلت القنوط شَبَحًا مُظْلِمًا قابضًا على عُنق حُبّنا ليميته في طفولته : « سيظل هذا الطائر حائمًا مرفرفًا فوق اليَنْبوع حتى يُضْنيه العَطَشُ فيُرْديه[٤] ، أو يقبض عليه الثُّعبان المخيف فيُمزِّقه ويلتهمه .»

فقالت متأثّرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضيّة : « لا ، لا يا صديقي ، فليبق هذا الطائر حيًّا . ليبق هذا البلبل مُغَرِّدًا حتى المساء ، حتى ينتهي الربيع ، حتى ينتهي العالم ، حتى تنتهي الدهور . لا تُخْرِسْه لأن صوته يحييني ، ولا توقف جناحيه لأن حَفيفَهما يُزيل الضَّباب عن قلبي .»

فهمستُ مُتَنَهِّدًا : « الظّمأ يقتله يا سلمى ، والخوف يميته .»

---

(١) القنوط : شدة اليأس . (٢) أقاح : جمع : أقحوان .

(٣) يَحْمِل : يهجم . (٤) يُرْديه : يُهلكه .

فأجابت والكلام يتدفّق بسرعة من بين شفتيها المرتعشتَيْن :

« إنّ ظمأ الروح أعذب من ارتواء المادة ، وخوف النّفْس أحب من طمأنينة الجسد . ولكن اسمع ، يا حبيبي . اسمعني جيّداً ، أنا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئاً . أنا مثل عمياء تتلمّس بيدها الجُدْران مخافة السُّقوط . أنا جارية أنزلني مال والدي إلى ساحة النّخّاسين فابتاعني رجل من بين الرجال . أنا لا أحب هذا الرجل لأنني أجهله ، وأنت تعلم أن المحبة والجَهالة لا تلتقيان ولكنني سوف أتعلم مَحَبّته . سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً . سوف أهَبُه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي .

« أمّا أنت فلم تزل في ربيع العمر . أمامك الحياة طريقاً وسيعة مفروشة بالأزهار والرّياحين . سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملاً قلبك مُشعلاً مُتّقداً . سوف تَفتَكِرُ بحرية ، وبحُرّية تتكلّم وتفعل . سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل . سوف تعيش سيّداً لأن فاقَةَ والدك لا تجعلك عبداً ، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النّخّاسين حيث تُباع البنات وتُشرى . سوف تَقْتَرِن بالصَّبِيّة التي تختارها لنفسك من بين الصّبايا ؛ فتُسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك ، وتشاركها بأفكارك قبل أن تساهمها الأيام والليالي.»

وسكتَتْ دقيقة كَيْما تسترجع أنفاسها ، ثم زادت بصوت تتابعه الغُصّات : « ولكن ، أ ها هُنا تُفرِّقنا سُبُلُ الحياة لتذهب بك إلى أمجاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة ؟ أ هكذا ينقضي الحلم الجميل ، وتَنْدَثِرُ الحقيقة العَذْبة ؟ أ هكذا تبتلع اللُّجّة نَغْمَةَ الشُّحرور ، وتنثر الرّياح أوراق الوردة ، وتسحق الأقدام كأس الخمر ؟ أ باطلاً أوقفتنا تلك الليلة أمام وجه القمر ، وباطلاً ضَمّنا الروح في ظلال هذه الياسمينة ؟ هل تسرّعنا بالصُّعود نحو الكواكب فكَلّت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحبَّ نائماً فاستيقظ غاضباً ليُعاقبنا ، أم هيّجت أنفاسُنا نسمات الليل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزّقنا وتَجْرُفَنا كالغبار إلى أعماق الوادي ؟ لم نُخالِفْ وَصيّةً ، ولم نذق ثمراً ؛ فكيف نخرج من هذه الجنة؟ لم نتآمَرْ ولم نتمرّد فلماذا نهبط إلى الجحيم؟ لا ، لا وألف لا و لا .

« إن الدّقائق التي جمعتنا هي أعظم من الأجيال، والشُّعاع الذي أنار نفسينا هو أقوى من الظّلام ، فإن فرّقَتْنا العاصفة على وجه هذا البحر الغَضوب فالأمواج تجمعنا على ذلك الشاطئ الهادئ . وإن قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يُحْيينا . إن قلب المرأة لا يتغير مع الزّمن ، ولا يتحوّل مع الفصول . قلب المرأة يُنازِع طويلاً ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه البَرِيّة التي يَتّخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ، ويلطّخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مُطْمَئِنّة ، ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً إلى نهاية الدُّهور .

« والآن قد قُضِيَ الأمر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل ؟ وكيف نفترق ومتى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً أتى به المساء وأبعده الصباح ؟ أ نحسب هذه العاطفة النفسية حُلْماً أبانه الكَرى ثم أخْفَتْه اليقظة ؟ أ نحسب هذا الأسبوع ساعة سُكْرٍ ما لبثت أن قضت بالصَّحْو والانتباه ؟

« ارفع رأسك لأرى عينيك ، يا حبيبي . افتح شفتيك لأسمع صوتك . تكلّم ، أخبرني ، حَدّثني هل تذكر بعد أن تُغرق العاصفة سفينتي أيّامنا ؟ هل تسمع حَفيف أجنحتي في سَكينة الليل ؟ هل تشعر بأنفاسي مُتَمَوّجة على وَجْهك وعنقك ؟ هل تصغي لتنَهّداتي متصاعدة بالتّوَجُّع ، منخفضة بالغُصّات ؟ وهل ترى خيالي قادماً مع خيالات الظّلام ، مُضْمَحِلاً مع ضباب الصّباح ؟ قل لي يا حبيبي ... قل لي ماذا تكون لي بعد أن كنت نوراً لعيني ونَغْمة لأذني وجناحاً لروحي ، ماذا تكون ؟»

فأجبتها وحَبّات قلبي تذوب في عيني : « سأكون لك ، يا سلمى ، مثلما تريدينني أن أكون .»

فقالت : « أريدك أن تحبّني . أريد أن تحبني إلى

نهاية أيامي . أريدك أن تحبني مثلما يحب الشاعر أفكاره المحزنَة . أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسافرُ حوض ماء هادئ رأى فيه خيال وجهه قبل أن يشرب من مائه . وأريدك أن تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في أحشائها قبل أن يرى النّور . وأريدك أن تُفكّرَ [١] بي مثلما يُفكِّر الملِك الرؤوف بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه . أريدك أن تكون لي أخاً وصديقاً ورفيقاً ، وأريدك أن تزور والدي في وحدته ، وتُعزّيه في انفراده ؛ لأنني عمّا قريب سأتركه وأصير غريبة عنه .»

فأجبتها : « سأفعل كل ذلك ، يا سلمى . سوف أجعل روحي غلافاً لروحك ، وقلبي بيتاً لجمالك ، وصدري قبراً لأحزانك . سوف أحبك ، يا سلمى ، محبّةَ الحقول للربيع . سوف أحيا بك حياة الأزاهر بحرارة الشمس . سوف أترنّم باسمك مثلما يترنّم الوادي بصدى رنين الأجراس المتمايِلَة فوق كنائس القُرى . سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تُصْغي الشواطئ لحكاية الأمواج . سأذكرك ، يا سلمى ، مثلما يذكر الغريب المُسْتَوْحِشُ وطنه المحبوب ، والفقير الجائع مائدة الطّعام الشّهية ، والملك المخلوع أيام عِزّه ومجده ، والأسير الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة . سوف أفكرُ [٢] بك مثلما يُفكِّر الزّارع بأغمار السّنابل وغَلّة البيادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء والمناهِل العذبة .»

كنت أتكلم وسلمى تنظر إلى أعماق الليل وتتأوّه بين الآونة والأخرى ، ونبضات قلبها تتسارع وتتهامل [٣] كأنها أمواج بحر بين صعود وهبوط ، ثم قالت :

« غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة حُلماً ؛ فهل يكتفي المشْتاق بعِناق الخيال ، ويرتوي الظمآن من جداول الأحلام ؟»

فأجبتها قائلاً : « غداً يسير بك القدر إلى أحضان العائلة المملوءة بالراحة والهدوء ، ويسير بي إلى ساحة العالم حيث الجِهاد والقتال . أنت إلى منزل رجل يسعد بجمالك وطُهْر نفسك ، وأنا إلى مكامن أيام تُعَذّبني بأحزانها وتخيفني بأشباحها . أنت إلى الحياة وأنا إلى النِّزاع . أنت إلى الأنْس والإلفة وأنا إلى الوَحْشَة والانفراد ، ولكنني سأرفع في وادي ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده . سأتخذ الحب سميراً وأسمعه مُنْشِداً ، وأشربه خمراً وألبسه ثوباً . عند الفجر سينبّهني الحبُّ من رُقادي ويسير أمامي إلى البَرِّيّة البعيدة . وعند الظّهيرة سيقودني إلى ظِلّ الأشجار فأَرِيضُ [٤] مع العصافير المحتَمِيَة من حرارة الشمس . وفي المساء سيوقفني أمام المغْرِب ويُسْمِعني نَغْمَةَ وداع الطبيعة للنّور ، ويريني أشباح السّكينة سابِحَةً في الفضاء . وفي الليل سيعانقني فأنام حالماً بالعوالم العلوية ، حيث تقطن أرواح العُشاق والشعراء .

« في الربيع سأمشي والحبُّ جَنْباً لجنْب ، مُتَرَنّمين بين التّلول والمنْحَدرات ، مُتّبِعين آثار أقدام الحياة المخطّطة بالبنفسج والأُقْحوان ، شاربين بقايا الأمطار بكؤوس النّرْجِس والزّنْبَق . وفي الصيف سأتّكِئ والحب ساندين رأسَيْنا إلى أغمار القَشّ ، مفترشين الأعشاب ، مُلْتَحِفين السّماء ، ساهرين مع القمر والنّجوم . وفي الخريف سأذهب والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصِر ناظرين إلى الأشجار وهي تخلع أثوابها المذَهّبَة متأملين بأسراب الطيور الراحلة إلى ساحل . وفي الشتاء سأجلس والحب بقرب المواقد تالِيَيْن حكايات الأجيال ، مُرَدِّدَين أخبار الأمم والشعوب . وفي أيام الشّبيبة سيكون لي الحب مُهَذِّباً ، وفي الكُهولة عَضُداً ، وفي الشّيخوخة مؤنساً . سيظل الحب معي ، يا سلمى ، إلى نهاية العمر ، إلى أن يجيء الموت ، إلى أن تجمعني بك قبضة الله .»

كانت الألفاظ تتصاعد مُسْرِعَةً من أعماق نفسي، كأنها شُعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدّد وتَضْمَحِلّ في زوايا تلك الحقيقة . وكانت سلمى

(١) في الأصل : تفتكر .
(٢) في الأصل : أفتكر .
(٣) تتهامل : تتساقط وتتقاطر .
(٤) فأريضُ : آوي وألجأ .

مُصْغِيَة والدُّموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاه تجيبني بالدموع على الكلام .

إن الذين لم يَهَبْهُم الحبُّ أجنحَة لا يستطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليرَوا ذلك العالم السحري، الذي طافت فيه روحي وروح سلمى في تلك السّاعة المحزنَة بأفراحها المفْرِحَة بأوجاعها . إن الذين لم يتّخذهم الحب أتباعاً لا يسمعون الحب مُتكَلّماً ، فهذه الحكاية لم تُكتَب لهم ، فهم – وإن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة – لا يمكنهم أن يروا ما يسيل بين سطورها من الأشباح والخيالات التي لا تلبس الحِبْرَ ثوباً ولا تتّخذ الورق مسكناً . ولكن أي بَشَرِيّ لم يَرْشُف من خمرة الحب في إحدى كاساته ؟ أية نَفْس لم تقف مُتَهَيِّبة في ذلك الهيكل المنير ، المرصوف بحبّات القلوب ، المسقوف بالأسرار والأحلام والعواطف ؟ أي زهرة لم يسكب الصّباح قطرة من النّدى بين أوراقها ، وأي ساقية تضل طريقها ولا تذهب إلى البحر ؟

ورفعت سلمى إذّاك رأسها نحو السّماء المزيّنة بالكواكب ، ومدّت يديها إلى الأمام ، وكبرت عيناها ، وارتجفت شفتاها ، وظهر على وجهها المصْفَرّ كل ما في نفس المرأة المظلومة من الشّكوى والقُنوط والألم ، ثم صرخت قائلة :

« ماذا فعلت المرأة يا رب فاستحَقّت غضبك ؟ ماذا أتت من الذنوب ليتْبَعَها سَخَطُك إلى آخر الدهور ؟ هل اقترفت جُرْماً لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية ؟ أنت قوي يا رب ، وهي ضعيفة فلماذا تُبيدها بالأوجاع ؟ أنت عظيم وهي تَدِبّ حول عَرْشك فلماذا تسحقها بقدميك ؟ أنت عاصفة شديدة وهي كالغُبار أمام وجهك فلماذا تَذْريها على الثّلوج ؟ أنت جَبّار وهي بائسة فلماذا تحاربُها ؟ أنت بصير عليم وهي تائهة عمياء فلماذا تُهْلِكُها ؟ أنت توجدها بالمحبّة فكيف بالمحبة تُفْنيها ؟ بيمينك ترفعها إليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية ، وهي جاهلة لا تدري أنّى تَرْفَعها وكيف تدفعها . في فمها تَنْفُخُ نسمة الحياة ، وفي قلبها تزرع بذور الموت . على سُبُل السّعادة تُسَيِّرها راجِلَة [١] ثم تبعث الشّقاء فارساً ليصطادها .

« في حنجرتها تَبثُّ نَغْمة الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة . بأصابعك الخفية تُمَنْطِق باللذّة أوجاعها ، وبأصابعك الظاهِرَة ترسم هالات الأوجاع حول ملذاتها . في مضجعها تُخْفي الرّاحة والسلامة ، وبجانب مضجعها تُقيم المخاوف والمتاعب . بإرادتك تحيي أميالها ومن أميالها تتولّد عيوبها وزلاتها . بمشيئتك تريها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب مَحَبّتها للحسن مجاعة مُهْلِكَة . بشريعتك تُزَوّج روحها من جسد جميل ، وبقضائك تجعل جسدها بعلاً للضّعْف والهوان .

« أنت تسقيها الحياة بكأس الموت ، والموت بكأس الحياة . أنت تطهرها بدموعها وبدموعها تُذيبها . أنت تملأ جَوْفَها من خُبْز الرّجل ثم تملأ حفنة الرجل من حَبّات صَدْرها . أنت أنت ، يا رب ، قد فتحت عينيَّ بالمحبة وبالمحبة أعميتني . أنت قبّلتني بشفتيك وبيدك القوية صَفَعْتَني . أنت زرعت في قلبي وردة بيضاء ، وحول هذه الوردة أنبتّ الأشواك والحَسَك . أنت أوثَقْت حاضري بروح فتى أحبه ، وبجسد رجل لا أعرفه قَيّدت أيامي ، فساعدني لأكون قويّة في هذا الصراع المُميت ، وأسعفني لأبقى أمينة وطاهرة حتى الموت . لتكن مشيئتك ، يا رب . ليكن اسمك مُبارَكاً إلى النهاية .»

وسكتَتْ سلمى وظلّت ملامحها تتكلّم ، ثم أحنت رأسها وأرخت ذراعيها وانخفض هيكلها ، كأن القُوى الحيويّة قد تركتها فبانَتْ لناظري كغُصْن قَصَفَتْه العاصفة وألقته إلى الحضيض ليجِفّ ويندثر تحت أقدام الدهر ، فأخذت يدها المثلجة بيدي المُلتَهِبَة ، وقبّلت أصابعها بأجفاني وشفتيّ . ولما حاولت تعزيتها بالكلام وجدتني أحْرَى منها بالتّعزية والشّفَقَة ؛ فبقيت صامتاً حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدّقائق بعواطفي ، مُصْغِياً لأنّة قلبي في داخلي ، خائفاً من نفسي على نفسي .

---

(١) راجلة : ماشية على قدميها .

ولم يَنْبِس أحدنا ببنت شَفَة فيما بقي من تلك الليلة ؛ لأن اللّوعة إذا عظمت تصير خرساء ، فبقينا ساكِتَيْن جامِدَيْن كعمودي رخام قَبَرَهما الزّلزال في التراب . ولم يعد أحدنا يريد أن يسمع الآخر متكلّماً؛ لأن خيوط قلبينا قد وَهَتْ حتى صار التّنهُّد دون الكلام يقطعها .

انتصف الليل ونَمَتْ رهبة السكوت ، وطلع القمر ناقصاً من وراء صِنّين ، وبان بين النجوم كوجْه مَيِّت شاحب غارق في المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه . وظهر لبنان كشيخ لَوَتْ ظهره الأعوام ، وأناخت هيكلَه الأحزان ، وهجر أجفانَه الرُّقاد ، فبات يُساهِرُ الدُّجى ، ويترَقَّب الفجر كملك مخلوع جالس على رَماد عرشه بين خرائب قصره .

إن الجبال والأشجار والأنهار تَتَبَدَّلُ هيئاتها ومظاهرها بتقلُّب الحالات والأزمنة ، مثلما تتغيَّر ملامح وجه الإنسان بتغيرُّ أفكاره وعواطفه . فشجرة الحور التي تتعالَى في النّهار كعروس جميلة يُلاعب النّسيم أثوابها تظهر في المساء كعَمود دُخَان يتصاعد نحو اللاشيء . والصَّخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجَبّار قوي يَهْزَأ بعاديات [1] الزّمن يبدو في الليل كفقير بائس ، يفتَرِشُ الثّرى ويلتحف الفضاء . والسّاقية التي نراها عند الصباح مُتَلَمِّعَة كذَوْب اللُّجَيْن [2] ، ونسمعها مترنّمة بأغنية الخلود ، نخالها في المساء مجرى دموع يَتَفَجَّرُ من بين أضلع الوادي ، ونسمعها تَنْدب وتنوح كالثّكْلى . ولبنان الذي ظهر منذ أسبوع بكل مظاهر الجلال والرّونق عندما كان القمر بدراً والنفس راضية ، قد بان في تلك الليلة كئيباً مَنْهوكاً مستوحِشاً أمام قمر ضئيل ناقص هائم في عرض السّماء ، وقلب خافِق مُعْتل داخل الصَّدْر .

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شَبَحَيْن هائلين : هذا باسط جناحيه فوق رأسينا ، وذاك قابض بأظافره على عُنُقَيْنا . هذا يبكي مُرْتاعاً ، وذاك يضحك ساخراً . ولما أخذتُ يد سلمى و وضعتها على شفتيّ مُتَبَرِّكاً دنت مني ولَثَمَتْ مَفْرِق شعري ، ثم عادت وارتمت على المقعد الخشبي وأطبقت أجفانها وهمست ببطء : « أشفق يا رب ، وشَدِّد جميع الأجنحة المتكسرة .»

انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً بنِقاب كثيف يُوَشّي مداركي الحِسيَّة مثلما يَغْمُر الضباب وجه البحيرة . وسِرْت وخيالات الأشجار القائمة على جانبي الطَّريق تتحرّك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شُقوق الأرض لتخيفني ، وأشعة القمر الضَّعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام دقيقة تَريشُها أرواح الجان السابِحَة في الفضاء نحو صدري ، والسَّكينة العميقة تُخَيِّم عليَّ ، كأنها أكفٌ سوداء ثقيلة ألقتها الظُّلْمة على جسدي .

كلُّ ما في الوجود ، وكل معنى في الحياة ، وكل سِرٍّ في النّفْس قد صار قبيحاً رهيباً هائلاً ؛ فالنّور المعنوي الذي أراني جمال العالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهيبها ، وتستر نفسي بدخانها . والنَّغْمَة التي كانت تضم إليها أصوات المخلوقات وتجعلها نشيداً علوياً قد استحالت في تلك السّاعة إلى ضجيج أروع من زَمْجَرَة الأسد ، وأعمق من صراخ الهاوية .

بلغت غرفتي وارتميت على فراشي كطائر رماه الصَّيّاد فسقط بين السِّياج والسَّهمُ في قلبه . وظلّت عاقِلَتي تتراوح بين يَقَظَة مخيفة ونوم مُزْعِج ، وروحي في داخلي تُرَدِّد في الحالتين كلمات سلمى: « أشفق ، يا رب ، وشَدِّد جميع الأجنحة المتكسرة .»

* * *

أمام عرش الموت

إنما الزِّيجَة في أيامنا هذه تِجارة مُضْحِكة مُبْكِيَة ، يتولّى أمورها الفتيان وآباء الصَّبايا ؛ الفتيان يربحون في أكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً . أما الصَّبايا

(١) عاديات الزّمن : عوائقه ومصائبه . (٢) اللُّجَيْن : الفضّة .

المتنقِّلات كالسِّلَع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهن، ونظير الأمتعة العَتيقة يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفَناء البطيء .

إن المدَنيَّة الحاضرة قد أنمَتْ مدارك المرأة قليلاً ، ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل . كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيِّدة تَعِسَة . كانت بالأمس عمياء تسير في نور النَّهار ، فأصبحت مُبْصِرَة تسير في ظلمة الليل . كانت جميلة بجهلها ، فاضلة ببساطتها ، قويَّة بضعفها فصارت قبيحة بتفنُّنها ، سطحية بمداركها ، بعيدة عن القلب بمعارفها . فهل يجيء يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة ، والتَّفنُّن بالفضيلة ، وضعف الجسد بقوة النَّفْس ؟

أنا من القائلين إن الارتقاء الروحي سُنَّة في البَشَر ، والتَّقرُّب من الكَمال شريعة بطيئة لكنها فعَّالة ، فإذا كانت المرأة قد ارتقَتْ بشيء وتأخَّرت بشيء آخر ؛ فلأن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص وكهوف الذِّئاب . ففي هذا الجيل الشَّبيه بالغيبوبة التي تتقدَّم اليَقَظَة — في هذا الجيل القابض بكَفَّيْه على تُراب الأجيال الغابرة وبذور الأجيال الآتية — في هذا الجيل الغريب بأمياله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل . وسلمى كرامة كانت في بيروت رمز المرأة الشَّرقية العَتيدة ، ولكنها — كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم — قد ذهبت ضحيَّة الزَّمَن الحاضر ، ونظيرَ زهرة اختطفها تيَّار النهر قد سارت قهْرًا في مَرْكب الحياة نحو الشقاء .

وتزوَّج منصور بك غالب من سلمى فسكنا معًا في منزل فخم قائم على شاطئ البحر في رأس بيروت ، حيث يقطن وجهاء القوم والأغنياء . وبقي فارس كرامة وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين أغنامه . ومضت أيام العُرْس وانقضت ليالي الأفراح ، ومَرَّ الشَّهر الذي يدعوه النَّاس عَسَلاً تاركًا وراءه شهور الخَلّ والعَلْقَم ، مثلما تترك أمجاد الحروب جماجم القَتْلَى في البَرِّيَّة البعيدة .

إن بَهْرَجَة الأعراس الشَّرقية تصعد بنفوس الفتيان والصَّبايا صعود النَّسْر إلى ما وراء الغيوم ، ثم تهبط بهم هبوط حَجَر الرَّحى إلى أعماق اليَمّ ، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطئ ، لا تلبث أن تمحوَها الأمواج .

وذهب الرَّبيع وتلاه الصَّيف ، وجاء الخريف ومحبتي لسلمى تتدرَّج من شَغَفْ فَتًى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من العِبادة الخرساء التي يشعر بها الصَّبي اليتيم نحو روح أمه الساكنة في الأبدية . فالصَّبابة التي كانت تمتلك كُلِّيَّتي قد تحوَّلت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها . والولَع الذي كان يَسْتَدِرّ الدموع من عيني قد انقلب وَلهًا يَسْتَقطر الدَّم من قلبي . وأنَّة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تُقَدِّمها روحي في السَّكينة أمام السَّماء مُسْتَمِدَّة السَّعادة لسلمى والغِبْطَة لَبَعْلِها والطمأنينة لوالدها .

ولكن باطلاً كنت أشفق وأبتهل وأصلي ؛ لأن تعاسة سلمى كانت عِلَّة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت . أما بعلها فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تَعَب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون ، بل يطمحون دائمًا إلى ما ليس لهم ، وهكذا يظلّون مُعَذَّبين بمطامعهم إلى نهاية أيامهم . وباطلاً كنت أرجو الطُّمَأنينَةَ لفارس كرامة لأن صِهْرَه لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها حتى نسيه وهجره ، بل صار يطلب حَتْفَه [1] توصُّلاً إلى ما بقي من ثروته .

كان منصور بك شبيهًا بعمه المطران بولس غالب، وكانت أخلاقه كأخلاقه ، ونَفْسه صورة مُصَغَّرَة لنفسه ، ولم يكن الفَرْقُ بينهما إلّا بما يفرق الرِّياء عن الانحطاط . كان المطران يبلغ أمانيه مُسْتَترًا بأثوابه البنفسجية ، ويشبع مطامعه مُحْتَمِيًا بالصَّليب الذَّهبي المعَلّق على صدره ، أما ابن أخيه فكان يفعل كل ذلك جِهارًا وعَنْوَة .

---

(١) حتفه : موته .

كان المطران يذهب إلى الكَنيسة في الصَّباح ، ويصرف ما بقي من النهار مُنْتزِعاً الأموال من الأرامل واليَتامى وبُسطاء القلب . أما منصور بك فكان يقضي النهار كله مُتَّبِعاً ملذاته ، ملاحِقاً شهواته في تلك الأزِقَّة المظلمة ، حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد . كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويَعِظ المؤمنين بما لا يَتَّعِظ به ويصرف أيام الأسبوع مُشْتَغِلاً بسياسة البلاد . أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه مُتاجِراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومُريدي الوَجاهة . كان المطران يسير مُخْتَبِئاً بستائر الليل ، أما منصور بك فكان يمشي بشجاعة في نور النّهار .

كذا تَبيدُ [١] الشُّعوب بين اللصوص والمُحْتالين مثلما تَفْنَى القُطْعان بين أنياب الذِّئاب وقواطع الجزّارين . وهكذا تستسلم الأمم إلى ذوي النفوس المعْوَجّة والأخلاق الفاسدة ، فتتراجع إلى الوراء ثم تهبط إلى الحضيض ، فيمر الدَّهر ويسحقها بأقدامه ، مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفَخّار .

وماذا ، يا تُرى ، يجعلني الآن أشغل [٢] هذه الصفحات بالكلام عن أم بائِسة يائسة ، وأنا قد خصَّصْتُها لتدوين حكاية امرأة تاعسة ، وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحبُّ بأفراحه حتى صفعه بأحزانه ؟ لماذا تُراود الدُّموع أجفاني لذِكْر شعوب خاملة مظلومة ، وأنا قد وقَفْتُ دموعي على ذكرى أيام امرأة ضعيفة ، لم تُعانق الحياة حتى احتضنها الموت ؟

ولكن أ ليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمّة المظلومة ؟ أ ليست المرأة المتوجِّعَة بين أميال نفسها وقيود جسدها هي كالأمة المتعَذِّبة بين حكامها وكُهّانها ؟ أ وَليست العواطف الخَفِيَّة التي تذهب بالصَّبِيَّة الجميلة إلى ظلمة القبر هي كالعواصف الشّديدة التي تغمر حياة الشُّعوب بالتُّراب ؟ إن المرأة من الأمّة بمنزلة الشُّعاع من السِّراج ، وهل يكون شُعاع السِّراج ضئيلاً إذا لم يكن زَيْتُه شحيحاً ؟

(١) تَبيدُ : تهلك .
(٢) في الأصل : أن أشغل .

مضت أيام الخريف وعرَّت الرِّياح الأشجارَ مُتَلاعِبَة بأوراقها الصَّفراء مثلما تداعب الأنواء [٣] زَبَدَ البحر ، وجاء الشتاء باكياً مُنْتَحِباً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام تتصاعد بنفسي تارة فتُبْلِغها الكواكب ، وتنخفض بقلبي طوراً فتُلْحِده [٤] بجوف الأرض .

إن النَّفْس الكئيبة تجد راحة بالعُزْلة والانفراد فتهجر النّاس ، مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سِرْبه ويتوارى في كهفه حتى يَبْرَأ أو يموت .

ففي ذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامة ، فتركت وحدتي وذهبت لعِيادته [٥] ماشياً على مَمَرّ منفرد بين أشجار الزيتون المتَلَمِّعة أوراقها الرّصاصيّة بقطرات المطر ، مُتَنَحّياً عن الطَّريق العمومية ، حيث تُزْعج ضجة المرْكَبات سكينة الفضاء .

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته مُلْقَى على فراشه مُضْنَى الجسد ، شاحِبَ الوجه ، أصفر اللون ، وقد غرقت عيناه تحت حاجبيه فبانتا كهُوَّتَيْن عميقتين مظلمتين تجول فيهما أشباح السَّقَم والألم . فالملامح التي كانت بالأمس عنوان البَشاشة والانبساط قد تقلَّصَت واكفَهَرَّت ، وأصبحت كصَحيفة رَمادية مُتَجَعِّدة تكتب عليها العِلّة سطوراً غريبة مُلْتَبِسَة . واليدان اللتان كانتا مُغَلَّفَتَيْن باللُّطف واللُّدانة قد نَحلتا حتى بدت عَظام أصابعهما من تحت الجِلْد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة .

ولما دنوت منه سائلاً عن حاله ، حوّل وجهه المهزول نحوي وظهر على شفتيه المرتَجِفَتَيْن خيال ابتسامة مُحْزِنة . وبصوت ضعيف خافت خِلْتُه آتياً من وراء الجدران قال : « اذهب – اذهب يا بُني إلى تلك الغرفة وامسح دموع سلمى وسَكِّن رَوْعها ، ثم عُدْ بها إليَّ لتجلس بجانب فراشي .»

دخلت الغرفة المحاذِيَة فوجدت سلمى مُنْطَرِحَة على مقعد ، وقد غمرت رأسها بزِنْدَيْها وغرَّقت وجهها بالمساند ، وأمسكت أنفاسها كيلا يسمع

(٣) الأنواء : الرياح الشديدة السرعة .
(٤) تُلْحِده : تدفنه .
(٥) عِيادته : زيارته .

والدها نحيبَها ، فاقتربتُ منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقرب إلى التّنهُّد منه إلى الهَمْس ، فتحركت[١] مُضْطَرِبَة كنائم تُراوده الأحلام المخيفة، ثم استوت على مقعدها ، ونظرت إليّ بعينين شاخِصَتَيْن جامدتين ، كأنها ترى[٢] شبحاً في عالم الرُّؤيا ، ولا تُصَدِّق حقيقة وجودي في ذلك المكان .

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السِّحرية إلى تلك السّاعات التي سَكِرْنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها بأطراف بَنانها[٣] وقالت مُتَحَسِّرة :

« أ رأيت كيف تَبَدَّلت الأيام ؟ أ رأيت كيف أضلّنا الدَّهرُ فسِرْنا مسرعين إلى هذه الكهوف المفْزِعَة ؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قَبْضَة الحب ، وفي هذا المكان يجمعنا[٤] الآن الشّتاء أمام عرش الموت ، فما أبهى ذلك النّهار ، وما أشد ظلمة هذا الليل !»

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغُصّات أواخرها ، ثم عادت وستَرَت وجهها بيديها ، كأن ذكرى الماضي قد تجسَّدت و وقفت أمامها فلم تشأ أن تراها ، فوضعت يدي على شعرها قائلاً :

« تعالي يا سلمى — تعالي ننتصب كالأبراج أمام الزَّوبَعة . هَلُمّي نقف كالجنود أمام الأعداء ، مُتَلَقّين شِفار[٥] السّيوف بصدورنا لا بظهورنا ، فإن صُرِعنا نموت كالشُّهداء ، وإن تَغَلَّبنا نعيش كالأبطال . إنّ عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب لهوَ أشْرَفُ من تَقَهْقُرها إلى حيث الأمن والطمأنينة ؛ فالفَراشة التي تَظَلُّ مُرَفْرِفَة حول السِّراج حتى تحترق هي أسمى مِن الخُلد[٦] التي تعيش[٧] براحة وسلامة في نَفَقِها المُظْلم . والنَّواة التي لا تحتمل برد الشّتاء وثورات العناصر لا تقوى على شَقِّ الأرض ، ولن تفرح بجمال نَيْسان .

« هَلُمّي ، نسير يا سلمى ، بقَدَم ثابتة على هذه الطَّريق الوعِرَة ، رافعين أعيُنَنا نحو الشمس ؛ كيلا نرى الجماجِم المطروحة بين الصُّخور ، والأفاعي المُنْسابَة بين الأشواك . فإن أوقفنا الخوفُ في منتصف الطَّريق أسمعتنا أشباحُ الليل صراخ الاستهزاء والسُّخرية ، وإن بلغنا قِمَّة الجبل بشجاعة تَتَرَنَّم معنا أرواح الفضاء بأنْشودَة النَّصر والاستظهار . خففي عنك يا سلمى ، وجففي دموعك ، وأخْفي هذه الكآبة الظاهرة على مُحَيّاك ، وقومي نجلس بجانب فراش والدك ؛ لأن حياته من حياتك ، وشفاءه بابتسامتك .»

فنظرت إليّ نظرة ملؤها الحنان والرّأفة والانعطاف، ثم قالت : « أ تطلب مني الصَّبر والتَّجلُّد ، وفي عينيكَ معنى اليأس والقنوط ؟ أ يعطي الفقير الجائع خبزَه إلى الجائع الفقير ، أو يصف العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدواء ؟»

ثم وقفت وسارت أمامي مُنْحَنِيَة الرَّأس إلى غرفة والدها .

جلسنا بقرب مَضْجَع الشَّيخ العليل ، وسلمى تتكلَّف الابتسام وهدوء البال ، وهو يتكلَّف الراحة والقوَّة ، وكل منهما شاعِرٌ بلَوْعة الآخر ، عالِمٌ بضَعْفه ، سامع غُصّات قلبه . فكانا مثل قوّتين مُتَصارِعَتَيْن تُفْنيان بعضهما بعضاً في السكينة . والد دَنِف[٨] يذوب ضَنًى لتعاسة ابنته ، وابنة مُحِبَّة متوجِّعة بعِلَّة والدها . نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحب والموت ، وأنا بينهما أتحمَّل ما بي وأقاسي ما بهما . ثلاثة جمعتهم يدُ القضاء ، ثم قبضت عليهم بشِدَّة حتى سحقتهم : شيخ يمثِّل بيتاً قديماً هدمه الطّوفان ، وصَبِيَّة تحاكي زنبقةً قطَع عُنُقَها حَدُّ المِنْجَل ، وفتى يُشابه غَرْسَة ضعيفة لَوَتْ قامتها الثُّلوج ، وجميعنا مثل ألعوبة بين أصابع الدهر .

وتحرَّك الشَّيخ إذ ذاك بين اللُّحُف[٩] ومدَّ يده

(١) في الأصل : فاحتركت . (٢) في الأصل : رأت .
(٣) البَنان : جمع : بنانة ، وهي طرف الأصبع .
(٤) في الأصل : يجعلنا . (٥) شِفار السُّيوف : حدّها .
(٦) الخُلد : الفأرة العمياء ، وهي نوع من القواضم يعيش تحت الأرض . (٧) في الأصل : الذي يعيش .. في نفقه .

(٨) دَنِف : اشتد مرضه ، ودنا من الموت .
(٩) اللُّحُف : جمع : لحاف .

النّحيلة نحو سلمى ، وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرِّقّة والرّأفة ، وكل ما في صدر العليل من السّقم والألم قال : « ضعي يدك في يدي يا سلمى .»

فمدّت يدها وألقتها بين أصابعه فضمّها بلُطف ، ثم زاد قائلاً : « لقد شَبِعْتُ من السّنين يا وَلَدَيَّ . قد عشت طويلاً وتلذّذت بكل ما تُثْمِرُه الفصول ، وتمتّعت بكل ما تُبْرِزُه الأيام والليالي . قد لاحَقْت الفراشَ صَبِيًّا ، وعانقت الحُبَّ فَتًى ، وجمعتُ المال كَهْلاً ، وكنت في هذه الأدوار سعيداً مَغْبوطاً .[١] فقدتِ أمّك ، يا سلمى ، قبل أن تبلغي الثالثة ؛ ولكنها أبقتك لي كنزاً ثميناً ، فكنت تنمين بسرعة نُموِّ الهلال ، وتنعكس على وجهك ملامح أمّك ، مثلما تنعكس أشِعَّة النجوم في حوض ماء هادئ ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهورَ الحَلْي الذّهبية من وراء النّقاب الرقيق ، فتعزّيت بكِ يا ولدي [٢] لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة .

« والآن قد صرت شيخاً طاعناً ، وراحةُ الشّيوخ بين أجنحة الموت النّاعمة ؛ فتَعَزّيْ ، يا ولدي ، لأنني بقيتُ لأراك امرأة كاملة ، وافرحي لأنني سأبقى بك حيًّا بعد موتي . إن ذهابي الآن هو مثل ذهابي غداً أو بعده ؛ لأن أيّامَنا مثل أوراق الخريف ، تتساقط وتتبدّد أمام وجه الشّمس ، فإن أسرعتِ بي الساعات إلى الأبديّة فلأنها علمت بأن روحي قد اشتاقت إلى لقاء أمك .»

لفظ الكلمات الأخيرة بنَغْمة مُفْعَمَة بحلاوة الحنين والرّجاء ، ولاحت على وجهه المنقَبِض أشعة شبيهة بذلك النور الذي ينبثق من أجفان الأطفال . ثم مد يده بين المساند المحيطة برأسه ، وانتشل صورة صغيرة قديمة يُمَنْطِقُها إطار من الذهب ، قد نَعَّمَت حدوده ملامِسُ الأيدي ومَحَت نقوشه قُبَلُ الشّفاه . ثم قال بدون أن يحوّل عينيه عن الرّسم : « اقتربي يا سلمى . اقتربي مِنّي ، يا ولدي ، لأريك خيال أمك .

تعالي وانظري ظِلّها على صفحة من الورق .»

فدنت سلمى ماسِحَة الدُّموع من مُقْلَتَيْها كيلا تَحول بين ناظِرها والرّسم الضّئيل . وبعد أن أحدقت به طويلاً كأنه مرآة تعكس معانيها وشَكْلَ وجهها ، قرّبته من شفتيها وقبّلته بلَهْفة مِراراً مُتواليَة ، ثم صرخت قائلة : « يا أمّاهُ ، يا أمّاهُ ، يا أمّاهُ !» ولم تزد على هذه الكلمة ، بل عادت و وضعت الرَّسْمَ على شفتيها المرتَعِشَتَيْن ، كأنها تريد أن تَبُثَّ فيه الحياة بأنفاسها الحارّة .

إن أعذب ما تحدثه الشّفاه البشرية هو لفظة (الأم) ، وأجمل مُناداة هي (يا أمي) ، كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف ، وكل ما في القلب البشري من الرِّقّة والحلاوة والعُذوبة . الأم هي كل شيء في هذه الحياة : هي التّعْزِيَة في الحزن ، والرّجاء في اليأس ، والقوّة في الضّعْف . هي يَنْبوع الحُنُوّ والرّأفة والشّفَقة والغُفران ؛ فالذي يفقد أمه يفقد صَدْراً يسند إليه رأسه ، و يداً تباركه ، و عيناً تحرسه .

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلّم عن الأمومة ، فالشّمس هي أم هذه الأرض ، ترضعها حرارتها ، وتحضنها بنورها ، ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تُنوّمها على نَغْمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسّواقي . وهذه الأرض هي أمٌّ للأشجار والأزهار ، تلدها وترضعها ثم تَفْطمها . والأشجار والأزهار تصير بدورها أمّهات حنونات للأثمار الشّهية والبذور الحيّة . وأم كل شيء في الكيان هي الرّوح الكُلّيّة الأزَليّة الأبدية المملوء بالجمال والمحبة .

وسلمى كرامة لم تكن تعرف أمّها لأنها ماتت وهي طفلة ، وقد شهقت مُتأثّرة عندما رأت رَسْمَها ونادتها : « يا أمّاه !» قَسْرَ إرادتها ؛ لأن لفظة الأم تختبئ في قلوبنا ، مثلما تختبئ النّواة في قلب الأرض ، وتنبثق من بين شِفاهنا في ساعات الحُزْن والفَرح ، كما يتصاعد العِطْر من قَلْبِ الوردة في الفضاء الصّافي والمُطِر .

كانت سلمى تُحَدِّق برسم أمها ثم تُقَبِّله بلَهْفة

---

(١) الغِبطة : أن يتمنى المرء مثل ما عند غيره من النعمة ، دون أن يريد زوالها . (٢) كل الذي وُلِد ، للذكر والأنثى .

ثم تَلُزُّه [١] إلى صدرها الخَفوق ، ثم تتأوَّه مُتَنَهِّدَةً ، ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من قُواها . حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هَوَت وسقطت بجانب سرير أبيها ، فوضع كلتا يديه على رأسها قائلاً : « قد أريتك يا ولدي شَبَحَ أمك على صفحة من الورق ، فأصغي إلي لأُسْمِعَكِ أقوالها .»

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفِراخ في العُشّ عندما تسمع حَفيف أجنحة العصفورة بين القُضبان ، ونظرت إليه مُصْغِيَة صاغرة ، كأن ذاتها المعنوية قد استحالت إلى أعين مُحدقة وآذان واعية .

فقال والدها :

« كنت طفلة رضيعة عندما فقدتْ أمك والدَها الشيخ فحَزِنت لفقده ، وبكت بُكاء حكيم مُتَجَلِّد . [٢] ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبي في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتيها وقالت : « قد مات والدي يا فارس ، وأنت باق لي ، وهذه هي تَعْزِيَتي . إن القلب بعواطفه المَتَشَعِّبة يماثل الأَرْزَة بأغصانها المتفرِّقة ، فإذا ما فقدَتْ شجرةُ الأرز غُصْنًا قويًّا تتألم ولكنها لا تموت ، بل تحوّل قواها الحيوية إلى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغَضَّة مكان الغصن المقطوع .» هذا ما قالته والدتك يا سلمى عندما مات أبوها ، وهذا ما يجب عليك أن تقوليه عندما يأخذ الموت جسدي إلى راحة القبر ، وروحي إلى ظل الله .»

فأجابت سلمى مُتَفَجِّعَة : « فقدتْ أمي والدها فبقيت أنت لها ، فمَنْ يبقى لي إذا فقدتك ، يا والدي ؟ مات والدها وهي في ظِلال زوج مُحِبّ فاضل أمين . مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأسها الصغير بثدييها ، وتطوِّق عنقَها بذراعيها ، فمَنْ يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ أنت أبيَ وأمي ورفيق حداثتي ومُهَذِّب شبيبتي ، فبِمَنْ أستعيض إذا ما ذهبت عني ؟»

قالت هذا وحوَّلت عينيها الدَّامِعَتَيْن نحوي ، وأمسكت بيمينها طرف ثوبي ثم قالت :

« ليس لي غير هذا الصديق يا والدي ، ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتني ، فهل أتعزّى به وهو مُتَعَذِّب مثلي ؟ هل يتعزّى كسيرُ القلب بالقلب الكسير ؟ إن الحزينة لا تتصبَّر بحزن جارتها ، كما أن الحمامة لا تطير بأجنحة مكسورة . هو رفيق لنفسي ، ولكنني قد أثقلت عاتِقَه بأشجاني حتى لويت ظهره وسَمَلْتُ [٣] عينيه بَعَبراتي فلم يعد يرى غير الظُّلمة . هو أخ أحبه ويحبني ، مثل جميع الإخوة يشترك بالمصيبة ولا يخفِّفها ، ويساعد بالبكاء فيزيد الدَّمْعَ مرارةً والقلبَ احتراقًا .»

كنت أسمع سلمى مُتَكَلِّمة ، وعواطفي تنمو وصدري يضيق ، حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجَّر حناجرَ وفُوّهات . أما الشيخ فكان ينظر إليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند ، ونفسه المُتْعَبَة ترتجف كشُعْلة السِّراج أمام الريح ، ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء :

« دعني أذهب بسلام ، يا ولدي . لقد لمحت عيناي ما وراء الغيوم فلم أحوِّلهما نحو هذه الكهوف . دعيني أطير فقد كسَّرت بأجنحتي قضبان هذا القفص . قد نادتني أمك يا سلمى فلا توقفيني . ها قد طابَ الرِّيح ، وتبدَّد الضَّباب عن وجه البحر ، فرفعت السَّفينةُ شِراعَها وتأهَّبت للمسير ، فلا توقفيها ولا تنزعي دَفَّتها . دعي جسدي يرقد مع الذين رقدوا ، ودعي روحي تستيقظ ؛ لأن الفجر قد لاح والحُلْم قد انتهى . قبلي روحي بروحك ، قبليني قبلة رجاء وأمل ، ولا تسكبي قطرة من مرارة الحُزْن على جسدي ؛ لِئَلا تمنع الأعشاب والأزهار عن امتصاص عناصره . ولا تذرفي دموع اليأس على يدي لأنها تنبت شوكًا على قبري . ولا تَرْسُمي بزَفَرات الأسى سطرًا على جبهتي ؛ لأن نسيم السَّحَر يمر ويقرأه فلا يحمل غُبار عظامي إلى المروج الخضراء . قد أحبَبْتك

(١) تَلُزُّه : تضمه . (٢) مُتَجَلِّد : صابر . (٣) سَمَلْتُ : فقأتُ .

بالحياة يا ولدي ، وسوف أحبك بالموت فتظل روحي قريبة منك لتَحميك وترعاك ».

والتفت الشيخ إليَّ وقد انطبقت أجفانه قليلاً ، فلم أعد أرى سوى خَطّين رماديّين مكان عينيه ، ثم قال وسكينة الفَناء تَستَرِق ألفاظه : « أما أنت يا بُني فكن أخاً لسلمى مثلما كان والدك لي . كن قريباً منها في ساعات الشدّة ، وكن صديقاً لها حتى النهاية . ولا تدعها تَحْزَن ؛ لأن الحزن على الأموات غلطة من غلطات الأجيال الغابرة . بل اتلُ على مسمعيها أحاديث الفرح ، وأنشِدْها أغاني الحياة فتسلو وتَتَناسَى . قل لأبيك أن يذكرني . سَلْهُ فيخبرك عن مآتي أيامي عندما كان الشّباب يُحلّق بنا إلى الغيوم . قل له إنني أحبَبْتُهُ بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي ».

وسكت دقيقة وظلّت أشباح ألفاظه تدب على جدران الغرفة ، ثم عاد فنظر إليّ وإلى سلمى بوقت واحد ، وقال همساً : « لا تدعوا طبيباً ليطيل بمساحيقه ساعات سجني ؛ لأن أيام العُبوديّة قد مضت فطلبت روحي حرّيّة الفضاء . ولا تدعوا كاهناً إلى جانب فراشي ؛ لأن « تعازيمه » لا تُكفّر عن ذنوبي إن كنت خاطئاً . ولا تُسْرِع بي إلى الجنة إن كنت باراً . إن إرادة البشر لا تُغَيِّر مشيئة الله ، كما أن المنَجّمين لا يحوّلون مَسير النجوم . أما بعد موتي فليفعل الأطباء والكُهّان ما شاءوا ، فاللُّجّة تنادي اللُّجّة ، أما السَّفينة فتظل سائرة حتى تبلغ السّاحل ».

عندما انتصف ذلك الليل المخيف فتح فارس كرامة عينيه الغارقَتَيْن في ظُلمة النّزاع ، فتحهما لآخر مرة ، وحوّلهما نحو ابنته الجاثِيَة بجانب مَضْجَعِه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع ؛ لأن الموت كان قد تشرّب صوته فخرجت هذه الألفاظ لُهاثاً عميقاً من بين شفتيه : « ها قد ذهب الليل ، وجاء الصّباح . يا سلمى .. يا .. يا سلمى ».

ثم نكّس رأسه ، وابْيَضّ وجهه ، وابتسمت شفتاه ، وأسْلَمَ الرّوح .

ومدّت سلمى يدَها ولمست يد والدها ، فوجَدَتْها باردة كالثّلج ، فرفعت رأسها ونظرت إليه ، فرأت وجهه مُبَرْقَعاً بنِقاب الموت ، فجمدت الحياة في جسدها ، وجفت الدموع في محاجرها فلم تتحرّك ، ولم تصرخ ولم تتأوّه ، بل بقيت مُحَدِّقة به بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت أعضاؤها مثلما تتراخى طيّات الثّوب البَليل ، وهبطت حتى لمست جبهتها الأرض ثم قالت بهدوء : « أشْفِق يا رب وشدّد جميع الأجنحة المكسورة ».

مات فارس كرامة وعانقت الأبديّةُ روحه ، واسترجع التُّراب جسده ، واستولى منصور بك على أمواله ، وظلت ابنته أسيرة تعاستها ، ترى الحياةَ مأساةً هائلة تُمثِّلها المخاوف أمام عينيها .

أما أنا فكنت ضائعاً بين أحلامي وهواجسي ، تَتَناوبني الأيام والليالي ، مثلما تَتَناوَبُ [1] النُّسور والعُقْبان لُحْمان [2] الفريسة . فكم حاولت أن أفقد ذاتي بين صفحات الكُتُب ؛ لعلني استأْنِس بخيالات الذين طواهم الدّهر ، وكم جَرّبْتُ أن أنسى حاضري لأعود بقراءة الأسفار إلى مسارح الأجيال الغابرة فلم يُجْدِني [3] كل ذلك نفعاً ، بل كنت كمَن يحاول إخماد النار بالزّيْت ؛ لأنني لم أكن أرى من مواكب الأجيال سوى أشباحها السّوداء ، ولا أسمع من أنغام الأمم غير النّدْب والنُّواح . فسِفْرُ أيوب كان عندي أجمل من مزامير داود ، ومراثي أرميا كانت أحبَّ لديَّ من نشيد سليمان ، ونَكْبَة البرامِكَة أشدّ وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين ، وقصيدة ابن زُرَيْق أكثر تأثيراً من رُباعيّات الخيّام ، ورواية هملت أقرب إلى قلبي من كل ما كتبه الإفرنج .

كذا يُضْعِفُ القنوط بصيرتَنا فلا نرى غير أشباحنا الرّهيبة ، وهكذا يُصِمُّ اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة .

---

(١) في الأصل : تتناب . (٢) لُحْمان : جمع لحم .
(٣) يُجْدِني : يفدْني .

بين عشتروت والمسيح

بين تلك البساتين والتّلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال لبنان ، يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزّيتون واللّوز والصّفصاف . ومع أن هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المرْكَبات فقد قَلّ من عرفه من مُحِبّي الآثار والخرائب القديمة ، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة في سوريا مُختَبِئ وراء ستائر الإهمال ، فكأن الإهمال قد أبقاه محجوباً عن عيون الأثريين ليجعله خلْوَةً لنفوس المتْعَبين ومَزاراً للمُحَبّين والمستَوْحشين .

والدّاخل إلى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشّرقي منه صورة فينيقيّة الشّواهد والبيئات ، محفورة في الصّخر قد مَحَت أصابع الدهر بعض خطوطها ، ولوّنت الفصول معالمها . وهي تمثّل عشتروت ربة الحب والجمال جالسة على عرش فَخْم ومِنْ حولها سبع عَذارَى عاريات واقفات بهيئات مختلفة . فالواحدة منهن تحمل مِشْعالاً والثّانية قيثارَة ، والثّالثة مِبْخَرة ، والرّابعة جَرّة من الخمر ، والخامسة غُصْناً من الورد ، والسادسة إكليلاً من الغار ، والسّابعة قوساً وسهاماً ، وجميعهن ناظرات إلى عشتروت وعلى وجوههن سيماءُ [١] الخضوع والامتثال .

وعلى الجدار الثاني صورة أخرى ، أحدث عَهْداً وأكثر ظهوراً ، تمثّل يسوع النّاصري مصلوباً ، و إلى جانبه أمه الحزينة ، ومريم المجْدليّة وامرأتان ثانيتان تَنْتَحِبان . وهذه الصّورة البيزَنْطِيّة الأسلوب والقرائن ، تدل على كونها حُفِرَت في القرن الخامس أو السادس للمسيح .

وفي الجدار الغربي كُوّتان [٢] مُستَديرتان ، يدخل منهما شُعاع الشمس عند أصيل النهار ، وينسكب على الصّورتين فتظهران كأنهما قد طُلِيَتا بماء الذّهَب .

وفي وسط المعبد حَجَر من الرُّخام مُرَبّع الشّكْل ، على جوانبه نقوش و وسامات قديمة الطّراز ، قد انحجب بعضها تحت كُتَلات مُتَحَجِّرة من الدّماء ، تدل على أن الأقدمين كانوا يَنْحَرون ذبائحهم على هذا الحجر ، ويصبّون فوقه قَرابين الخمر والعِطْر والزّيت .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سَكينة عميقة تعانق النّفْس ، وهَيْبة سحرية تُبيح بتموُّجاتها أسرار الآلهة ، وتتكلّم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشُّعوب من حالة إلى حالة ، ومن دين إلى دين . وتستميل الشّاعر إلى عالم بعيد عن هذا العالم ، وتُقنع الفيلسوف بأن الإنسان مخلوق ديِّن [٣] ، يشعر بما لا يراه ويتخيّل ما لا تقع عليه حواسه ؛ فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خَفايا نفسه ، ويُجَسِّم خياله بالكلام والأنغام والصور والتماثيل التي تظهر بأشكالها أقدس أمياله في الحياة وأجمل مُشْتَهياته بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي بسلمى كرامة مرة في الشّهر ، فنصرف السّاعات الطّوال ناظرين إلى الصّورتين الغريبَتَيْن ، مُفَكِّرين بفتى الأجيال المصلوب فوق الجلجلة ، مُستَحْضِرين إلى مُخَيِّلَتِنا أشباح الفتيان والصّبايا الفينيقيين ، الذين عاشوا وعَشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت ، فحرقوا البخور أمام تماثيلها وهَرَقوا الطِّيوب على مذابحها ، ثم طَوَتهم الأرض فلم يبق منهم سوى اسم تُرَدّده الأيام أمام وجه الأبديّة .

كم يصعب عليّ الآن أن أدوّن بالكلام ذكرى تلك السّاعات التي كانت تجمعني بسلمى – تلك السّاعات العُلْوية المُكْتَنَفَة باللّذّة والألم ، والفرح والحزن ، والأمل واليأس ، وكل ما يجعل الإنسان إنساناً والحياة لغزاً أبديّاً . ولكن كم يصعُب عليّ أن أذكرها ولا أرسم بالكلام الضئيل خيالاً من خيالاتها

(١) سيماءُ : علامة . (٢) كُوّتان : فُتحتان .

(٣) ديِّن : متديِّن بفطرته .

ليبقى مَثلاً لأبناء الحب والكآبة .

كُنّا نختلي في ذلك الهيكل القديم ، فنجلس في بابه سانِدين ظَهْرَيْنا إلى جداره ، مُرَدِّدين صدى ماضينا ، مُستَقْصِيين مآتي حاضرنا ، خائفين مستقبلنا . ثم نتدرَّج إلى إظهار ما في أعماق نَفْسَيْنا فيشكو كلٌّ مِنّا لوْعَتَه وحُرْقَة قلبه وما يقاسيه من الجَزَع والحسرة ، ثم يُصَبِّر واحدنا الآخر باسِطًا أمامه كل ما في جيوب الأمل من الأوهام المفْرِحة والأحلام العَذْبة فيهدأ رَوْعنا [١] ، وتجفّ دموعنا ، وتنفرج ملامحنا ، ثم نبتسم مُتَناسيين كل شيء سوى الحب وأفراحه ، مُنْصَرِفين عن كل أمر إلا النفس وأميالها .

ثم نتعانَق فنذوب شغَفًا وهيامًا ، ثم تُقَبِّل سلمى مَفْرِق شعري بطُهْر وانعطاف ، فتملأ قلبي شعاعًا ، وأقبِّل أطراف أصابعها البيضاء ، فتُغْمض عينيها وتلوي عنقها العاجي ، وتتورَّد وجنتاها باحمرار لطيف يشابه الأشعة الأولى يلقيها الفجر على جباه الروابي ، ثم نسكتُ وننظر طويلاً نحو الشَّفَق البعيد حيث الغيوم المتلوِّنة بأنوار المغرِب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مُقْتَصِرَة على مُبادَلة العواطف وبَثّ الشكوى ، بل كنا ننتقل على غير معرفة مِنّا إلى العُموميّات ، فنتبادل الآراء والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب . ونتباحث في مرامي الكتب التي كُنّا نقرأها ، ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوي عليه من الصور الخيالية والمبادئ الاجتماعية . فتتكلّم سلمى عن منزلة المرأة في الجامِعَة البشرية ، وعن تأثير الأجيال الغابرة على أخلاقها وميولها ، وعن العلاقة الزَّوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والمفاسد ، وإني أذكر قولها مرة :

« إن الكُتّاب والشُّعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ، ولكنهم للآن لم يفهموا أسرار قلبها ومُخَبّآت صدرها ؛ لأنهم ينظرون إليها من وراء نِقاب الشَّهوات ، فلا يرون غير خطوط جسدها أو يضعونها

(١) رَوْعنا : خوفنا .

تحت مُكَبِّرات الكُرْه فلا يجدون فيها غير الضَّعْف والاستسلام .»

وقولها لي مرة أخرى ، وقد أشارت بيدها إلى الرَّسمين المحفورين على جُدران الهيكل :

« في قلب هذه الصَّخرة قد نقشت الأجيال رَمْزَيْن يُظهران خُلاصة أميال المرأة ، ويَسْتَجْلِيان [٢] غوامض نفسها المتراوحَة بين الحب والحزن ، بين الانعطاف والتضحية ، بين عشتروت الجالسة على العَرْش ، ومريم الواقفة أمام الصَّليب . إنّ الرجل يشتري المجد والعَظَمة والشهرة ، ولكن هي المرأة التي تدفع الثَّمن .»

ولم يدْرِ باجتماعاتنا السِّرِّيَّة أحدٌ سوى الله وأسراب العصافير المتطايرَة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها إلى المكان المدعو بحديقة الباشا ، ثم تسير الهوَيْنا على الممرّات المنفرِدَة ، حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مُسْتَنِدَة على مظلتها ، وعلى وجهها لوائح الأمن والطُّمأنينة فتجدني مُنْتَظِرًا مُتَرَقِّبًا مُشتاقًا بكل ما في الشَّوق من الجوع والعطش .

ولم نَخَفْ قَطُّ عينَ الرَّقيب ، ولا شعرنا بوَخْز الضَّمير ؛ لأن النَّفْس إذا تطهَّرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفّع عَمّا يدعوه الناس عيبًا وعارًا ، وتتحرَّر من عبودية الشَّرائع والنَّواميس التي سَنَّتها التَّقاليد لعواطف القلب البشري ، وتقف برأس مرفوع أمام عروس الآلهة .

إن الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرنًا إلى الشَّرائع الفاسدة ، فلم تعد قادِرَة على إدراك معاني النَّواميس العُلْوية الأولية الخالدة . قد تعوَّدت بصيرة الإنسان النَّظَرَ إلى ضوء الشُّموع الضَّئيلة ، فلم تعد تستطيع أن تُحَدِّق بنور الشمس . لقد توارَثَت الأجيالُ الأمراضَ والعاهات النَّفْسيَّة بعضها عن بعض حتى أصبحت عمومية ، بل صارت من الصِّفات الملازمة للإنسان ، فلم يَعُد الناس ينظرون إليها كعاهات وأمراض ، بل يعتبرونها كخِلال [٣] طبيعية نبيلة أنزلها

(٢) يَسْتَجْلِيان : يوضحان . (٣) خِلال : صفات .

الله على آدم ، فإذا ما ظهر بينهم فَرْدٌ خالٍ منها ظنّوه ناقصاً محروماً من الكمالات الرّوحيّة .

أما الذين سيَعيبون سلمى كرامة ، مُحاولين تلويث اسمها ؛ لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتَختَلِيَ برجل آخر ، فهم من السُّقَماء الضُّعفاء ، الذين يحسبون الأصِحّاء مُجْرمين ، وكبار النُّفوس متمردين ، بل هم كالحشرات التي تَدِبّ في الظُّلمة وتخشى الخروج إلى نور النّهار كيلا تدوسها أقدام العابرين .

إن السّجين المظلوم الذي يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً ، وسلمى كرامة كانت سجينة مظلومة ، ولم تستطع الانعتاق ، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السّجن إلى الحقول الخضراء والفضاء الوسيع ؟ هل يحسبها النّاس خائنة لأنها كانت تجيء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت المقدّسة والجبّار المصلوب ؟

ليقُل النّاسُ ما شاءوا ؛ فسلمى قد اجتازت المسْتَنْقَعات التي تغمر أرواحهم ، وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عُواء [١] الذّئاب وفحيح الأفاعي . وليقُل النّاس ما أرادوا عنّي ، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تَذْعَرُها [٢] وجوه اللصوص ، والجندي الذي رأى السيوف مُحْتَبِكَة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه — لا يحْفِل بالحجارة التي يَرْشُقه بها صِبْيانُ الأزقة .

* * *

التّضْحِيَة

ففي يوم من أواخر حَزيران [٣] ، وقد ثقُلَت وطأةُ الحَرّ في السّواحل ، وطلب النّاس أعالي الجبال ، سِرْت كعادتي نحو ذلك المعبد واعداً نفسي بلقاء سلمى ، حاملاً بيدي كتاباً صغيراً من الموشّحات الأندلسية ، التي كانت في ذلك العهد ولم تزل إلى الآن تستميل روحي .

بلغت المعبد عند الأصيل ، فجلست أرقب الطريق المنْسابَة بين أشجار اللّيْمون والصّفْصاف ، وأنظر من وقت إلى آخر إلى وجه كتابي هامساً في مسامع الأثير أبيات المَوَشّحات التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبها و رَنّة أوزانها ، وتعيد إلى النّفْس ذكرى أمجاد الملوك والشُّعراء والفُرْسان الذين وَدّعوا غَرْناطة وقُرْطُبة وأشبيلية ، تاركين في قصورها ومعاهدها وحدائقها كل ما في أرواحهم من الآمال والأميال ، ثم توارَوْا وراء حُجُب الدّهر والدّمْع في أجفانهم والحسرة في أكبادهم .

وبعد ساعة التفتُّ فإذا بسلمى تَميس [٤] بقدّها النّحيل بين الأشجار المحتبِكَة ، وتقترب نحوي مُسْتَنِدَة على مظلّتها كأنها تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب . ولمّا بلغت باب الهيكل وجلستْ بقربي نظرت إلى عينيها الكبيرتين ، فرأيت فيهما معاني وأسراراً جديدة غريبة توحي التّحَذُّر والانتباه ، وتثير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت سلمى بما يجول في خاطري ، فلم تشأ أن يطول الصِّراع بين ظنوني وهواجسي ، فوضعت يدها على شعري وقالت :

« اقترب مني ، اقترب مني يا حبيبي اقترب ، ودَعْني أزَوِّد نفسي منك ؛ فقد دنت السّاعة التي تُفَرِّقنا إلى الأبد .»

فصرختُ قائلاً : « ماذا تعنين ، يا سلمى ؟ وأية قوة تستطيع أن تُفَرِّقنا إلى الأبد ؟»

فأجابت : « إن القوة العمياء التي فرّقتْنا بالأمس ستُفَرِّقنا اليوم . القوة الخرساء التي تتّخذ الشّرائع البشرية تُرْجُماناً عنها قد بَنَت بأيدي عبيد الحياة حاجِزاً منيعاً بيني وبينك . القوّة التي أوجدت

(١) في الأصل : عوي . (٢) تذْعَرُها : تخيفها .
(٣) حَزيران : شهر يونيه .
(٤) تَميس : تختال .

الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح النّاس قد حتّمَتْ عليّ أن لا أخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجماجم ».

فسألتها قائلاً : « هل عَلِم زوجك باجتماعاتنا ؛ فصِرْت تخشين غَضَبه وانتقامه ؟»

فأجابت : « إن زوجي لا يحفِل بي ولا يدري كيف أصرف أيامي ؛ فهو مشغول عني بأولئك الصبايا المِسْكينات اللواتي تقودهن الفاقَةُ إلى أسواق النّخّاسين فيتعطّرن ويتكحّلن ليَبِعْن أجسادهن بالخبز المعجون بالدّماء والدموع ».

فقلت : « إذاً ماذا يَصدّك عن المجيء إلى هذا المعبد والجلوس بجانبي أمام هيبة الله وأشباح الأجيال ؟ هل مَلِلْت النّظَر إلى خفايا نفسي ، فطلبتْ روحك الوداعَ والتّفريق ؟»

فأجابت والدمع يُراود أجفانها : « لا يا حبيبي . إن روحي لم تطلب فراقَك ؛ لأنك شطرها . ولا مَلّت عيناي النّظر إليك لأنك نورهما . ولكن إذا كان القضاء قَدْ حكَم عليّ أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود والسّلاسل ، فهل أرضَى بأن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي ؟»

فقلت : « تكلّمي يا سلمى ، وأخبريني عن كل شيء ، ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المُعَمّيات ». [1]

فأجابت : « لا أقدر أن أقول كل شيء ؛ لأن اللّسان الذي أخْرَسَتْه الأوجاع لا يتكلّم ، والشّفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك . وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أني أخاف عليك من الوقوع في شَرَك الذين نصبوا لي الحبائل [2] واصطادوني ».

فقلت : « ماذا تعنين ، يا سلمى ؟ ومن هم الذين تخافين عليّ منهم ؟»

فسترت وجهها بيديها وتأوّهت مُلْتاعَة ثم قالت مُتَرَدّدة : « إن المطران بولس غالب قد صار يعلم بأنني أخرج مرة في الشّهر من القبر الذي وضعني فيه ».

فقلت : « وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان ؟»

فأجابت : « لو علِم بذلك لما رأيتني الآن جالسة بقُرْبك . ولكن الشُّكوك تخامِرُه ، والظُّنون تتلاعب بأفكاره ، وقد بَثّ عليّ العيون لترقبني وأوعز إلى خَدمه ليتجسّسوا حركاتي ، حتى سِرْت أشعر بأن للمنزل الذي أسكنه والطُّرقات التي أسير عليها نواظِرَ تُحَدِّق بي ، وأصابع تشير إليّ ، وآذاناً [3] تسمع همس أفكاري ».

وأطرقتْ هُنَيْهَة ثم زادت والدّمْع ينسكب على وَجْنَتَيْها : « أنا لا أخاف على نفسي من المطران ؛ لأن الغريق لا يخشى البَلَل ، ولكنني أخاف عليك ، وأنت حر كنور الشّمس ، أن تقع مثلي في أشراكه ، فيقبض عليك بأظافره وينهشك بأنيابه . أنا لا أخاف من الدّهر ؛ لأنه أفرغ جميع سِهامه في صدري ، ولكنني أخاف عليك ، وأنت في ربيع العُمر ، أن تَلْسَع الأفعى قَدَمَيْك وتوقفك عن المسير نحو قِمّة الجبل ، حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده ».

فقلت : « إن من لا تلسعه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليالي يظلُّ مغروراً بالأيام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمى ، اسمعيني جيّداً ؛ أ ليس أمامنا غير الفراق لنتّقي صَغارَة الناس وشرورهم ؟ هل سُدّت أمامنا سُبُل الحب والحياة والحرّيّة فلم يبق غير الاستسلام إلى مشيئة عبيد الموت ؟»

فأجابت بلهجة يُساورها القنوط والحَسْرة : « لم يبق أمامنا غير الوداع والتّفرُّق ».

فأخذت يدها وقد تمرّدَت روحي في داخلي ، وتبدّد الدُّخَان عن شُعْلة فُتُوّتي فقلت مُتَهَيّجاً : « لقد استسلمنا طويلاً إلى أهواء الناس يا سلمى . منذ تلك السّاعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن نَنْقادُ إلى العِميان ونركع أمام أصنامهم .. مُذْ عَرَفْتُك ونحن

(١) المُعَمّيات : من الكلام ما عُمّي معناه وخفي .
(٢) الحبائل : جمع حِبالة ، وهي المصيدة .
(٣) في الأصل : آذان .

في يد المطران بولس غالب مثل كُرَتَيْن يلعب بنا كيفما أراد ، ويقذفنا حيثما شاء ؛ فهل نبقى خاضعين لديه ، مُحَدِّقين بظلمة نفسه حتى يلوكنا القبر وتبتلعنا الأرض ؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت ؟ وأعطانا الحرية لنجعلها ظِلًّا للاستعباد ؟ إن من يخمد نار نفسه بيده يكون كافرًا بالسماء التي أوقدتها ، ومن يصبر على الضَّيْم ولا يتمرَّد على الظُّلْم يكون حليف الباطل على الحق ، وشريك السَّفّاحين بقتل الأبرياء .

« وقد أحببتك ، يا سلمى ، وأحببتني ، والحبُّ كَنْزٌ ثمين يودعه الله النَّفْس الكبيرة الحسّاسة ، فهل نرمي بكنزنا إلى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها ؟ أمامنا العالم مسرحًا وسيعًا مملوءًا بالمحاسن والغرائب ، فلماذا نسكن في هذا النَّفَق الضيّق الذي حفره المطران وأعوانه ؟ أمامنا الحياة وما في الحياة من الحرية ، وما في الحياة من الغِبْطة والسعادة ؛ فلماذا لا نَخْلَع النِّير الثَّقيل عن عاتِقَيْنا ، ونَكْسِر القيود الموثوقة [1] بأرجلنا ونسير إلى حيث الراحة والطمأنينة ؟

« قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصَّغير إلى هيكل الله الأعظم . هَلُمّي نرحل من هذه البلاد ، وما فيها من العبودية والغَباوة ، إلى بلاد بعيدة لا تَطالها أيدي اللصوص ، ولا يبلغها لُهاث الأبالسة . تعالَيْ نسرع إلى الشاطئ مُسْتَتِرين بوشاح الليل فنعتلي سفينة تُقِلُّنا إلى ما وراء البحار ، وهناك نحيا حياة جديدة مُكْتَنَفَة بالطُّهر والتَّفاهم ، فلا تنفثنا [2] الثَّعابين بأنفاسها ، ولا تدوسنا الضواري [3] بأقدامها . لا تتَرَدَّدي يا سلمى ؛ فهذه الدقائق أثمن من تيجان الملوك وأسمى من سائر الملائكة . قومي نتْبع عمود النور فيقودنا من هذه الصَّحراء القاحِلَة إلى حقول تُنْبت الأزاهر والرَّياحين .»

فهزَّت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفتيها ابتسامة مُحْزِنَة تُعلن ما في داخل نفسها من الشِّدَّة والألم ، ثم قالت بهدوء :

« لا ، لا يا حبيبي . إن السماء قد وضعت في يدي كأسًا مُفْعَمَة بالخَلّ والعَلْقَم ، وقد تجرَّعْتها صِرْفًا [4] ، ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها مُتَجَلِّدة لأرى ما في قَعْر الكأس من الأسرار والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العُلْوية المُكْتَنَفَة بالمحبة والراحة والطمأنينة فأنا لا أستحِقُّها ولا أقوى على احتمال أفراحها ومَلذّاتها ؛ لأن الطائر المكسور الجناحين يَدِبُّ مُتَنَقِّلاً بين الصخور ، ولكنه لا يستطيع أن يسبح مُحَلِّقًا في الفضاء ، والعيون الرَّمْداء [5] تُحَدِّق بالأشياء الضَّئيلة ، ولكنها لا تَقْوى على النَّظَر إلى الأنوار السّاطعة ، فلا تحدثني عن السَّعادة لأن ذِكْرَها يؤلمني كالتَّعاسة ، ولا تُصَوِّر لي الهناء لأن ظِلَّه يخيفني كالشَّقاء .

« ولكن انظر إليَّ لأريكَ الشُّعلة المقدَّسة التي أوقدتها السَّماء بين رَماد صدري . أنت تعلم بأنني أحبُّك محبَّة الأم وحيدها ، وهي المحبة التي علَّمتني أن أحميك حتى ومن نفسي . هي المحبَّة المطهَّرَة بالنار التي توقفني الآن عن اتِّباعك إلى أقاصي الأرض ، وتجعلني أميت عواطفي وأميالي ؛ لكي تحيا أنت حُرًّا نزيهًا ، وتظل في مأمن من لوم الناس وتَقَوُّلاتهم الفاسدة . إن المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب ، أما المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . المحبة التي تجيء بين يقظة الشباب وغَفْلته تستكفي باللِّقاء وتقنع بالوَصْل وتنمو بالقُبَل والأعناق ، أما المحبة التي تولَد في أحضان اللانهاية ، وتهبط مع أسرار الليل ، فلا تقنع بغير الأبدية ، ولا تستكفي بغير الخلود ، ولا تقف مُتَهَيِّبَة

(١) من وثق (بضم الثاء) قوي وصار مُحكمًا .
(٢) تنفث : ترمي .
(٣) الضواري : من السباع المولع بأكل اللحم .

(٤) صِرْفًا : خالصة .
(٥) الرَّمْداء : المصابة بالرمد .

أمام شيء سوى الألوهية .

« عندما عرفت بالأمس بأن المطران بولس غالب يريد أن يمنعني عن الخروج من منزل ابن أخيه ، ويسلبني اللذّة الوحيدة التي عرفتها منذ تزوجت ، وقفت أمام نافذة غرفتي ، ونظرت نحو البحر مُفكّرة بما وراءه من البلاد الوسيعة والحرية المعنوية والاستقلال الشخصي ، وتخيّلت نفسي عائشة بقُرْبك مُحاطة بخيالات روحك ، مَغْمورة بانعطافك . ولكن هذه الأحلام التي تُنير صدور النّساء المظلومات ، وتجعلهن يتمرّدْن [١] على التّقاليد الباطلة ليعِشْن في ظل الحق والحريّة ، لم تمرَّ في خاطري حتى جعلتني أستصغر [٢] نفسي وأستضعفها ، وأرى [٣] مَحبّتنا واهية مُحَدَّدة ، لا تستطيع الوقوف أمام وجه الشمس ؛ فبكيت بكاءَ مَلِكٍ أضاع مُلْكَه وغَنِيٍّ فقد كنوزه . ولكنني ما لبثت أن رأيت وجهك من خلال دموعي ، وأبصرت عينيك مُحَدِّقتين بي ، فتذكرتُ ما قلته لي مرة ، وهو : « هلميَّ يا سلمى نقف أمام الأعداء مُتَلَقّين شِفار السّيوف بصدورنا ، فإن صُرِعْنا نمنا كالشُّهداء ، وإن تغلّبنا نعِشْ كالأبطال ؛ لأن عذاب النّفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة . » هذه الكلمات قلتَها لي ، يا حبيبي ، عندما كانت أجنحة الموت تُرَفْرِف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتُها بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تُصَفّق حول رأسي ، فتقوّيت وتشجّعْتُ ، وشعرت وأنا في ظُلْمة السّجن بنوع من الحريّة النّفْسِيَّة التي تَسْتَهْوِنُ الشّدائد وتَسْتَصْغِرُ الأحزان . ورأيت حُبّنا عميقاً كالبحر ، عالياً كالنّجوم ، مُتّسِعاً كالفضاء .

« وقد جئت اليوم إليك وفي نفسي المتوجّعة المنهوكة قوّة جديدة ، وهي المقدرة على تضحية الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم ؛ تضحية سعادتي بقُرْبك لكي تبقى أنت شريفاً بعُرْف الناس ، بعيداً عن غدرهم واضطهادهم . كنت أجيء بالأمس إلى هذا المكان والقيود الثّقيلة تَغُلّ قدميَّ الضعيفتين، أما اليوم فقد جئت شاعِرَةً بعَزْمٍ يَهْزَأ بثقل القيود ويستقصر الطّريق . كنت أجيء مثل طَيْف طارق خائف ، أما اليوم فقد جئت مثل امرأة حيّة تشعر بوجوب التّضحية وتعرف قيمة الأوجاع ، وتريد أن تحمي مَنْ تحبه من النّاس الأغبياء ومن نفسها الجائعة . كنت أجلس حِذاءك [٤] مثل ظِلٍّ مُرْتَجِف، وقد أتيت اليوم لأريكَ حقيقتي أمام عشتروت المقدّسة ويسوع المصلوب . أنا شجرة نابِتَة في الظل ، وقد مددت أغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور النهار . قد جئت لأودّعك يا حبيبي ، فليكن وداعُنا عظيماً وهائلاً مثل حُبّنا . ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذّهب لتجعله أشد لمعاناً .»

ولم تترك لي سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج ، بل نظرت إليَّ وقد أبرقت عيناها فأحاطت أشعتها بوجداني ، واتّشَحَت ملامح وجهها بنقاب من الهَيْبة والجَلال فبانت كمَليكة توحي الصّمت والتّخَشُّع . ثم ارتمت على صدري بانعطاف كُلّيٍّ ، ما عهدته فيها قبل تلك الساعة . وطوّقت عنقي بزِنْدها الأملس ، وقبّلت شفتيَّ قُبْلة طويلة عميقة مُحْرِقة ، أيقظت الحياة في جسدي ، وأثارت الأسرار الخفيّة في نفسي ، وجعلت الذّات الوضعية ، التي أدعوها (أنا) [٥] تتمرّد على العالم بأسْرِه ؛ لتخضع صامتة أمام النّاموس العلوي الذي اتّخذ صدر سلمى هيكلاً ، ونفسها مَذْبحاً .

ولما غربت الشمس وَامّحَتْ أشعّتها الأخيرة عن تلك الحدائق والبساتين ، انتفضت سلمى و وقفت في وسط الهيكل ، ونظرت طويلاً إلى جدرانه وزواياه ، كأنها تريد أن تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه ، ثم تقدّمت قليلاً وجَثَت خاشعة أمام صورة يسوع وقبّلت قدميه المكلومَتَيْن [٦] مَرّات متوالية ثم همست

(١) في الأصل : أن يتمرّدن . (٢) في الأصل : أن أستصغر .
(٣) في الأصل : أن أرى .

(٤) حِذاءك : مقابلك . (٥) في الأصل : أن تتمرد .
(٦) المكلومَتان : المجْروحَتان .

قائلة :

« ها قد اخترتُ صليبك ، يا يسوع الناصري ، وتركت مَسَرّات عشتروت وأفراحها . قد كَلَّلت رأسي بالأشواك بدلاً من الغار ، واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطُّيوب ، وتجرَّعت الخَلَّ والعَلْقم بالكأس التي صُنِعَتْ للخمر والكوثر ، فاقبلني بين تابعيك الأقوياء بضَعْفهم ، وسَيِّرني نحو الجلجلة برُفْقَة مختاريك المستكفين بأوجاعهم ، المغبوطين على كآبة قلوبهم .»

ثم انتصبتْ والتفتت نحوي قائلة : « سأعود الآن فرِحَة إلى الكهف المظْلِم ، حيث تتراكض الأشباح المخيفة ، فلا تشفق عليَّ ، يا حبيبي ، ولا تحزن من أجلي ؛ لأن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة . والعين التي تَكْتَحِل بلمحة واحدة من الملأ الأعلى لا تُغْمِضُها أوجاعُ هذا العالم .»

وخرجتْ سلمى من ذاك المعبد مُلْتَفّة بملابسها الحريرية ، وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً إلى مسارح الرُّؤيا ، حيث تجلس الآلهة على العروش ، وتُدَوِّن الملائكة أعمال البشر ، وتتلو الأرواح مأساة الحياة ، وتترنَّم عرائسُ الخيال بأناشيد الحب والحزن والخلود .

ولما صَحَوْتُ من هذه السَّكْرَة ، وكان الليل قد غَمَرَ الوجود بأمواجه القاتمة ، وجدتني هائماً بين تلك البساتين ، مُسْتَرْجِعاً إلى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى ، مُعيداً إلى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس يديها . حتى إذا ما اتَّضحت لي حقيقة الوداع وما سيجيء بعده من ألم الوحشة ومرارة الشَّوق ، جمدت فِكْرتي ، وتَراخَتْ خيوط قلبي ، وعلمت للمرة الأولى بأن الإنسان — وإن ولد حُرًّا — يظلُّ عبداً لقساوة الشَّرائع التي سَنّها آباؤه وأجداده ، وأن القضاء الذي نتوهَّمه سِرًّا علويًّا هو استسلام اليوم إلى مآتي الأمس ، وخضوع الغد إلى أميال اليوم .

وكم مرَّة فكَّرْتُ منذ تلك الليلة إلى هذه السّاعة بالنَّواميس [١] النَّفسية التي جعلت سلمى [٢] تختار الموت بدلاً من الحياة . وكم مرة وضعتُ نَبالة التَّضحية بجانب سعادة المتمرِّدين لأرى أيهما أجَلُّ وأجمل ، ولكنني للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة ، وهي أن الإخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ، وسلمى كرامة كانت الإخلاص مُتَأَنِّساً [٣] ، وصِحَّة الاعتقاد مُتَجَسِّدة .

* * *

المنْقِذ

ومرَّت خمسة أعوام على زواج سلمى ، ولم تُرْزَق ولداً ليوجد بكيانه العَلاقة الرّوحية بينها وبين بَعْلها ، ويُقَرِّب بابتسامته نفسيهما المتنافِرَتَيْن ، مثلما يجمع الفجرُ بين أواخر الليل وأوائل النهار .

والمرأة العاقِرُ مكروهة في كل مكان ؛ لأن الأنانِيَةَ تصوِّر لأكثر الرجال دوامَ الحياة في أجساد الأبناء ، فيطلبون النَّسْل ليظلّوا خالِدين على الأرض .

إن الرَّجل المادي ينظر إلى زوجته العاقِر بالعين التي يرى بها الانتحار البطيء ، فيَمْقُتها ويهجرها ، ويطلب حَتْفَها ، كأنها عَدُوٌّ غدّار يريد الفَتْك به . ومنصور بك غالب كان ماديًّا كالتُّراب وقاسياً كالفولاذ وطامعاً كالمقبرة ، وكانت رغبته بابن يرث اسمه وسُؤْدَده تكرِّهه بسلمى المسكينة ، وتحوِّل محاسنها في عينيه إلى عيوب جهنمية .

إنَّ الشجرة التي تَنْبت في الكهف لا تعطي ثمراً ، وسلمى كرامة كانت في ظِلِّ الحياة فلم تُثْمِرْ أطفالاً . إن البلبل لا يحوك عُشًّا في القفص كيلا يورِّث العبودية لفراخه ؛ وسلمى كرامة كانت سجينة الشَّقاء ، فلم تقسم السماء حياتها إلى أسيرين . إن

(١) النواميس : القوانين أو الشرائع .
(٢) في الأصل : أن تختار .
(٣) مُتَأَنِّساً : في صورة الإنسان .

أزاهر الأودية هي أطفال يَلِدُها انعطاف الشّمس وشَغَف الطّبيعة ، وأطفال البشر أزاهر يَلِدُها الحب والحُنُوّ ؛ فسلمى كرامة لم تشعر قطُّ بأنفاس الحُنُوّ وملامس الانعطاف في ذلك المنزل الفَخْم النائم على شاطئ البحر في رأس بيروت ، ولكنها كانت تُصَلّي في سكينة الليالي ضارِعَة أمام السماء لتَبْعَث إليها بطفل يُجَفِّف بأصابعه الوردية دموعها ، ويزيل بنور عينيه خيال الموت عن قلبها .

وقد صلّت سلمى مُتَوَجِّعة حتى ملأت الفضاء صلاةً وابتهالاً ، وتضرّعت مُسْتَغيثَة حتى بَدّد صراخها الغُيوم ، فسمعت السّماء نداءها ، وبثّت في أحشائها نَغْمة مُخْتَمِرَة بالحلاوة والعُذوبة ، وأعَدّتها بعد خمسة أعوام من زواجها لتُصيرها أمًّا وتمحو ذلّها وعارها .

الشّجرة النابِتَة في الكهف قد أزهرت لتُثْمر .

البلبل المسجون في القفص قد هَمّ ليحوك عُشًّا من ريش جناحيه .

القيثارة التي طُرِحَت تحت الأقدام قد وُضعت في مَهَبّ نسيم المشرِق ليحَرّك بأمواجه ما بقي من أوتارها .

سلمى كرامة المِسْكينة قد مَدّت ذراعيها المُكَبّلَتَيْن بالسّلاسل لتقبل موهَبة [1] السّماء .

وليس بين أفراح الحياة ما يُضارع فرح المرأة العاقِر عندما تُهَيّئُها النّواميس الأزليّة لتُصَيّرها أمًّا . كل ما في يقظة الرّبيع من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسَرّة يجتمع بين أضلع المرأة التي أحرمها [2] الله ثم أعطاها .

لا يوجد نور أشد سطوعاً وأكثر لمعاناً من الأشعة التي يبعثها الجَنين السّجين في ظُلْمَة الأحشاء .

وكان نَيسان قد جاء مُتَنَقّلاً بين الروابي والمنحدرات ، عندما تمّت أيامُ سلمى لِتَلِدَ بِكْرَها ، وكأن الطّبيعة قد وافقتها وعاهدتها ، فأخذت تضع حمل أزاهرها وتَلُفّ بأقْمِطَة الحرارة أطفال الأعشاب والرّياحين .

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقّب الخَلاص ، مثلما يترقّب المسافرُ طلوعَ كوكب الصّباح . وتَنْظُرُ إلى المستَقْبَل من وراء دموعها فتراه مُشَعْشَعاً ، وقد طالما ظهرت الأشياء القاتِمة مُتَلَمّعة من خلال الدّموع .

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظّلام بين تلك المنازل في رأس بيروت ، انطرحت سلمى على مَضْجَع المخاض والأوجاع ، فانتصب الموت والحياة يتصارَعان بجانب فراشها ، و وقف الطّبيب والقابِلَة لِيُقَدّما إلى هذا العالم ضيفاً جديداً . وسكنَتْ حركة عابري الطّريق وانخفضت نَغْمة أمواج البحر ، ولم يَعُدْ يُسْمَعُ في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب . صراخ انفصال الحياة عن الحياة . صراخ مَحَبّة البقاء في فضاء اللاشيء والعدم . صراخ قوّة الإنسان المحدودة أمام سَكينة القوى غير المتَناهِيَة . صراخ سلمى الضّعيفة المنْطَرِحَة تحت أقدام جبّارين : الموت والحياة.

عندما لاح الفجْر ولدت سلمى ابناً ، ولما سمعت إهلالَه [3] فتحت عينيها المغلقتين بالألم ، ونظرت حواليها فرأت الأوجه مُتَهَلّلة في جوانب تلك الغرفة. ولما نظرت ثانية رأت الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقُرْب مَضْجَعِها فعادت وأغمضت عينيها ، وصرخت لأول مرة : « يا ولدي .»

ولفّت القابلة الطفلَ بالأقمطة الحريرية ، و وضعته حِذاء أمه . أما الطّبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ، ويهز رأسه صامتاً بين الدّقيقة والأخرى .

وأيقظت نَغْمَةُ الفرح بعض الجيران فجاءوا بملابس النوم ليهنئوا الوالد بولده . أما الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين نحو الوالِدَة وطفلها .

وأسرع الخَدَم نحو منصور بك ليبَشّروه بقدوم

(١) موهبة (بفتح الهاء) : العطية .

(٢) أحرمها : المقام للفعل حرَم .

(٣) إهلاله : صياحه .

وريثه ، ويملأوا أيديهم من عَطاياه . أما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين يائستين إلى سلمى وابنها .

ولما طلعت الشّمس قرّبت سلمى ولدَها من ثديها، ففتح عينيه لأول مرة ونظر في عينيها ، ثم اختَلَج [١] وأغمضهما لآخر مرة . فدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على وجنتيه دمعتان كبيرتان ، ثم همس في سره قائلاً : « هو زائر راحل ! »

مات الطّفل وسُكّان الحي يفرحون مع الوالد في القاعة الكُبرى ، ويشربون نَخْبَه [٢] ليعيش طويلاً ، وسلمى المسكينة تُحَدِّق بالطبيب وتصرخ قائلة :

« أعطني ولدي لأضمّه ! »

ثم تُحَدِّق ثانية فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها .

مات الطّفل ورَنّة الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي الفرحين بمجيئه .

وُلِدَ مع الفَجْر ومات عند طلوع الشّمس ! وُلِدَ مع الفَجْر ومات عند طلوع الشّمس ، فأيُّ بَشَري يستطيع أن يقيس الزّمن ليُخبِرَنا ماذا كانت السّاعة التي تمرّ بين مجيء الفجر وطلوع الشمس ؟ هي أقصر من الدّهْر الذي يمر بين ظهور الأمم وتواريها .

ولد كالفِكْر ، ومات كالتّنَهُّدة ، واختفى كالظّلّ؛ فأذاق سلمى كرامة طعم الأمومة ، ولكنه لم يَبْقَ ليُسْعِدَها ويزيل يد الموت عن قلبها .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النّهار ، فكانت مثل قطرة النّدى التي تسكبها أجفانُ الظّلام ثم تُجَفّفها ملامِسُ النّور .

كلِمَة لفَظَتْها النّواميس الأزليّة ، ثم نَدِمت عليها وأعادتها إلى سَكينة الأبدية .

لؤلؤة قَذَفَها المَدُّ إلى الشاطئ ، ثم جَرَفها الجَزْرُ إلى الأعماق .

زنبقة ما انبثقت من كِمام الحَياة ، حتى انسحقت تحت أقدام الموت .

ضيف عزيز ترقّبت سلمى قدومه ، ولكنه ما حَلّ حتى ارتحل ، وما فتح مِصْراعي الباب حتى اختفى .

جنين ما صار طفلاً حتى صار تُراباً . وهذه حياة الإنسان ، بل حياة الشُّعوب ، بل حياة الشُّموس والأقمار والكواكب .

وحوّلت سلمى عينيها نحو الطبيب وتَنَهَّدت بشوق جارح ، ثم صرخت قائلة : « أعطني ابني لأضمه بذراعي . أعطني ولدي لأرضعه . »

فنكّس الطّبيب رأسه ، وقال والغُصّات تُخرِسُه : « قد مات طفلك ، يا سيدتي ، فتَجَلّدي وتَصبّري لكي تعيشي بعده . »

فصرخت سلمى بصوت هائل ثم سكتت هُنَيْهَةً ، ثم ابتسمت ابتسامة فَرَحٍ ومَسَرّة ، ثم تهلّل وجهها كأنها عرفت شيئًا لم تكن تعرفه وقالت بهدوء : « أعطني جُثّة ولدي . قرّبه مني مَيّتاً . »

فحمل الطبيب الطّفل الميت ، و وضعه بين ذراعيها ، فضَمّته إلى صدرها ، وحوّلت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه :

« قد جئتَ لتأخذني يا ولدي . قد جئت لِتَدُلّني على الطريق المؤدّية إلى السّاحل . ها أنذا يا ولدي ، فسِرْ أمامي لنذهب من هذا الكهف المظْلِم . »

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشّمس من بين ستائر النّافذة ، وانسكبت على جسدين هامدين مُنْطَرِحَيْن على مضجع تَخْفِرُه هَيْبَة الأمومة ، وتُظَلّله أجنحة الموت .

فخرج الطّبيب باكيًا من تلك الغرفة . ولَمّا بلغ القاعة الكبرى تبدّلت تهاليل المهنئين بالصُّراخ والعويل . أما منصور بك غالب فلم يصْرُخ ولم يَتَنَهّد ولم يذْرِف دمعة ، ولم يَفُهْ [٣] بكلمة ، بل لبث جامداً منتصباً كالصّنم ، قابضاً بيمينه على كأس الشراب .

وفي اليوم التالي كُفّنت سلمى بأثواب عرسها

(١) اختَلَج : انتفض .

(٢) النّخْبُ : الشّربة من الخمر وغيرها ، يشربها الرجل لصحة الحبيب أو العشير أو المحتفى به .

(٣) يَفُهْ : ينطق .

البيضاء ، و وُضِعَت في تابوت مُوَشًّى بالمخمل النّاصع . أما طفلها فكانت أقْمِطَة أكفانه وتابوته ذراعي أمه ، وقبره صدرها الهادئ .

حملوا الجثّتين في نَعْش واحد ، ومشوا ببطء مُتْلف ، يشابه طَرَقات القلوب في صدور المُنازِعين ؛ فسار المشيِّعون وسِرْت بينهم ، وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي .

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يُرَتِّل ويُعَزِّم ، و وقف الكُهّان حولهُ ينغِّمون ويُسبِّحون ، وعلى وجوههم الكالِحة نِقابٌ من الخُلُوّ والغُفول .

ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفْرة همس أحد الواقفين قائلاً : « هذه أول مَرّة رأيت جسدين يضمُّهما تابوت واحد . »

وقال آخر : « تأمّلوا [1] بوجه منصور بك ، فهو ينظر إلى الفضاء بعينين زجاجيتين ، كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد . »

وقال آخر : « غداً يُزَوِّجه عمه المطران ثانيةً من امرأة أخرى ، أوفر ثروة وأقوى جسماً . »

وظل الكُهّانُ يُرَتّلون ويُسبِّحون حتى فَرَغَ حَفّارُ القبور من رَدْم الحفرة ، فأخذَ المشيِّعونَ إذ ذاك يقتربونَ واحداً واحداً من المطران وابن أخيه ، يُصبِّرونهما ويواسونهما بمسْتَعْذَبات الكلام .

أما أنا فبقيتُ واقفاً منفرداً وحدي ، وليس مَنْ يُعَزِّيني على مصيبتي ، كأن سلمى وطفلها لم يكونا أقربَ الناس إليّ .

عاد المشيعونَ وبقي حَفّارُ القبور مُنْتَصِباً بجانب القبر الجديد ، وفي يده رَفْشه [2] ومِحْفَره ، فدنوت منه وسألته قائلاً : « أ تذكر أين قبر فارس كرامة ؟ »

فنظر إليّ طويلاً ثم أشار نحو قبر « سلمى » وقال :

« في هذه الحفرة قد مَدَدْتُ ابنتهُ على صدره ، وعلى صدر ابنته قد مَدَدْتُ طفلها ، وفوقَ الجميع قد وضعتُ التُّرابَ بهذا الرَّفْش . »

فأجبته : « وفي هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل ، فما أقوى ساعِدَيْك ! »

ولما تَوارَى حَفّارُ القبور وراء أشجار السَّرْو ، خانَني الصَّبْرُ والتَّجَلُّد ؛ فارتميتُ على قبر « سَلْمَى » :

أبكيها ، وأرثيها !

(١) الفعل تأمّل يتعدى بنفسه أو بحرف الجر في .

(٢) الرَّفْش : مِجْراف يُجرف به التراب .

يطلب من: شركة أبو الهول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة